العقيدة في الله

طبعة خاصة بمصر والمغرب العربي واليمن

(يمنع تداولها في دول الخليج العربي)

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع مع شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر

هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com



دار النفائس

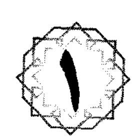
للنشر والتوزيع - الأردن

العبدلي - مقابل عمارة جوهرة القدس

ص.ب : ٩٢٧٥١١ عمان ١١١٩٠ الأردن

هاتف : ٥٦٩٣٩٤٠ - فاكس : ٥٦٩٣٩٤١

بريد إلكتروني : ALNAFAES@HOTMAIL.COM

العقيدة في ضوء الكتاب والسنة 



أ.د. عمر سليمان عبد الله الأشقر





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الجديدة والمنقحة

من سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة

الحمد لله الواحد المعبود، قيوم السموات والأرض، الذي هدانا إلى دينه القويم وصراطه المستقيم، وأصلي على خيرته من خلقه، وخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ، وعلى آله الأبرار وصحبه الأخيار، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

فقد ابتدأت الكتابة في سلسلة (العقيدة في ضوء الكتاب والسنة) منذ خمس عشرة سنة تقريباً، ولم تكتمل الكتابة فيها إلا منذ سنوات، وقدر الله لهذه السلسلة أن تنتشر في بقاع الأرض، وأقبل على دراستها والانتفاع بها طلبة العلم في مختلف الأقطار، وكل هذا من فضل الله وحده، فهو الذي هداني إلى تدوينها وتأليفها، وهو الذي أنعم عليّ بإتمامها، وهو الذي جعل لها القبول عند عباده، فله الحمد والمنّة والثناء الحسن وحده، وأسأله تعالى أن يدخر لي أجرها وثوابها عند لقياه.

ومنذ أن أكملت تدوينها وأنا أطمع في أن أعيد النظر في أجزاء هذه السلسلة، خاصة الأجزاء الأولى منها، ولكن كان يحول دون تحقيق هذه الأمنية مشاغل وأعمال مع اعتلال في الصحة. وقد وجدت في الأشهر الماضية فسحة من الوقت اغتنمتها لإعادة النظر فيما دونته، فجاءت هذه الطبعة المزيدة والمنقحة للأجزاء الثلاثة الأولى منها، ولعلي أستطيع أن أتمّ مراجعة وتنقيح بقية أجزائها في مقبل الأيام بحول الله وقوته.

لم يحصل تغيير في مباحث وموضوعات الأجزاء المنقحة، ولكنني بذلت

جهداً في توثيق النصوص وعزوها وضبطها، كما أجريت بعض التقديم والتأخير في المباحث، وهناك بعض الزيادات في بعض الموضوعات اقتضى المقام بسط القول فيها أو تدعيمها بالأدلة، كما اختصرت أو حذفت بعض المباحث، وهذا في مواضع قليلة.

والتغيير والتبديل والإصلاح فيما يدونه الإنسان طبيعة البشر، فقد أبى الله أن يكون الكمال لغير كتابه.

والحمد لله رب العالمين.

عمر سليمان عبد الله الأشقر

كلية الشريعة- الجامعة الأردنية

١٩ من رجب ١٤١٤ هـ

٣١ من كانون ثاني (يناير) ١٩٩٤م

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِهِ الله فلا مضلَّ له، ومن يضلله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فهذا مؤلف في العقيدة الإسلامية، أسأل الله تعالى أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله لي ذخراً في يوم لقياه إنّه سميع مجيب.

وهذا المؤلف عنوانه ينبيك عنه، فهو مؤلف في العقيدة الإسلامية يرجع بها إلى مصدريها الأصليين: كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وهذان المصدران هما اللذان بنيا عقيدة الرعيل الأول من هذه الأمة.

ولا أظن أن أحداً يخالف في أنّ عقيدة أولئك الرجال كانت هي العقيدة الصافية صفاء ماء البحيرة حال سكون الرياح القوية قوة الجبال الرواسي، المتينة متانة العروة الوثقى، وقد غيّر الله بأصحاب تلك العقيدة مسار التاريخ الإنساني، فهل نلام إذا عدنا بالعقيدة إلى منابعها، تلك المنابع التي نهل منها الأبرار الأخيار من سلفنا الصالح؟!

ودعوى الرجوع إلى الكتاب والسنة يدّعيها أقوام كثيرون بألسنتهم وخطبهم ومقالاتهم، ولكنّهم يخالفونها في مجال الاحتجاج والاستدلال، وفي مجال العمل والاهتداء.

فنراهم يقدمون آراء الرجال على النصوص القرآنية والحديثية، ونراهم

يهتدون بغير هدى الإسلام في السلوك والمعاملة. . . ؛ ولذا أطلت النفس في الباب الأول مؤكداً على الرجوع إلى هذين المصدرين: الكتاب وصحيح السنة في العقيدة والشريعة، وذكرت شبه بعض المعرضين عن السنة.

وفي الباب الأول مباحث جمة غير هذه المسألة كتعريف العقيدة، وبيان موقعها من الشريعة والإيمان، وحكم منكرها أو منكر أصلٍ من أصولها، واستطردت قليلاً لبيان شبهة الطائفة القديمة الحديثة التي تكفّر الناس بمجرد الذنوب.

ولم أنس أن أبين في هذا الباب المنهج الإيماني القرآني الذي جاء به الإسلام، وكيف أنه يخالف المنهج الفلسفي الكلامي الذي جرّ على الأمة بلاء عظيماً، أرجو أن أكون قد وفقت في تحديد الفرق بين المنهجين في المنابع والمصادر، وفي المنهج والسبيل، وفي طريقة الاستدلال، وفي الجنى والعطاء. . .

ومن خلال ذلك البيان تلمح تفرد المنهج القرآني وخصائصه.

وفي الباب الثاني الذي عقدته لتجلية مباحث الإيمان بالله تعالى تجد الأدلة التي تدل على وجود الله، ومناقشة شبه الملحدين، والرد على القائلين إن الكون خلق مصادفة، أو هو من صنع الطبيعة.

وبعد ذلك أتينا على السبيلين اللذين يعرفاننا بربنا وهما آيات الله المنظورة، وآياته المسطورة، وقد استرشدنا في ذلك بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية، ومباحث هذه المسألة هي صلب الكتاب ولبّه.

ولما كانت هذه المسألة في غاية الأهمية، وهي السبب الأعظم في فُرقة الأمة وجدت أنه لا مناص من ذكر الأسس التي تفهم في ضوئها النصوص التي تتحدث عن أسماء الله وصفاته، والقواعد المهمة التي توضح ذلك ، وتردّ على الذين أخطؤوا السبيل الإيماني القرآني.

وفي الختام تعرضت لتوحيد الله: مفهومه، وكيفية تحقيقه، وعنوانه (لا إله إلا الله) وبينت معناها وشروطها، كما بينت ما يناقض التوحيد وينافيه وهو (الشرك).

ثم تعرضت لشيء من تاريخ العقيدة مبيناً بطلان نظرية تطور العقيدة.

وقد استعنت بما وقع تحت يديّ من مؤلفات قديمة وحديثة، وقد ذكرت طرفاً منها في الخاتمة، إلا أن اختياري من هذه المؤلفات كان محكوماً بالمنهج الذي يعلن عنه عنوان الكتاب.

قد يرضي هذا الكتاب فريقاً من الناس، وقد يُسخط فريقاً آخر، ويعلم الله أن رضوان ربي كان نصب عيني وأنا أسطر مباحثه، وليس معنى ذلك أن ما فيه صوابٌ كله. فالقلم قد ينبو، والعقل قد يشت، والفكر قد يحار، وليس من معصوم إلا المصطفى عليه الصلاة والسلام، وما دام في العمر بقية فأنا راجع عن كل خطأ وقعت فيه مخالفاً لما جاء عن الله أو عن رسوله ﷺ، فإن أخذ الله وديعته قبل أن أعلن ذلك فقولي قول الإمام الشافعي رحمه الله: «إذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا رأيتم قولي يخالف قول رسول الله - ﷺ - فاضربوا بقولي عرض الحائط».

وستصدر أجزاء أخرى تحت هذا العنوان تجلي بقية أصول الاعتقاد على النسق نفسه إن شاء الله، أسأله تعالى السداد في القول والعمل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

د. عمر سليمان الأشقر

الكويت ١٨/من رجب ١٣٩٨هـ

٢٤/من يونيو ١٩٧٨ م

الباب الأول

المدخل لدراسة العقيدة

الفصل الأول

العقيدة تعريف وبيان

المبحث الأول: العقيدة لغة واصطلاحاً

تتردد كلمة العقيدة على ألسنة الناس وفي محاوراتهم ومحادثاتهم كثيراً، فنراهم يقولون: «أنا أعتقد كذا، وفلان عقيدته حسنة، والعقيدة الإسلامية السبب الأقوى الذي أدى إلى الانتصارات الإسلامية العظيمة في كلّ زمان ومكان، والحرب بيننا وبين اليهود حرب عقائدية في حقيقتها...».

فماذا يريد الناس من كلمة (عقيدة)؟ وما معنى هذه الكلمة في اللغة؟ وما مفهومها في الشرع؟

العقائد هي الأمور التي تصدق بها النفوس، وتطمئن إليها القلوب، وتكون يقيناً عند أصحابها، لا يمازجها ريب ولا يخالطها شك[1].

و«عَقْد الحبل» شدّ بعضه ببعض نقيض حله، ومادة «عقد» في اللغة مدارها على اللزوم والتأكد والاستيثاق، ففي القرآن: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة:89]، وتعقيد الأيمان إنما يكون بقصد القلب وعزمه، بخلاف لغو اليمين التي تجري على اللسان بدون قصد.

---

(1) رسالة العقائد، للشيخ حسن البنا، انظر مجموع الرسائل: 429، ومع أن العلماء المسلمين قديماً وحديثاً عنونوا لمباحث هذا العلم: بالعقائد فإنّ كلمة عقيدة لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ.

و«العقود»: أوثق العهود، ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]، وتقول العرب: «اعتقد الشيء: صلب واشتدّ»[١].

والعقيدة في الإسلام تقابل الشريعة، إذ الإسلام عقيدة وشريعة، والشريعة تعني التكاليف العملية التي جاء بها الإسلام في العبادات والمعاملات.

المبحث الثاني: العقائد علمية قلبية

والعقيدة ليست أموراً عملية، بل أمور علمية يجب على المسلم أن يعتقدها في قلبه، لأنّ الله أخبره بها بطريق كتابه، أو بطريق وحيه إلى رسوله ﷺ.

وأصول العقائد التي أمرنا الله باعتقادها هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وحدّدها الرسول ﷺ في حديث جبريل المشهور بقوله: (الإيمانُ: أنْ تُؤْمِنَ بِالله، ومَلائِكَتِهِ، وكتابِهِ، ولقائه ،ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر)[٢]. إذن العقيدة في الإسلام: هي المسائل العلمية التي صح بها الخبر عن الله ورسوله، والتي يجب أن ينعقد عليها قلب المسلم تصديقاً لله ورسوله.

---

(١) لسان العرب: مادة عقد: ٢/ ٨٣٦.

(٢) رواه البخاري، انظر صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١/ ١١٤، ومسلم في صحيحه: ١/ ٣٩، ورقمه: ٥، واللفظ لمسلم.

المبحث الثالث: العقيدة يقين لا تقبل الشك

وحتى تصبح هذه الأصول عقيدة لا بد أن نصدق بها تصديقاً جازماً لا ريب فيه، فإن كان فيها ريب أو شك كانت ظناً لا عقيدة، يقول صاحب المعجم الوسيط: «العقيدة: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده»(1)، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]، وقال: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١-٢]، وقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، وذم المشركين المرتابين: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

المبحث الرابع: المعتقدات غيب غير منظور

ويلاحظ أن المسائل التي يجب اعتقادها أمور غيبية، ليست مشاهدة منظورة، وهي التي عناها الله بقوله عندما مدح المؤمنين: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

فالله غيب، وكذلك الملائكة واليوم الآخر، أما الكتب والرسل فقد يتبادر أنّها تشاهد وتنظر، ولكنّ المراد هو الإيمان بنسبتها إلى الله، أي كون الرسل مبعوثين من عند الله، وأن الكتب منزلة من عند الله، وهذا أمر غيبي.

---

(1) المعجم الوسيط: ٢/ ٦١٤.

المبحث الخامس: العقيدة الصحيحة والعقيدة الفاسدة

العقيدة ليست مختصة بالإسلام، بل كل ديانة أو مذهب لا بدّ لأصحابه من عقيدة يقيمون عليها نظام حياتهم، وهذا ينطبق على الأفراد كما ينطبق على الجماعات، والعقائد منذ بدء الخليقة وإلى اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قسمان:

الأول: يمثل العقيدة الصحيحة، وهي تلك العقائد التي جاءت بها الرسل الكرام، وهي عقيدة واحدة، لأنها منزلة من العليم الخبير، ولا يتصور أن تختلف من رسول إلى رسول ومن زمان إلى زمان.

والقسم الثاني: يشمل العقائد الفاسدة على كثرتها وتعددها، وفسادها ناشىء من كونها نتاج أفكار البشر، ومن وضع عقلائهم ومفكريهم، ومهما بلغ البشر من عظم الشأن، فإن علمهم يبقى محدوداً مقيداً بقيود متأثراً بما حولهم من عادات وتقاليد وأفكار.

وقد يأتي فساد العقيدة من تحريفها، وتغييرها وتبديلها، كما هو الحال بالنسبة للعقيدة اليهودية والنصرانية في الوقت الحاضر، فإنهما حُرّفتا منذ عهد بعيد، ففسادهما كان من هذا التحريف، وإن كانت كل واحدة منهما عقيدة سليمة في الأصل.

أين العقيدة الصحيحة اليوم؟

العقيدة الصحيحة اليوم لا توجد إلا في الإسلام، لأنّه الدين المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] والعقائد في غير الإسلام، وإن كان في بعضها نتف من الحق، فإنها لا تمثل الحق ولا تجليه.

فمن أراد أن يعرف العقيدة السليمة فإنه لن يجدها في اليهودية، ولا في النصرانية، ولا في كلام الفلاسفة. . .، وإنما يجدها في الإسلام في أصليه: الكتاب والسنة، نديّة طريّة صافية مشرقة، تقنع العقل بالحجة والبرهان، وتملأ القلب إيماناً ويقيناً ونوراً وحياة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

المبحث السادس: أهمية العقيدة الإسلامية وضرورتها

العقيدة الإسلامية ضرورية للإنسان ضرورة الماء والهواء؛ إذ هو بدون هذه العقيدة ضائع تائه يفقد ذاته ووجوده. العقيدة الإسلامية وحدها هي التي تجيب عن التساؤلات التي شغلت، ولا تزال تشغل الفكر الإنساني، بل تحيّره: من أين جئت؟ ومن أين جاء هذا الكون؟ من الموجد؟ وما صفاته؟ وما أسماؤه؟ ولماذا أوجدنا وأوجد الكون؟ وما دورنا في هذا الكون؟ وما علاقتنا بالخالق الذي خلقنا؟ وهل هناك عوالم غير منظورة وراء هذا العالم المشهود؟ وهل هناك مخلوقات عاقلة مفكرة غير هذا الإنسان؟ وهل بعد هذه الحياة من حياة أخرى نصير إليها؟ وكيف تكون تلك الحياة إن كان الجواب بالإيجاب؟

لا توجد عقيدة سوى العقيدة الإسلامية اليوم تجيب على هذه الأسئلة إجابة صادقة مقنعة، وكل من لم يعرف هذه العقيدة، أو لم يعتنقها، فإن حاله لن يختلف عن حال ذلك الشاعر البائس[1] الذي لا يدري شيئاً:

جئت، لا أعلم من أين، ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت

---

(١) هو إيليا أبو ماضي من قصيدة له طويلة بعنوان «الطلاسم» من ديوانه (الجداول) ص: ١٠٦.

وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت

كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود؟

هل أنا حرّ طليق أم أسير في قيود؟

هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مقود؟

أتمنى أنني أدري ولكنّي

لست أدري

وطريقي ما طريقي؟ أطويل أم قصير؟

هل أنا أصعد أم أهبط فيه وأغور؟

أأنا السائر في الدرب أم الدرب تسير؟

أم كلانا واقف والدهر يجري؟!

لست أدري

ليت شعري وأنا في عالم الغيب الأمين

أتراني كنت أدري أنني فيه دفين

وبأني سوف أبدو وبأني سأكون

أم تراني كنت لا أدرك شيئاً؟

لست أدري

أتـرانـي قبلمـا أصبحـت إنسـانـاً سـويّـاً
كنت محواً أو محالاً أم تراني كنت شيئاً
ألهـذا اللغـز حـلّ؟ أم سيبقـى أبـديـاً
لسـت أدري. . . ولمـاذا لسـت أدري؟

لست أدري

أي حيرة هذه! وأي قلق تجلبه هذه المجاهيل للنفس الإنسانية؟! ألا يستحق أبناء هذا القرن الذين فقدوا المعرفة بالحقائق الكبرى التي لا تستقيم حياتهم إلا بها هذه الهموم التي تملأ النفس وتسبب الأوجاع والعقد النفسية؟!

وأين هؤلاء من المسلم الذي يدري، ويعرف معرفة مستيقنة كل هذه الحقائق، فإذا به يجد برد اليقين، وهدوء البال، وإذا به يسير في طريق مستقيم إلى غاية مرسومة يعرف معالمها، ويدري غايتها.

واستمع إلى الشاعر البائس يتحدث عن الموت والمصير:

إن يكُ الموت قصاصاً! أي ذنب للطهارة؟
وإن كـان ثـوابـاً، أي فضـل لـلـدعـارة؟
وإذا كـان ومـا فيـه جـزاء أو خسـارة
فلـم الأسمـاء إثـم وصـلاح؟

لست أدري

إن يـك المـوت رقاداً بعده صحو طويل
فلمـاذا لـيس يبقى صحونا هذا الجميل؟

ولماذا المرء لا يدري متى وقت الرحيل؟
ومتى ينكشف الستر فيدري؟

لست أدري

إن يك الموت هجوعاً يملأ النفس سلاماً
وانعتاقاً لا اعتقالا وابتداء لا ختاماً
فلماذا لا أعشق النوم ولا أهوى الحماما؟
ولماذا تجزع الأرواح منه؟

لست أدري

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور؟
فحياة، فخلود، أم فناء فدثور؟
أكلام الناس صدق أم كلام الناس زور؟
أصحيح أن بعض الناس يدري؟

لست أدري

إن أكن أبعثُ بعد الموت جُثْماناً وعقلاً
أترى أبعث بعضاً أم ترى أبعث كُلاً
أترى أبعث طفلاً أم ترى أبعث كهلاً؟
ثم هل أعرف بعد البعث ذاتي؟

لست أدري

إنه لا يدري إلى أين المصير، ومصير الإنسان يهمه ويعنيه، ويريد أن يطمئن على ذاك المصير، ونحن نرى لوعة الشاعر وأساه ؛ لأنّه لا يدري إلى أين يصير؟ وماذا سيصير؟ إنه الضلال عن الحقيقة، إنّه شقاء القلب المثقل المكدود، الذي أتعبه المسير، وكم في الحياة من أمثال هذا الشاعر البائس الضال، بعضهم يستطيع أن يفصح عن شقوته، وحيرته، وبعضهم يحس ويعاني، وتبقى أفكاره حبيسة نفسه الشقية.

«لست أدري» تلك هي الإجابة عن التساؤلات الخالدة، وليست هي قولة شاعر فحسب، «فسقراط» الفيلسوف الذي يُعدّ من عمالقة الفلاسفة، يقول بصريح العبارة: «الشيء الذي لا أزال أجهله جيداً أنني لست أدري»[1]، بل إنّ «اللاأدرية» مذهب فلسفي قديم.

بالإسلام وحده يصبح الإنسان يدري من أين جاء، وإلى أين المصير، يدري لماذا هو موجود، وما دوره في هذا الوجود، يدري ذلك حقاً وصدقاً، وفرق بين من يدري ومن لا يدري ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

---

(١) الدين، لدراز: ٦٩.

الفصل الثاني
علاقة العقيدة بالإيمان والشريعة

المبحث الأول: علاقة العقيدة بالإيمان

امتدح الله في كتابه الإيمان وأهل الإيمان في مثل قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، وقال فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥]، ووعدهم بالجنة: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

والإيمان الذي أثنى الله على أهله ليس هو العقيدة فحسب، ولكنَّ العقيدة تمثل قاعدة الإيمان وأصله، فالإيمان: عقيدة تستقرّ في القلب استقراراً يلازمه، ولا ينفك عنه، ويعلن صاحبها بلسانه عن العقيدة المستكنّة في قلبه، ويُصدّق الاعتقاد والقول بالعمل وفق مقتضى هذه العقيدة.

إنّ العقيدة التي تستكنّ في القلب، ولا يكون لها وجود في العلانية عقيدة خاوية باردة، لا تستحق أن تسمى عقيدة، وقد نرى كثيراً من الناس يعرفون الحقيقة على وجهها، ولكنّهم لا ينصاعون لها، ولا يصوغون حياتهم وفقها، بل قد يعارضون الحق الذي استيقنوه ويحاربونه، فهذا إبليس يعرف الحقائق الكبرى معرفة يقينية، يعرف الله، ويعرف صدق الرسل والكتب، ولكنّه نذر نفسه لمحاربة الحق الذي يعرفه.

وفرعون كان يوقن بأن المعجزات التي جاء بها موسى إنما هي من عند الله، ولكنه جحد بها استكباراً وعلواً، كما قال الله في حقه وملئه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا

وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقد خاطب موسى فرعون قائلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وأهل الكتاب يعرفون أنّ محمداً مرسل من ربه: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ولكنّهم لا يقرّون بذلك.

واسمع إلى قول أبي طالب يخاطب الرسول ﷺ معتذراً لعدم إيمانه:

ولقد علمتُ بأنّ دين محمد ... من خير أديان البرية ديناً

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحاً بذاك مبيناً

إذن ليس الإيمان مجرد معرفة باردة بالله، أو معرفة يستعلي صاحبها عن الإقرار بها، أو يرفض أن ينصاع لحكمها، بل هي عقيدة رضي بها قلب صاحبها، وأعلن عنها بلسانه، وارتضى المنهج الذي صاغه الله متصلاً بها.

ولذلك قال علماء السلف: «الإيمان: اعتقاد بالجنان، ونطق باللسان، وعمل بالأركان»[١].

---

(١) هذا قول عامة السلف، ومنهم الأئمة الثلاثة أحمد ومالك والشافعي. وخالف الإمام أبو حنيفة فقال: الإيمان: الاعتقاد والنطق، والعمل من لوازم الإيمان ولا يدخل في مسماه.

وذهب فريق آخر إلى أن الإيمان مجرد التصديق فقط، ولو لم يكن معه قول ولا عمل، هذا مذهب الجهمية والأشاعرة. وذهب الكرامية إلى أنّ الإيمان هو القول فقط. والرد على مذهبهم يعلم مما أشرنا إليه في الأصل.

المبحث الثاني: صلة العقيدة بالشريعة

الإيمان كما ذكرنا له شطران: عقيدة نقية راسخة تستكن في القلب، وعمل يظهر على الجوارح، فإذا فُقِد أحد الركنين، فإن الإيمان يزول أو يختل؛ إذ الاتصال بين الطرفين وثيق جداً.

مثل الإيمان كشجرة طيبة ضاربة بجذورها في الأرض الطيبة، وباسقة بسوقها في السماء، مزهرة مثمرة مِعْطاءة، تعطي أكلها كلّ حين بإذن ربها، فالإيمان هو الشجرة، وجذورها العقيدة التي تغلغلت في قلب صاحبها، والسوق والفروع والثمار هي العمل.

ولا شك أنّ الجذور إذا خلعت أو تعفنت فسدت الشجرة، ويبست، ولم يبق لها وجود، وكذلك الإيمان لا يبقى له وجود إذا زالت العقيدة، أمّا إذا قطعت الساق والفروع، أو قطع بعض منها فإنّ الشجرة تضعف وتهزل، وقد تموت كلياً، لأن وجود الفروع والأوراق ضروري كي تحافظ الشجرة على بقائها، وكذلك الأعمال إذا تركت أو ترك جزء منها، فإنّ الإيمان ينقص أو يزول.

المبحث الثالث: العناية بالعمل

ومن هنا يجب الاعتناء بفعل الأعمال التي فرضها الله علينا، أو حبب إلينا القيام بها، وبترك ما نهى عنه من أعمال؛ لأنّ ذلك جزء من الإيمان، فالعمل المتروك - وإن كان قليلاً - ينقص من الإيمان بذلك المقدار.

ومن هنا يجب أن يتنبه الذين يهوّنون من شأن العمل بسنة الرسول ﷺ والتزامها إلى خطورة موقفهم، وقد يتعدى بعض هؤلاء طوره، فيصف أموراً

من السنن أو الدين بأنها قشور، ونسأل الله أن يعفو عن هؤلاء، فإنّ الدين كله لباب لا قشور فيه، وإن تفاوتت أمور الدين في الأهمية.

ولا يفهم من قولنا أننا لا نُعنى بالأولويات في العلم والعمل والدعوة إلى الله، فهذا أمر ينبغي أن يكون مقرراً ومعلوماً، ولكن الذي ننكره هو ترك الجزئيات، ولوم الذين لا يُلزمون أنفسهم بالصغير والكبير من أمر الإسلام وسنة المصطفى ﷺ.

وكم يؤثر في نفسي مشهد عمر عندما طُعِن، ودخل عليه شاب، وقال لعمر قولاً حسناً، فلما أدبر الشاب ليخرج، إذا إزاره يمس الأرض، فدعاه عمر وقال له: «يا ابن أخي، ارفع ثوبك، فإنّه أنقى لثوبك، وأتقى لربك»[1] ، ولم يمنعه الموت الذي نزل به من أن يرشد ذلك الرجل إلى أمر يعدّه كثير من الناس اليوم من القشور، التي لا يجوز أن يُعْنى بها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، انظر صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ٧/ ٦٠، ورقم الحديث: ٣٧٠٠.

الفصل الثالث

الإيمان والكفر

المبحث الأول: حكم إنكار العقيدة

كل من أنكر العقيدة إنكاراً كلياً كالشيوعيين الذين ينكرون وجود الله، ويكذبون الرسل، والكتب، ولا يؤمنون بالمصير والجزاء، أو أنكر جزءاً من العقيدة، فإنّه كافر غير مسلم، ويجب أن يُعْلم أن العقيدة الإسلامية لا تقبل التجزئة أبداً ؛ لأنها وحدة مترابطة أشدّ الترابط.

فالإيمان بالله يقتضي الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، والإيمان بالكتب يتضمن بقية أصول الإيمان، والإيمان بالرسول ﷺ يعني تصديقه فيما أخبر، . . . لذا فقد عدّ الله من آمن بأصل وكفر بآخر كافراً حقاً، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]. والتكذيب بجزئية من جزئيات الأصول الاعتقادية مما ثبت في الكتاب أو السنة ثبوتاً قاطعاً يُعدّ كفراً، كإنكار رسول من الرسل أو ملك من الملائكة.

المبحث الثاني: الأعمال والأقوال التي تعد كفراً

ليس الكفر هو إنكار الأصول الاعتقادية فحسب، بل هناك أعمال فِعلها كفر، ويمكن تحديدها بعبارة واحدة: (عبادة غير الله) فالعبادة حقّ الله وحده،

وصرفها لغير الله شرك، كالصلاة لغير الله، والذبح لغير الله، ودعاء غير الله. . .

وقد يكفر المرء باللفظ كالذي يسب الخالق جلّ وعلا، أو الإسلام أو الرسول أو يستهزىء بالإسلام، أو يفضّل على الإسلام المبادىء الضالة كالشيوعية أو البوذية، أو الأديان المحرّفة كاليهودية والنصرانية، أو يتهم الإسلام بالنقص والقصور، والتأخر والرجعية.

المبحث الثالث: الموقف من الكفار

يجب أن يعادي المسلم الكفار، فيكرههم لما تلبَّسوا به من كفر، كما يكره كفرهم، وعليه أن يحارب هذا الباطل وأهله بالقول والبيان، بأن يدعوهم إلى الحقّ، ويشرح لهم ما هم فيه من ضلال، ويعرض لهم الحقّ عرضاً قوياً نقياً، فنحن وإن كنّا نبغض الكافرين، إلا أنّنا نحبّ لهم الهداية، ونرجوها لهم.

وللكفار أحكام بينتها كتب الفقه منها: أننا لا نزوجهم المسلمات، ولا نتزوج من نسائهم إلا الكتابية، ولا نغسل موتاهم، ولا نصلي عليهم. . .

المبحث الرابع: الكافر عند الله

الذي بلغته الدعوة الإسلامية ورفضها عن علم كافر مخلد في نار جهنم، لا حجة له يوم القيامة.

أمّا الذين لم يبلغهم الإسلام لسبب من الأسباب كأن بعدت ديارهم، أو فقدوا السمع والبصر، أو بلغهم الإسلام وهم كبار لا يعقلون، فهؤلاء لا يعذّبون في يوم القيامة حتى يختبروا ويمتحنوا؛ لأنّ الحجة لم تقم عليهم، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

والدليل على أنهّم يمتحنون الحديث الذي رواه الأسود بن سريع قال: قال رسول الله ﷺ: (أرْبَعَةٌ يَحْتَجونَ يَوْمَ القِيَامةِ: رَجُلٌ أصَمّ لا يَسْمَعُ شَيْئاً، وَرَجُلٌ أحْمَقُ، وَرَجُلٌ هَرِمٌ، وَرَجُلٌ مَاتَ فِي فَتْرَةٍ (لمْ تَبْلغْهُ دَعْوَةُ رَسُولٍ). فَأمّا الأصَمّ فَيَقُولُ: رَبّ قَدْ جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: ربّ قد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام وما أعقلُ شيئاً، وأمّا الذي مات في الفترة فيقول: رب ما أتاني لك رسول. فيأخذ الله مواثيقهم لَيُطِيعُنّه، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها، لكانت عليهم برداً وسلاما)[1].

المبحث الخامس: ترك الواجبات وفعل المحرمات

المطلب الأول: موقف السلف من مرتكب الكبيرة

لا شك أنّ الذي يترك ما ألزمه الله به من الطاعات كالزكاة والصوم والحج وبرّ الوالدين، أو يفعل المحرمات كالزنا والربا وأكل مال اليتيم، قد شوّه وجه الإيمان، وتناقص إيمانه بمقدار الطاعات التي ترك، وبمقدار الذنوب التي فعل، ولكنْ هل يكفر بمجرد هذا الترك للواجبات، والفعل للمحرمات، إذا لم يكن جاحداً للأول، ولا مستحلاً للثاني؟

إن النصوص التي بين أيدينا تهدينا إلى أنّ المسلم لا يكفر بفعله للذنوب، ولا بتركه للواجبات، بل ينقص ذلك من إيمانه، ويكون أمره إلى الله إن شاء غفر له، وإن شاء عذّبه. ومن النصوص الصريحة في ذلك قوله تعالى:

---

(١) رواه أحمد في مسنده، وصححه البيهقي. راجع ابن كثير: عند تفسيره آية رقم: ١٥، من سورة الإسراء.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨]، فالذي لا يقبل الغفران: الشرك، أما ما دون الشرك فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه.

وقد جاءت أحاديث توضح مدلول الآية ففي الحديث القدسي: (ابن آدَمَ لوْ أتيتني بقرابِ[1] الأرضِ خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، أتيتك بقرابها مغفرة)[2].

وفي حديث قدسي آخر: (ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة، لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرة)[3].

وعن عتبان بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (فإن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله)[4].

وعن جابر أن رسول الله ﷺ قال: (من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة)[5].

وفي حديث الشفاعة أن الله يقول: (وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله)[6].

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: (يدخل أهل الجنة الجنّة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبةٍ من

---

(١) أي بما يقارب مِلأَها.

(٢) رواه الترمذي في سننه: ٤/ ٤٩ ورقمه: ٣٥٤٠، وقال فيه: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وانظر صحيح سنن الترمذي للألباني: ٣/ ١٧٥، ورقمه: ٢٨٠٥.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٦٨، ورقمه: ٢٦٨٧.

(٤) صحيح البخاري: ١/ ٥١٩، ورقمه: ٤٢٥.

(٥) صحيح مسلم: ١/ ٩٤. ورقمه: ٩٤.

(٦) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٧٤.

خردلٍ من إيمان)[1].

وقال أبو سفيان: «جاورت جابر بن عبد الله بمكة ستة أشهر، فسأله رجل: هل كنتم تسمون أحداً من أهل القبلة كافراً؟ قال: معاذ الله ! قال: فهل تسمونه مشركاً؟ قال: لا»[2].

هذه النصوص جعلت العلماء الأفذاذ من سلف الأمة يقولون في مرتكب الذنوب وتارك الواجبات: «هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته». فهم أثبتوا له إيماناً، ولكنّه ليس الإيمان المطلق الذي يستحقه من فعل الطاعات، وانتهى عن المعاصي، بل إيمان مقيد بفسقه بسبب الذنب الكبير الذي ارتكبه.

المطلب الثاني: الخوارج الذين يكفرون بالذنوب

في مقابل هؤلاء اتجهت طائفة أخرى ترمي الناس بالكفر إذا قصّروا في واجب، أو فعلوا محرّماً، ولا زلنا نرى كثيراً من النّاس يسارعون إلى التكفير بمثل ذلك، وأول من تبنى هذا القول (الخوارج)، وهم طائفة خرجوا من جيش علي بن أبي طالب بعد أن أخفق المحكمان: أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص في حسم الخلاف الناشب بين المسلمين بقيادة علي ومعاوية.

زعم الخوارج أن تحكيم الرجال خطأ شرعاً، وعدّوه كفراً، وكفَّروا جميع المسلمين الذين رضوا عن ذلك، وشهدوا على أنفسهم بالكفر، ثم آمنوا من جديد، وطالبوا علياً بالإقرار على نفسه بالكفر كشرط لعودتهم إلى صفوف جيشه، وناقشهم علي، وأرسل إليهم حبْر الأمة عبد الله بن عباس، فأقام عليهم

(١) صحيح البخاري: ١/ ٧٢، ورقمه: ٢٢.

(٢) رواه أبو عبيد القاسم ين سلام في كتاب الإيمان له بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني: ص٩٨، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط مسلم. وأبو سفيان راوي الحديث تابعي.

الحجة، ونقض مذهبهم، وعاد منهم بضعة ألوف، وأصرَّ على ذلك القول ألفان حاربهم علي وقضى عليهم، إلا أن مذهبهم انتشر، وتبناه من بعدهم أناس كثيرون، ولا تزال فكرة التكفير تثور بين فترة وأخرى، وقد ثارت من جديد في أيامنا هذه.

أدلة الخوارج على تكفير مرتكب الكبيرة:

والخوارج[1] يزعمون أنّ مرتكب الكبيرة كافر خارج من الإسلام، حلال دمه وماله، ويقولون: هو خالد في النار، وهم يحتجون على ذلك بأدلة ظنوها مثبتة لما ذهبوا إليه، منها:

١- قالوا: أنتم توافقوننا على أنّ الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، لأنّ الإيمان: اعتقاد، وقول، وعمل، وإذا زال جزء من الإيمان كالعمل زال الإيمان كله.

٢- واحتجوا بأنّ الله سمّى بعض الذنوب فسقاً كقوله: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦]، فأطلق لفظ الفاسق هنا على الكاذب، وهذا ظاهر من التأمل في سياق الآيات.

وقال ﷺ: (سِبابُ المؤمن فسوق)[2].

وقالوا: سمى الله بعض الذنوب ظلماً كأكل مال اليتيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ [النساء: ١٠] وسمى من يُخرج

---

(١) هناك فرقة أخرى، وهم (المعتزلة) أتباع واصل بن عطاء، قالوا: إن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً، وليس كافراً، بل هو في منزلة وسط بين الكفر والإيمان، أما في الآخرة فيحكمون عليه بالخلود في النار.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٨٠، ورقمه ٦٤.

المرأة المتوفى عنها من بيت الزوجية في مدة محددة ظالماً ؛ لأنّه متعدّ لحدود الله، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

وقالوا: هذه الذنوب فسق وظلم، والفاسقون والظالمون كافرون بنصّ القرآن: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وقالوا: وردت النصوص بنفي الإيمان عن الذي ارتكب ذنباً، فمن ذلك ما رواه مسلم أن النبيّ ﷺ قال: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[١]، وقوله: (لا يبغض الأنصار أحدٌ يؤمن بالله ورسوله)[٢]، وقوله: (والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا)[٣].

٣- وقالوا: تبرّأ الرسول ﷺ ممن فعل بعض الذنوب، كقوله ﷺ: (من حمل علينا السلاح فليس منا، ومن غشنا فليس منا)[٤]، وفي الحديث الآخر (من غشّ فليس مني)[٥] ، وفي الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن) قيل: ومَنْ يا رسول الله؟ قال: (الذي لا يأمن جاره بوائقه)[٦].

٤- وقالوا: جاء تسمية بعض الذنوب كفراً كقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ١/٧٦، ورقمه: ٥٧.
(٢) صحيح مسلم: ١/٨٦.
(٣) صحيح مسلم: ١/٧٤، ورقمه: ٥٤.
(٤) صحيح مسلم: ١/٩٩، ورقمه: ١٠١.
(٥) صحيح مسلم: ١/١٠١، ورقمه: ١٠٢.
(٦) صحيح البخاري: ٦٠١٦.

﴿ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال الرسول ﷺ: (لا ترجعوا بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[(١)].

وقال: (إذا كفّر الرجل أخاه فَقَدْ باء بها أَحَدُهُما)[(٢)].

الرد على ما استدل الخوارج به:

هذه هي الحجج التي احتجوا بها على تكفير مرتكب الذنوب والمعاصي، وسنحاول أن نبين موطن الخطأ في هذه الحجج:

١- أما استدلالهم بأن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان فلا ننكر عليهم ذلك، ولكنّ خطأهم أنّهم عدّوها شرطاً في الإيمان، والصحيح أنّها ليست كذلك، فزوالها ينافي كمال الإيمان الواجب، أي إذا زالت زال من الإيمان جزء، وبقي ناقصاً، ومثل ذلك مثل الإنسان تُقطع يده أو رجله أو تُقلع عينه، أو أذنه، ويبقى مع ذلك إنساناً تتردد فيه الحياة، فإذا قُطع وسطه أو رأسه أو قلع قلبه كان كمن زال الإيمان منه، فزوال اليد أو الرجل أو العين تشبه زوال بعض الأعمال الواجبة أو فعل الأمور المحرمة، وزوال الرأس أو القلب يشبه زوال العقيدة.

٢- أمّا ما احتجوا به من أنّ الفسق والظلم كفر فهذا فهم خاطىء، إذ معنى الفسق الخروج عن طاعة الله، والخروج عن طاعة الله ليس على حد سواء، فقد يكون خروج كفر، وقد يكون خروجاً ليس بكفر، فمنكر الملائكة خارج

---

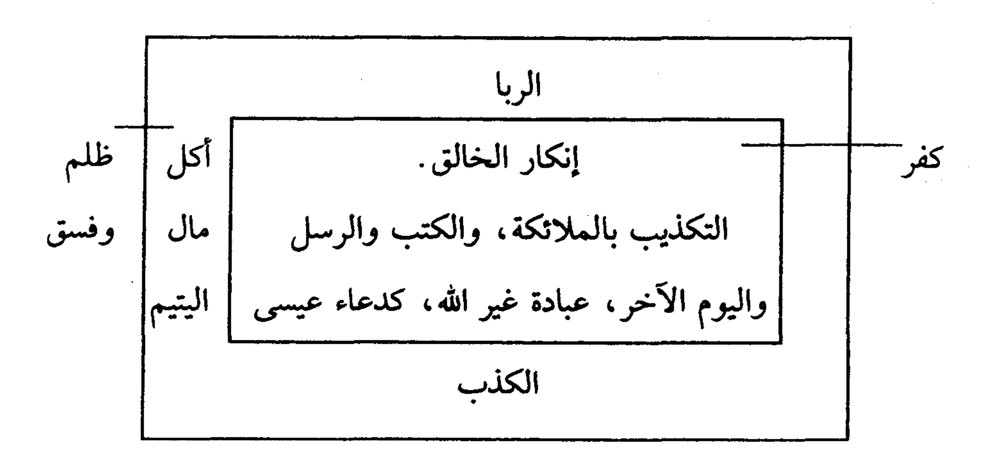
(١) رواه مسلم: ١/ ٨٢، ورقمه: ٦٥.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٧٩، ورقمه: ٧٩.

عن طاعة الله خروج كفر، وشارب الخمر خارج عن طاعة الله خروج معصية لا كفر.

وكذلك الظلم يتفاوت في نفسه، فقد يكون الظلم شديداً بالغاً درجة الكفر، وقد يكون أدنى من ذلك.

ويمكن أن نتصور ذلك إذا رسمنا دائرة كبيرة في وسطها دويرة صغيرة، الدائرة الكبرى تمثل الظلم والفسق، والصغرى تمثل الكفر، فيكون الكفر داخلاً في الظلم والفسق، لأنهما أعمّ من الكفر، بينما بعض الظلم والفسق ليس بكفر.



ومما يدل على أن الفسق قد لا يكون كفراً قوله ﷺ: (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)[1] ، فقد فرق الرسول ﷺ بينهما، وإن كان المراد بالكفر في الحديث الكفر الذي لا يخرج من الملة.

أما النصوص التي احتجوا بها وقالوا: إنها تنفي الإيمان بالذنوب، أو فيها

(١) صحيح مسلم: ١/ ٨٠، ورقمه: ٦٤.

براءة الرسول ﷺ ممن فعل ذنباً، أو نصّت على كفر من فعل ذنباً، فليس المراد منها أنّ الإيمان يزول بالذنوب والمعاصي، وأنّ الذنوب والمعاصي توجب الكفر، ولكنّها تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه، الذي نعت الله به أهله، واشترطه عليهم في مواضع من كتابه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١-١١٢]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٥].

وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٢-٣].

وقال أبو عبيد القاسم بن سلاّم[1]، بعد أن ساق هذه الآيات: «فهذه الآيات التي شرحت وأبانت شرائع الإسلام المفروضة على أهله، ونفت عنه المعاصي كلها، ثم فسَّرته السنة بالأحاديث التي فيها خِلال الإيمان، فلما خالطت هذه المعاصي هذا الإيمان المنعوت بغيرها، قيل ليس هذا من الشرائط التي أخذها الله على المؤمنين ولا الأمارات التي يعرف بها أنه الإيمان فنفت عنهم حينئذ حقيقته، ولم يزل عنهم اسمه».

ثم ناقش شبهة من يقول: كيف يجوز أن يقال ليس بمؤمن، واسم الإيمان

(١) هذه النصوص من كلام أبي عبيد منقولة من كتابه (الإيمان) ضمن رسائل أربع حققها الشيخ ناصر الدين الألباني ص: ٩٠-٩٦.

غير زائل عنه؟ مبيّناً أنّ هذا جرى على طريقة العرب في نفي العمل الذي لم يأت به صاحبه على وجهه، والقرآن نزل بكلام العرب وأساليبها «وكلام العرب المستفيض عندنا، غير المستنكر في إزالة العمل عن عامله إذا كان عمله على غير حقيقته، ألا ترى أنهم يقولون للصانع إذا كان ليس محكماً لعمله: ما صنعت شيئاً، ولا عملت شيئاً، إنما وقع معناها هنا على نفي التجويد، لا على الصنعة في نفسها، فهو عندهم عامل بالاسم، وغير عامل في الإتقان».

وبيّن أنّ العرب تتكلم بأشدّ من هذا «وذلك كرجل يَعُقُّ أباه ويبلغ منه الأذى، فيقال: ما هو بولد، وهم يعلمون أنّه ابن صلبه. ثم يقال مثله في الأخ والزوجة والمملوك، وإنّما مذهبهم في هذا المزايلة من الأعمال الواجبة عليهم من الطاعة والبر، وأما النكاح والرقّ والأنساب، فعلى ما كانت عليه إمكانها وأسماؤها».

ثم بين أن هذه النصوص التي تنفي الإيمان وردت على النسق نفسه، فقال: «فكذلك هذه الذنوب التي ينفى بها الإيمان، إنما أحبطت الحقائق منه الشرائع التي هي من صفاته، فأمّا الأسماء فعلى ما كانت قبل ذلك، ولا يقال لهم إلا المؤمنون، وبه الحكم عليهم».

واستشهد بآية آل عمران التي تُخبر أنّ الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه، فنبذوه وراء ظهورهم، ومع ذلك فإنّه حكم لهم بحكم أهل الكتاب في آيات أخرى، وأباح لنا أكل ذبائحهم، ونكاح نسائهم، ثم قال: «فهم بالأحكام والأسماء في الكتاب داخلون، وهم لها بالحقائق مفارقون».

وأورد حديث المسيء صلاته الذي أخرجه الشيخان، وفيه يقول الرسول ﷺ: (ارْجع فصلّ فإنك لم تصل)[1] أكثر من مرة، مع أنّه كان في كل مرة يصلي، فإنه مُصلّ بالاسم، وغير مصلّ بالحقيقة.

---

(١) رواه البخاري: ٢/ ٢٧٧. ورقمه: ٧٩٣، ورواه مسلم: ١/ ٢٩٨، ورقمه: ٣٩٧.

المراد من النصوص التي تبرأ فيها الرسول ﷺ من مقترفي الذنوب:

قرر أبو عبيد: «أنّ البراءة هنا ليس معناها التبرؤ من رسول الله ﷺ ولا من ملته، إنما مذهبه عندنا أنّه ليس من المطيعين لنا، ولا من المقتدين بنا، ولا من المحافظين على شرائعنا».

المراد بالنصوص التي تكفِّر بالذنوب:

قال أبو عبيد: «وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبها بالمعاصي، فإنّ معناها عندنا ليست تثبت على أهلها كفراً ولا شركاً يزيلان الإيمان عن صاحبه، إنما وجوهها أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون، وقد وجد لهذين النوعين من الدلائل في الكتاب والسنة نحو ما وجدنا في النوعين الأولين».

وبين أنّ المراد بالذنوب التي سميت كفراً وشركاً «أنها أخلاق المشركين وتسميتهم وسنتهم وألفاظهم وأحكامهم، ونحو ذلك من أمورهم».

واستشهد على ذلك بقول ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال ابن عباس: «ليس بكفر ينقل عن الملة»، وقال عطاء: «كفر دون كفر». وأثر ابن عباس قال فيه محقق الكتاب: «أخرجه الحاكم في المستدرك من طريق طاووس عن ابن عباس، وصححه هو والذهبي»[1].

فالحكم بغير ما أنزل الله وإن سُمي كفراً إلا أنه غير ناقل عن ملة الإسلام، والدّين باق على حاله، وإن خالطه هذا الذنب، فالمعنى أنّ الحكم بغير ما أنزل

---

(١) كتاب الإيمان، لأبي عبيد القاسم بن سلام، منشور ضمن أربع رسائل، ص: ٩٤.

الله من سنن الكفار، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثم قال: تأويله عند أهل التفسير أنّ من حكم بغير ما أنزل الله - وهو على ملة الإسلام - كان بذلك الحكم كأهل الجاهلية، إنما هو أنّ أهل الجاهلية كذلك كانوا يحكمون، وهذا كقوله: (ثلاثة من أمر الجاهلية: الطعن في الأنساب، والنياحة، والأنواء). حديث صحيح[١]، وكذلك حديث: (آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اتئمِن خان)[٢].

قال أبو عبيد: «ليس وجوه هذه الآثار أنّ راكبها يكون جاهلاً، ولا كافراً، ولا منافقاً، وهو مؤمن بالله وما جاء من عنده، ومؤدٍّ لفرائضه، ولكن معناها أنها تتبين من أفعال الكفار المحرمة المنهي عنها في الكتاب والسنة، ليتحاماها المسلمون، ويتجنبوها، فلا يتشبّهون بشيء من أخلاقهم، ولا شرائعهم».

وأورد حديث: (إذا استعطرت المرأة ثم مرَّت بقوم يوجد ريحها أنها زانية)[٣] ، فهل يكون هذا من الزنى الذي تجب فيه الحدود؟

ولعل مراد أبي عبيد القاسم بن سلام بقوله: « أنّ الحكم بغير ما أنزل الله ليس كفراً مخرجاً من الملة » هو حكم القاضي أو الحاكم المسلم في قضية ما بالهوى مع حكمه في بقية الأمور بحكم الله.

أما الحكم بالقوانين الكافرة، وتطبيقها على الشعوب الإسلامية بقوة الحديد والنّار، ومحاربة وتعذيب كل من نادى بتطبيق الإسلام، فهذا ليس من الإسلام

---

(١) صحيح الجامع الصغير: ١/ ٥٨٣. ورقمه: ٣٠٣٩، ولفظه فيه: «ثلاث من فعل أهل الجاهلية، لا يدعهنَّ أهل الإسلام: استسقاء بالكواكب، وطعن في النسب، والنياحة على الميت» وعزاه إلى البخاري في التاريخ، والطبراني في الكبير، وأحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٨٩، ورقمه: ٣٣، وصحيح مسلم: ١/ ٧٨، ورقمه: ٥٩.

(٣) قال محقق كتاب الإيمان: ص: ٩٦، حديث صحيح، أخرجه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم في «صحاحهم» عن أبي موسى الأشعري مرفوعاً بلفظ (أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية، وكل عين زانية) وأخرجه بنحوه أبو داود والترمذي وصححه.

في شيء ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

المطلب الثالث: القائلون إن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان

جنح الخوارج إلى جانب واحد من النصوص، تلك النصوص التي تبين أنّ مرتكب الكبيرة قد شوّه إيمانه وأنقصه، ولم يدركوا النصوص الدالة على أن الإيمان لم يزل منه بالكلية، وفي مقابل هؤلاء فريق[1] آخر زعم أن مرتكب الكبيرة كامل الإيمان، وقرروا «أنه لا يضرّ مع الإيمان ذنب» وهؤلاء قالوا: الإيمان اعتقاد القلب، ونطق اللسان، والأعمال ليست من الإيمان. وقالوا: الإيمان القلبي شيء واحد لا يتفاوت فيه الناس، واحتجوا بالنصوص التي تدلّ على أنّ الذين ارتكبوا الكبائر مؤمنون يدخلون الجنة.

ويردّ عليهم أنّه ورد في أكثر من نصّ اعتبار الأعمال من الإيمان كقوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[2].

ويردّ قولهم أيضاً نصوص الوعيد كقوله ﷺ: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[3].

وهذان الفريقان لهما آثار سيئة، فالأولون المكفرون ييئسون الناس من رحمة الله، والآخرون يجرئون النّاس على ارتكاب الذنوب والمعاصي، وسلف الأمة وسط بين هؤلاء وهؤلاء، فهم يثبتون لمرتكب الكبيرة إيماناً مقيداً في الدنيا، وفي الآخرة أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم.

---

(١) هؤلاء هم الذين يسمون «بالمرجئة»: لأنهم أرجؤوا «أخّروا» الأعمال عن الإيمان.

(٢) رواه البخاري: ١/٥١، ورقمه: ٩. ومسلم: ١/٦٣، ورقمه: ٣٥، واللفظ لمسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم، وقد سبق تخريجه.

الفصل الرابع

العقيدة والفلسفة وعلم الكلام

المبحث الأول

الفرق بين العقيدة الإسلامية والفلسفة وعلم الكلام

على الرغم من أنّ الموضوع الذي تعالجه الفلسفة هو الموضوع ذاته الذي يعالجه الدين، إذ يزعم الفلاسفة أنّ مباحثهم تهدف إلى معرفة أصل الوجود وغايته، ومعرفة السبيل الذي يحقق السعادة الإنسانية عاجلاً وآجلاً، وهذان هما موضوع علم الفلسفة بقسميها العلمي والعملي، وهما كذلك موضوع علم الدين[1] - أقول على الرغم من ذلك إلا أنّ الاختلاف بين الدّين والفلسفة اختلاف كبير. فهما يختلفان في المصادر والمنابع، وفي المنهج والسبيل، وفي قوة التأثير والسيطرة، وفي الأسلوب وطريقة الاستدلال، وفي آثار كل منهما. وسنحاول أن نبين ذلك كله حتى يزول هذا الخلط بين الدين والفلسفة.

١ - المصادر والمنابع:

الفلسفة في كل صورها «عمل إنساني» يتحكم فيه كل ما في طبيعة الإنسان من قيود وحدود وتدرج بطيء في الوصول إلى المجهول، وقابلية للتغير والتحول، وتقلب بين الهدى والضلال، واقتراب أو ابتعاد عن درجة الكمال.

(١) الدين، لدراز: ٥٩، ٦٠.

ولذا فإن أساطين الفلسفة لم يستطيعوا أن يتخلّصوا من التأثر بالبيئة، فكانت تصوراتهم ومعتقداتهم فيها صدى كبير لما يحيط بهم[١].

ولنأخذ على ذلك مثلاً (أفلاطون) فإنّا إذا درسنا نتاجه رأيناه يردد الأساطير التي سادت في عصره، بل إنّه ينشىء الأسطورة، ويضمنها أفكاره ومعتقداته، بل إن كثيراً من معتقداته وآرائه هي أساطير في ذاتها.

اسمع ما يقوله العقاد في (أفلاطون): «غلبت البيئة الوثنية أفلاطون على تفكيره بحكم العادة وتواتر المحسوسات، فأدخل في عقيدته أرباباً، وأنصاف أرباب لا محل لها في ديانات التوحيد»[٢].

ثم يعرض العقاد نظرية أفلاطون في الوجود تدليلاً على ما يقول: «فالوجود في مذهب أفلاطون طبقتان متقابلتان: طبقة العقل المطلق، وطبقة المادة الأولية أو (الهيولي)، والقدرة كلها من العقل المطلق، والعجز كله من (الهيولي)، وبين ذلك كائنات على درجات تعلو بمقدار ما تأخذ من العقل، وتسفل بمقدار ما تأخذ من الهيولي، وهذه الكائنات المتوسطة بعضها أرباب، وبعضها أنصاف أرباب، وبعضها نفوس بشرية»[٣].

والسبب الذي من أجله ارتضى أفلاطون وجود تلك الأرباب المتوسطة كما يقول العقاد «إنه أراد أن يعلل بها ما في العالم من شرّ ونقص وألم، فإنّ العقل المطلق كمال لا يحدّه الزمان والمكان، ولا يصدر عنه إلا الخير والفضيلة، فهذه الأرباب الوسطى هي التي تولت الخلق لتوسطها بين الإله القادر «والهيولي» العاجز، فجاء النقص والشر والألم من هذا التوسط بين الطرفين»[٤].

---

(١) المصدر السابق: ٧٣.

(٢) كتاب الله، للعقاد: ١٢٩.

(٣) كتاب الله، للعقاد: ١٢٩.

(٤) المصدر السابق.

ومن المعروف أيضاً أن أفلاطون يؤمن بعقيدة تناسخ الأرواح.

هذه هي الفلسفة في مصادرها.

أما العقيدة الإسلامية فهي وحي من الله، له كلّ ما للإلهيات من ثبات الحقّ الذي لا تبديل لكلماته، وصرامة الصدق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم هو فوق ذلك «منحة كريمة» تصل إلى حامليها وسفرائها عفواً بلا كدح ولا نصب، وتغمرهم بنورها في فترات خاطفة كلمح البصر أو هو أقرب[1].

٢- المنهج والسبيل[2]:

يختلف المنهج الفلسفي عن المنهج الإسلامي في خط سير كلٍّ منهما بداية ونهاية، فالفلاسفة كثير منهم يبدؤون بدراسة النفس الإنسانية، ويجعلونها الأصل الذي يبنون عليه، ويفرعون عنه، فتكلموا في إدراكهم للعلم: وأنه تارة يكون بالحسّ، وتارة بالعقل، وتارة بهما.

وجعلوا العلوم الحسيّة، والبدهية ونحوها: هي الأصل الذي لا يحصل علم إلا بها، ثم زعموا أنهم إنما يدركون بذلك الأمور القريبة منهم،من الأمور الطبعية والحسابية، والأخلاق، فجعلوا هذه الثلاثة هي الأصول التي يبنون عليها سائر العلوم، ولهذا يمثلون ذلك في أصول علم الكلام، بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الجسم لا يكون بمكانين، وأن الضدّين -كالسواد والبياض- لا يجتمعان.

---

(١) الدين، لدراز: ٧٣.

(٢) راجع في هذا الموضوع مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام: ٢/ ١، ٢٥، وهذا الذي ذكره وأثبتناه هنا باختصار أصل عظيم يدل على فقه كبير منه رحمه الله.

وكثير من هؤلاء لا يجعلون الأخلاق مثل: العدل، والعفّة من الأصول، بل من الفروع التي تفتقر إلى الدليل.

وكثير من المصنفين في الفلسفة يبتدىء بالمنطق، ثم الطبيعي والرياضي، ثم ينتقل إلى العلم الإلهي، وتجد المصنفين في الكلام يبدؤون بمقدماته في الكلام: في النظر والعلم والدليل، وهو من جنس المنطق، ثم ينتقلون إلى حدوث العالم وإثبات مُحدثِه، ومنهم من ينتقل من تقسيم المعلومات إلى الموجود والمعدوم وأقسامه، كما يفعله الفيلسوف في أول العلم الإلهي.

وغالبية الفلاسفة يتوسعون في الأمور الطبعية، ثم يصعدون إلى الأفلاك وأحوالها، ثم المتألهون منهم يصعدون إلى واجب الوجود، وإلى العقول والنفوس، ومنهم من يثبت واجب الوجود ابتداء من جهة أن الوجود لا بدّ فيه من واجب.

وأما الغاية التي يرمي إليها المتكلمون الذين يقررون التوحيد في كتب الكلام والنظر هي إثبات وحدانية الخالق، وأنّه لا شريك له، ويظنون أنّ هذا هو المراد بـ (لا إله إلا الله).

هذا المنهج الفلسفي الكلامي يشغل الباحث والناظر فيه في قضايا ينقضي العمر، ولا ينتهي من بعضها، بل إنّ الذي يحصّله منها ينطوي على شبهات تجعل اليقين غير موجود، فيصاب الباحث بالحيرة والشك.

أما المنهج القرآني، فإنّه يجعل فاتحة دعوته ودعوة الرسل جميعاً: الدعوة إلى عبادة الله وحده ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وكلّ رسول كان يطالب قومه في أول الأمر بأن يعبدوا الله وحده ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٢٣] يطالبهم بعبادته بالقلب، وعبادته باللسان، وعبادته بالجوارح، وعبادة الله متضمنة لمعرفته وذكره.

وأصل العلم عندهم هو العلم بالله سبحانه، لا الحس ولا البدهيات، فالله هو الأول الذي خلق الكائنات، والآخر الذي إليه تصير الحادثات، فهو الأصل الجامع، والعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكره أصل كل ذكر وجامعه، والعمل له أصل كل عمل وجامعه.

ومن العلم به تتشعب أنواع العلوم، ومن عبادته وقصده تتشعب وجوه المقاصد الصالحة، والقلب بعبادته والاستعانة به معتصم مستمسك قد لجأ إلى ركن وثيق، واعتصم بالدليل الهادي، والبرهان الوثيق، فلا يزال إما في زيادة في العلم والإيمان، وإما في السلامة عن الجهل والكفران، فالعلم بالله أعظم سبيل لمعرفة الله، ومعرفة الحياة والأشياء، ومعرفة النفس الإنسانية.

يقول ابن أبي حاتم: «عرفنا كل شيء بالله». وسئل ابن عباس: بم عرفت ربك؟ قال: « من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس، ظاعناً[١] في الاعوجاج، زائغاً[٢] عن المنهج، أعرفه بما عرّف به نفسه، وأصفه بما وصف به نفسه».

وقد أخبر الرسول ﷺ معاذاً حين أرسله إلى اليمن للدعوة إلى الله: أنّه سيقدم على قوم أهل كتاب وأوصاه أن يكون أول ما يدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا ذلك فيدعوهم إلى الفرائض، ولم يأمره ﷺ أن يدعوهم أولاً إلى الشك، أو النظر، أو القصد إلى النظر كما هي طريقة بعض المتكلمين.

ولذا ابتدأ البخاري كتابه بالأصل الذي يقوم عليه العلم والإيمان ألا وهو الوحي، فعقد كتاباً عنون له بـ (بدء نزول الوحي)، فأخبر عن صفة نزول العلم والإيمان على الرسول ﷺ أولاً، ثم أتبعه بكتاب الإيمان الذي هو الإقرار بما

(١) الظعن: السير، أي: أبعد في الاعوجاج.

(٢) زائغاً: مائلاً وحائداً.

جاء به، ثم بكتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به، فرتبه الترتيب الحقيقي الذي يدل على علمه وحكمته رحمه الله.

والله عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدهية، والمنطق والطبعي، بل يسألهم عن استجابتهم للرسل أو عدمها ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۞ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۞ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۞ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨-١١]، والحجة لا تقوم على الناس إلا ببعثه الرسل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

وكما أن الدعوة إلى عبادة الله هي نقطة البداية في المنهاج القرآني، ومعرفة الله هي الأصل الذي تتفرع منه العلوم، فإن نقطة النهاية أيضاً عبادة الله المتضمنة معرفته وتوحيده. أما مجرد الإقرار بوحدانية الخالق وإفراد الصانع التي هي نهاية مطلوب علماء الكلام، فإنها- على الرغم من أهميتها - جزئية في المنهج القرآني لا يكفي مجرد الإقرار بها، ولذا لم تنفع المشركين الذين حاربهم الرسول ﷺ مع إقرارهم بذلك ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: ٢٥]. ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧].

أما الفلاسفة الذين بحثوا في العقول والنفوس فهم يخبطون في هذا المجال خبطاً لا قرار له، وحسبك دليلاً على ذلك أن التقدم العلمي الهائل في هذا العصر لم يكشف لنا حقيقة النفس الإنسانية «ولقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه، ولكن على الرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظات التي كدسها الفلاسفة والعلماء والشعراء وكبار الروحانيين في جميع الأزمان إلا أننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا، إننا لا نفهم الإنسان ككل، . . . إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء

ابتدعتها وسائلنا ! فكل واحد منا مكوّن من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة.

وواقع الأمر أنّ جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنة ما زالت غير معروفة»[١].

إذا كانت هذه هي المعرفة التي بلغتها الأبحاث في القرن العشرين، فكيف تجعل النفس الإنسانية هي الأصل الذي يتفرع عنه مختلف العلوم، أمّا المعرفة بما وراء الطبيعة فإن الفلسفة ضلت فيها ضلالاً أبعد وأبين.

٣- قوة التأثير[٢]:

العقيدة تمتاز بسلطان قوي قاهر على نفوس معتنقيها، وليس للفلسفة أن تطمح إلى نيل هذه الميزة، وإلا لجاوزت قدرها، وتناقضت في نفسها، والسبب في ذلك أنّ الفلسفة تبحث عن المعرفة والحقيقة بقدر الطاقة البشرية، ثم تعرض ما تظفر به في جوانب تلك الحقيقة، والفيلسوف هو أول من يعرف قصور العقل البشري، وقصور كل ما هو إنساني عن درجة الكمال، ولذلك كان التسامح والتواضع العلمي من أظهر خصائصه، فسقراط وهو مَنْ هو بين الفلاسفة يقول: «الشيء الذي لا أزال أعلمه جيداً هو أنني لست أعلم شيئاً».

أما صاحب العقيدة فيرى أنّ عقيدته التي يحملها مستمدة من العالِم بسر الوجود الذي أحاط بكل شيء علماً، فهي تمثل الحقيقة بلا غبش.

فهي بطبيعتها ملزمة، تتقاضى صاحبها الخضوع والتسليم، ولا تقبل منه في

---

(١) كتاب العلم يدعو إلى الإيمان.

(٢) راجع في هذا المبحث كتاب الدين، لدراز: ٦٩، وما بعدها.

حكمها جدالاً ولا مناقضة، بل لا تبيح له في نفسها بحثاً ولا ترديداً، فإن فعل ذلك في مسألة ما، كان في هذه المسألة بعينها متفلسفاً غير متدين، حتى يستقرّ فيها على رأي معين يدين به، فهنالك لا يقبل فيه مساومة، ولا يستطيع منه تحللاً؛ إذ يصبح عقيدة يخلص لها إخلاصاً خارقاً للعادة، حتى لا يبالي بأن يضحّي في سبيلها بحياته، ولا نكاد نجد هذا السلطان على النفس لفكرة أخرى: علمية أو سياسية أو غيرها.

ويبين الشيخ محمد عبد الله دراز السر في هذه الظاهرة فيقول: «السر في هذه الظاهرة - وهي قوة سلطان العقيدة وتميزها بذلك عن الفلسفة - يتمثل في الفارق بين حقيقة المعرفة وحقيقة الإيمان، وفي الفرق بين القوة النفسية التي تقوم بوظيفة المعرفة، والقوة النفسية التي تقوم بوظيفة الإيمان. فالواحد من الناس قد يدرك معنى الجوع والعطش وهو غير محس بآلامهما، وقد يفهم معنى الحبّ والشوق، وليس من أهلهما، وقد يرى الأثر الفني البارع فيفهم أسراره، ويقف على دقائق صنعه، ولكنه لا يتذوقه، ولا يتملك قلبه الإعجاب به. . .

هذه ضروب من المعرفة والعلم، يهديها إلينا الحس، أو الفكر، أو البديهة، فتلاحظها النفس، وكأنها غريبة عنها، أو تمرّ بها عابرة، فتمسها مساً جانبياً لا يبلغ إلى قرارتها، أو تختزنها وتدخرها، ولكنها لا تهضمها ولا تتمثلها، وكل حالة نفسية تقف بالأفكار والمبادىء عند هذه المراحل فليست من الإيمان في قليل ولا كثير.

الإيمان معرفة تتجاوب أصداؤها في أعماق الضمير، وتختلط مادتها بشغاف القلوب، فلا يجد الصدر منها شيئاً من الضيق والحرج، بل تحس النفس ببرد اليقين، الإيمان تذوق ووجدان يحمل الفكرة من سماء العقل إلى قرارة القلب، فيجعلها للنفس رياً وغذاء يدخل في كيانها، ويصبح عنصراً من عناصر حياتها، الإيمان يحول الفكرة قوة دافعة فعّالة خلاقة، لا يقف في سبيلها شيء في

الكون إلا استهانت به.

هذا هو فصل ما بين الدين والفلسفة، غاية الفلسفة المعرفة، وغاية الدّين الإيمان، مطلب الفلسفة فكرة جافة ترتسم في صورة جامدة، ومطلب الدين روح وثّابة وقوة محركة.

ويلاحظ دراز أن الفلسفة تعمل في جانب واحد من جوانب النفس، بينما الدين يستحوذ على النفس بجملتها، وأن الفلسفة ملاحظة وتحليل وتركيب، فهي صناعة تقطع أوصال الحقيقة وتزهق روحها، ثم تؤلف بينها لتعرضها من جديد في نسق صناعي على مرآة الفطنة، فتنطبع على سطح النفس قشرة يابسة، أما الدّين فهو حداء ونشيد يحمل الحقيقة جملة، فيعبر بها القشرة السطحية، لينفذ منها إلى أعماق القلوب وأغوارها، فتعطيها النفس كليتها وتملكها زمامها.

وهنا يستنبط دراز فرقاً دقيقاً بين الفلسفة والدين: فيلاحظ أنّ غاية الفلسفة نظرية حتى في قسمها العملي، وغاية الدّين عملية، حتى في جانبه العلمي، فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير ما هما، وأين هما؟ ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحقّ الذي تعرفه، والخير الذي تحدّده، أما الدّين فيعرفنا الحقّ لا لنعرفه فحسب، بل لنؤمن به ونحبه ونمجّده، ويعرفنا الواجب لنؤدّيه ونوفيه، ونكمل نفوسنا بتحقيقه.

وكي يزيد الأمر إيضاحاً قارن بين الآثار العملية الدينية والفلسفية، وبَيّنَ دراز أنّ الدّين يلفت النظر كي يتعرف الإنسان إلى خالقه، ويتوجه إليه، ويحبّه ويُقدّسه، على أنّ غاية الفلسفة مجرد المعرفة التي تربط بين الأسباب والمسببات.

وبين أنّ العقيدة الدينية تتدفق في الميدان الاجتماعي، فهي تهز صاحبها لتحقيق أهدافها بالنشر والدعوة، بينما الفلسفة لا يعنيها التوسع والانتشار، بل قد يضنّ بها أصحابها على غيرهم، فيحتكرونها، ويستأثرون بها.

٤- الأسلوب[١]:

الأسلوب الذي صيغت به العقيدة الإسلامية أسلوب خاص يمتاز بالحيوية والإيقاع، واللمسة المباشرة والإيحاء، الإيحاء بالحقائق الكبيرة التي لا تتمثل كلها في العبارة، ولكن توحي بها العبارة، كما يمتاز بمخاطبة الكينونة الإنسانية بكل جوانبها وطاقاتها ومنافذ المعرفة فيها، ولا تخاطب الفكر وحده في الكائن البشري.

أما الفلسفة فلها أسلوب آخر؛ إذ هي تحاول أن تحصر الحقيقة في العبارة، ولما كان نوع الحقيقة التي يتصدى لها يستحيل أن تنحصر في منطوق العبارة - فضلاً على أنّ جوانب أساسية من هذه الحقائق هي بطبيعتها أكبر من المجال الذي يعمل فيه الفكر البشري - فإنّ الفلسفة تنتهي حتماً إلى التعقيد والتخليط والجفاف، ومن هنا لا يجوز أن تُعرض العقيدة الإسلامية بأسلوب الفلسفة، لأنه يقتلها ويطفىء إشعاعها وإيحاءها، ويقصرها على جانب واحد من جوانب الكينونة الإنسانية.

ومن هنا يبدو التعقيد والجفاف والنقص والانحراف في كل المباحث التي تحاول عرض العقيدة بهذا الأسلوب الغريب على طبيعتها، وفي هذا القالب الذي يضيق عنها، ومسلك القرآن في بيان العقيدة الإسلامية مُتّسم بالبساطة والوضوح يجعل إدراكها سهلاً ميسراً لكافة مستويات النّاس على اختلاف مداركهم وفِطرهم، يأخذ كل حسب طاقته من التفكير والاقتناع، بخلاف تلك الأساليب الفلسفية والكلامية المعقدة الممتلئة بالمصطلحات، إذ لا يدرك محتوياتها إلا القليل من النّاس.

---

(١) راجع خصائص التصور الإسلامي، لسيد قطب ص: ١٦.

٥- طريقة الاستدلال:

وفي هذا الجانب يتميّز القرآن في ما جاء به من الأدلة عن الطريقة الفلسفية الكلامية، ويمكن أن نوضح هذه الفروق في النقاط التالية:

أ- استدل القرآن بالآيات المشهودة (الكونية) على وحدانية الخالق، وكذلك الفلاسفة والمتكلمون، ولكنّ طريقة القرآن مخالفة للطريقة الفلسفية الكلامية، فالقرآن يستدل بالآيات نفسها التي يستلزم العلم بها العلم بصانعها، كاستلزام العلم بشعاع الشمس العلم بالشمس من غير احتياج إلى إقامة الأقيسة التي أقامها المتكلمون للاستدلال على حدوث العالم.

فالعلم بكون هذه العوالم مخلوقة مربوبة أمر فطري لا يحتاج إلى إقامة الدليل والبرهان، فالإنسان يعلم بفطرته أنّ هذا الكون الذي يراه فقير إلى الخالق، مقهور مربوب، وهذا لا يحتاج إلى تلك الأقيسة التي أقاموها، كي نعلم حدوث العالم، وأن له مُحدثاً.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣]

ب- الأدلة العقلية[1] التي جاء بها القرآن لائقة بجلال الله وكماله، فلم

(١) يخطىء كثير من المتكلمين والفلاسفة في ظنّهم أنَّ دلالة الكتاب والسنة إنما هي بطريق الخبر المجرد، وأنها لم تتعرض للأدلة العقلية، فالحقُّ أنَّ القرآن بين من الأدلة التي يحتاج إليها في العلم بالله ووحدانيته ما لا يقدر أحد من هؤلاء قدره. ونهاية ما يذكره المتكلمون جاء القرآن بخلاصته على=

يستعمل القرآن قياس الشمول وقياس التمثيل الذي تستوي أفراده في حقّ الله تعالى، لأنه يلزم منهما تسوية الخالق بالمخلوق.

وإنما يستعمل في حقه تعالى قياس الأولى الذي مضمونه أنّ كلّ كمال وجودي غير مستلزم للعدم ولا للنقص بوجه من الوجوه اتصف المخلوق به، فالخالق أوْلى أنْ يتصف به، لأنّه هو الذي وهب المخلوق ذلك الكمال، ولأنّه لو لم يتصف بذلك الكمال مع إمكان أن يتصف به، لكان في الممكنات من هو أكمل منه وهو محال، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وكلّ نقص ينزّه عنه المخلوق، فالخالق أولى بالتنزه عنه.

جـ- ونلاحظ أيضاً أن الأدلة العقلية القرآنية تدلّ على الحقّ بأبلغ عبارة وأوجزها، أمّا الأدلة العقلية الكلامية والفلسفية فكثير منها لا ينهض للاستدلال به، وضعف الدليل الذي يستدلّ به على الحقّ يؤدي إلى كثرة الشك والاضطراب والحيرة، بل قد يؤدي إلى ردّ الحق، إذ يسهل على الخصم بيان عوار الدليل، فإذا ردّه ردّ الحقّ مع أنّ الحقّ قويّ في ذاته، والضعف إنّما هو في الدليل الموصل إليه، لأجل ذلك نجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع وبنقيضه في موضع آخر، بل يكفّرون بقولٍ ما، وهم ممن قال به في مكان آخر، بخلاف أدلة الكتاب والسنة فإنّ أصحابها مستقرون عليها، آخذون بها، لا يتلجلجون، ولا يضطربون[1].

د- ونلاحظ أنّ بعض أدلة المتكلمين يلزم منها لوازم باطلة، إذ يلزم من بعضها ردّ الحق الثابت في الكتاب والسنة.

= أحسن وجه، وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله تعالى في كتابه التي قال فيها: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: ٥٤]، والأمثال المضروبة هي (الأقيسة العقلية).

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية: ٤/ ٥٠.

فقد ردّوا النصوص التي تدلّ على أنّ الله في السماء بدعوى أنّ الله لا يكون في جهة، لأنّ كونه في جهة يُعدّ تحيّزاً، مع أنّ النصوص صريحة في كونه تعالى في السماء، وخطؤهم أنّهم ظنوا أنّ معنى كونه في السماء: أنّ السماء تحويه، وأخطؤوا أيضاً عندما طبقوا المقاييس البشرية على الذات الإلهية.

٦- الجنى والعطاء:

ومن الفُروق أيضاً أن القرآن يعطي إيماناً مفصّلاً كما قال جندب بن عبد الله: «تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن، فازددنا إيماناً».

فالقرآن يصف لنا ربنا، وأن له وجهاً ويداً وسمعاً وبصراً، ويعدّد لنا أسماءه وصفاته: فهو الرحمن الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز الجبار...، ويعرفنا بأفعاله ومخلوقاته، ويصف لنا القيامة وأهوالها والجنة والنّار كأننا نراهما.

أما طريقة المتكلمين فإنّ غاية ما عندهم إيمان مجمل، لا يعطي علماً وافياً، ولا تصوراً واضحاً.

لا لقاء:

لا لقاء بين الدّين والفلسفة فهما منهجان مختلفان: في البداية والنهاية، والطريقة والأسلوب، وفي التأثير والعطاء، وقبل ذلك كلّه في المنابع والمصادر.

والإسلام لا يحتاج إلى من يكمله، فقد أكمله العليم الخبير: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾[المائدة: ٣]، ولا نحتاج إلى أن نوفّق بينه وبين الفلسفة، ولا بينه وبين اليهودية والنصرانية، ولا بينه وبين الشيوعية

والاشتراكية، فالإسلام حق لا باطل فيه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢] وغيره إمّا باطل، وإما حق مخلوط بباطل، والإسلام ما جاء لتحكمه أفكار البشر، وإنما جاء ليهيمن على الحياة والأحياء، ويقوّم المعوجّ من العقائد والأفكار.

يجب علينا أن نبقي عقيدتنا وشريعتنا متميزة صافية نقية كما يريد ربنا ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وإن خلطها بغيرها يؤدي إلى اللبس الذي عابه الله على أهل الكتاب ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [آل عمران: ٧١].

المبحث الثاني: موقف العلماء من الفلسفة وعلم الكلام

قاوم العلماء الاتجاه الداعي إلى خلط مباحث العقيدة بالفلسفة وعلم الكلام، ذلك الخلط الذي أنشأه الذين يعرفون بفلاسفة الإسلام كابن سينا، وحاربوا الذين تأثروا بهذه الفلسفات.

والعلماء الأعلام قسمان: قسم تنبهوا إلى خطر هذا المسلك منذ الوهلة الأولى، فقاوموا هذا الاتجاه منذ البداية كالإمام أحمد، رحمه الله، وكذلك الشافعي الذي يقول: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام».

وقسم خاض فيما خاض فيه المتكلمون، فأضناهم المسير، ولم يتنبهوا إلاّ وشمس العمر تميل إلى الغروب، فتندّموا ولات ساعة مندم، ولم يبق لهم سوى التأوه والتحسر، وسؤال الله أن يتجاوز عنهم، وأن يحذّروا مَنْ خلفهم

من سلوك الطريق الخاطىء الذي ساروا فيه.

من هؤلاء محمد بن عمر الرازي قال في كتابه أقسام اللذات[1]:

نهاية إقدام العقول عقال ... وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أنْ جمعنا فيه قيلَ وقالوا

فكم قد رأينا من رجالٍ ودولة ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا

وكم من جبال قد علا شرفاتها ... رجال فزالوا والجبال جبال

وقال الرازي: «لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً» وعاد إلى الطريقة القرآنية، وضرب مثلاً بمنهج القرآن في الصفات: «ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

وأقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ثم قال: «من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[2].

وهذا الشهرستاني يضرب على الوتر نفسه، ويقرر أنّه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين بعد طول بحث إلا الحيرة والندم حيث يقول[3]:

لعمري لقد طفت المعاهد كلّها ... وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعاً كف حائر ... على ذقن أو قارعاً سن نادم

---

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم: ص: ٧، وكتاب اعتقادات فرق المسلمين، للرازي: ٢٣.

(٢) الفتوى الحموية الكبرى، لشيخ الإسلام ابن تيمية: ص: ٧.

(٣) نهاية الإقدام في علم الكلام، للشهرستاني: ص: ٣.

وهذا الجويني - وهو من الجهابذة الذين اشتغلوا بعلم الكلام - يقول محذراً من الاشتغال به[1]: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنّ الكلام، يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به».

وقال عند موته متندماً متحسراً: «لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني الله برحمته، فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت على عقيدة أمي، أو قال على عقيدة العجائز».

وأبو حامد الغزالي - رحمه الله - من هؤلاء الذين أطالوا البحث والتنقيب والتنقل من فرقة إلى فرقة، وقد انتهى في آخر عمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، وألف كتابه: (إلجام العوام عن علم الكلام)، بل حرّم الاشتغال بعلم الكلام إلا في حالات خاصة «الحق أن علم الكلام حرام إلا لشخصين».

وقد أعرض في آخر عمره عن الاشتغال بعلم الكلام والطرق الكلامية، وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات وصحيح البخاري على صدره.

وأبو الحسن الأشعري نشأ معتزلياً، وبقي كذلك أربعين عاماً، ثم رجع عن ذلك، وصرّح بتضليل المعتزلة، وبالغ في الرد عليهم[2].

ولقد نشأ فريق بعد ذلك سار على المنهج السليم، إلا أنّه استوعب علوم هؤلاء، وعرف مقاتلهم، فكان يردّ عليهم بالمنهج القرآني، ويحاربهم بسلاحهم أيضاً مبيناً ما فيه من عوار وضعف، وقائد هذا الفريق وحامل لوائه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، وانظر الفتوى الحموية: ص٧.

(٢) انظر كتابنا: معتقد الإمام أبي الحسن الأشعري ومنهجه.

المبحث الثالث: مقارنة بين صاحب الرأي و صاحب العقيدة

وقبل أن أنهي الكلام في هذا الموضوع أقول: نحن بحاجة إلى رجال عقيدة لا إلى رجال فلسفة، نحن نريد أقواماً يعالجون داء هذه الأمة وبلاءها، ولن يفعل ذلك أصحاب الفلسفة والرأي.

وقد عقد الأستاذ أحمد أمين -رحمه الله- مقارنة بين صاحب الرأي وصاحب العقيدة وأثر كل منهما في الحياة فقال:

فرق كبير بين أن ترى الرأي وأن تعتقده.

إذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك، وإذا اعتقدته جرى في دمك، وسرى في مخ عظامك، وتغلغل في أعماق قلبك.

ذو الرأي فيلسوف يقول: إني أرى صواباً ما قد يكون في الواقع باطلاً، وهذا ما قامت الأدلة عليه اليوم، وقد تقوم الأدلة على عكسه غداً، وقد أكون مخطئاً فيه، وقد أكون مصيباً.

أما ذو العقيدة فجازم بات، لا شك عنده ولا ظن، عقيدته هي الحق، لا محالة، وهي الحق غداً، خرجت عن أن تكون مجالاً للدليل، وسمت عن الشكوك والظنون.

ذو الرأي فاتر أو بارد، إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة، وإن لم يتحقق ما رأى، فلا بأس، فقد احترز من قبل بأنّ رأيه صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيره خطأ يحتمل الصواب، ذو العقيدة حار متحمس، لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته.

ذو الرأي سهل أن يتحول وأن يتحوّر، هو عند الدليل، أو عند المصلحة تظهر في شكل دليل، أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله: (لو وضعوا الشمس في يميني والقمرَ في شمالي، على أن أدَعَ هذا الذي جئتُ به ما تركته)[1].

الرأي جثة هامدة، لا حياة لها ما لم تنفخ فيها العقيدة من روحها، والرأي كهف مظلم لا ينير حتى تلقي عليه العقيدة أشعتها، والرأي مستنقع راكد يبيض فوقه البعوض، والعقيدة بحر زاخر لا يسمح للهوام الوضيعة أن تتوالد على سطحه.

والرأي سديم يتكون، والعقيدة نجم يتألق.

الرأي يخلق المصاعب، ويضاعف العقبات، ويصغي لأماني الجسد، ويثير الشبهات، ويبعث على التردد، والعقيدة تقتحم الأخطار، وتزلزل الجبال، وتلفت وجه الدهر، وتغير سير التاريخ، وتنسف الشك والتردد، وتبعث الحزم واليقين، ولا تسمح إلا لمراد الروح[2].

---

(١) هذا حديث ضعيف رواه الطبري في تاريخه: ٢/ ٣٢٦، والبيهقي في دلائل النبوة: ٢/ ١٨٧، من طريق ابن إسحاق، وسنده منقطع، انظر السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣٣٠.

(٢) كتاب فيض الخاطر، لأحمد أمين نقلاً عن كتاب (الإيمان والحياة، للقرضاوي: ص٢٢).

الفصل الخامس

المبحث الأول: مناهج العلماء في إثبات العقائد[1]

هل نؤمن بعذاب القبر، وبالحوض والميزان وأمثال ذلك من الأمور الاعتقادية؟ وما الذي يجعلنا نؤمن بذلك أو ننفيه؟

١- يرى علماء السلف الصالح أنّ كلّ ما أخبرنا الله به، أو أخبرنا به رسوله ﷺ، ووصل إلينا بطريق صحيح، يجب الإيمان به وتصديقه. وهم لا يفرقون بين الخبر المتواتر وخبر الآحاد[2]، إذا كان صحيحاً، بل يثبتون العقائد بهما من غير تفريق.

ويستدلون على ذلك بالأدلة العامة التي تأمرنا بتصديق الله ورسوله فيما أخبرا به، وطاعتهما فيما أمرا به مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

٢- واحتجّت طائفة ممن ضعف معرفتها بالصحيح والضعيف من أحاديث الرسول ﷺ بالأحاديث الموضوعة والضعيفة[3] في هذا الباب ومن أمثال هذه الأحاديث الضعيفة والموضوعة:

حديث «انتهيت إلى ربي ليلة أسري بي إلى السماء، فرأيتُ ربي، بيني وبينه

---

(١) انظر كتابنا (أصل الاعتقاد) فقد حققت فيه القول في هذه المسالة.

(٢) الحديث المتواتر ما رواه جمع غفير يستحيل في العادة اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب من مبدأ السند إلى منتهاه، والآحاد ما نقص عن درجة التواتر.

(٣) الموضوع: المكذوب أي ما في سنده كذاب، والضعيف ما لم تتوافر فيه شروط الصحيح.

حجاب بارزٌ، فرأيت كل شيء منه، حتى رأيت تاجاً مخوصاً من اللؤلؤ». حديث موضوع[1].

حديث: (إنّ الله يَجلسُ على القَنطرةِ الوسْطى بين الجنة والنار)[2]. ضعيف.

ويجب التحقق من الأحاديث قبل الاحتجاج بها سواء في العقيدة أو الأحكام، وإلا فإنّ النتيجة أنْ ننسب إلى دين الله ما ليس منه، ونقرر أموراً اعتقادية باطلة.

ومثل الذين يثبتون العقائد بالأحاديث الضعيفة والموضوعة أولئك الذين يثبتونها بالمنامات والخرافات والأساطير.

٣- ورفضت طائفة ثالثة الاحتجاج بالأدلة النقلية أي بالنصوص القرآنية والحديثية في إثبات العقائد، وقد زعموا أنّ «الأدلة النقلية لا تفيد اليقين، ولا تحصل الإيمان المطلوب، ولا تثبت بها عقيدة»[3]، وعللوا عدم إفادتها اليقين «بأنّ الأدلة النقلية مجال واسع لاحتمالات كثيرة تحول دون هذا الإثبات»[4].

وهذا قول متهافت لا يحتاج أن يتعب الناظر نفسه في الردّ عليه، إذ هو مخالف لإجماع الأمة، وإذا كانت النصوص مجالاً واسعاً للاحتمال فكيف يكون كلام البشر؟ وكيف لا تثبت العقائد بكلام الله ورسوله؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

٤- وذهب فريق رابع إلى رفض الاحتجاج بأحاديث الآحاد الصحيحة في

---

(١) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، للشوكاني: ٤٤١.

(٢) المصدر السابق: ٤٤٨.

(٣) الإسلام عقيدة وشريعة، لشلتوت: ص٥٣.

(٤) المصدر السابق.

باب العقائد، فلا يحتجون إلا بالقرآن أو المتواتر من الأحاديث، ولا يثبتون العقيدة بالقرآن والحديث المتواتر إلا إذا كان النصّ قطعي الدلالة[1]، وإذا لم يكن النص قطعي الدلالة فإنّه لا يجوز الاحتجاج به عندهم.

قال بذلك علماء الكلام قديماً، وتابعهم بعض علماء الأصول، وقد انتشر هذا القول في أيامنا، حتى كاد ينسى القول الحقّ، ويستغرب من قائله. والعلماء قديماً وحديثاً كانوا ولا يزالون يبينون فساد هذا القول وخطورته، ويكشفون شبهة القائلين به.

توضيح شبهة هؤلاء[2]:

بيّنا أنَّ شبهة هؤلاء زعمهم أنّ أدلة العقائد لا بدَّ أن تفيد اليقين، وأحاديث الآحاد والنصوص القرآنية والأحاديث المتواترة إذا كانت دلالتهما غير قطعية لا تفيد اليقين، بل هي ظنية، والظنّ لايجوز أن يحتج به في هذا المجال لقوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم:٢٣]، ولقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٨] ونحو ذلك من الآيات التي يذمّ الله فيها المشركين لاتباعهم الظن.

واحتجاجهم بهذه الآيات وأمثالها مردود، لأنّ الظنّ في الآيات ليس هو

---

(١) يعنون بالقطعي الثبوت: القرآن والحديث المتواتر.
وبقطعي الدلالة: أن النص لا يحتمل معنى آخر، أي لا يحتمل التأويل، وقد ردوا لذلك النصوص الدالة على رؤية المؤمنين لربهم في يوم القيامة، أما الأحاديث فهي وإن كانت قطعية الدلالة فقد زعموا أنها أحاديث آحاد، وأما نصوص القرآن فقالوا: غير قطعية الدلالة وأولوها تأويلاً آخر (انظر إنكار الشيخ شلتوت لرؤية العباد لربهم في كتابه الإسلام عقيدة وشريعة: ص٥٧).

(٢) انظر «الحديث حجة بنفسه» و «وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقائد والأحكام»، للشيخ ناصر الدين الألباني، وكتابنا: «أصل الاعتقاد».

الظنّ الذي عنوه، فإنّ النصوص التي ردّوها ورفضوا الاحتجاج بها في مسائل العقائد تفيد الظن الراجح، والظن الذي ذمه الله في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم:٢٣] هو الشك الذي هو الخرص والتخمين، فقد جاء في «النهاية» و«اللسان» وغيرهما من كتب اللغة «الظن: الشك يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم به».

هذا هو الظن الذي نعاه الله على المشركين، ومما يؤيد ذلك قول الله فيهم ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١١٦] فجعل الظن هو الخرص الذي هو مجرد الحزر والتخمين، إذ لو كان الظن المنعي به على المشركين هو الظن الغالب فإنه لا يجوز الأخذ به في الأحكام أيضاً؛ لأنّ الله أنكر على المشركين الأخذ بالظنّ إنكاراً مطلقاً، ولم يخصه بالعقيدة دون الأحكام، ولأنّ الله صرح في بعض الآيات أنّ الظنّ الذي أخذه على المشركين يشمل القول به في الأحكام أيضاً، فاسمع إلى قوله تعالى الصريح في ذلك: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام:١٤٨] وهذه عقيدة، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٤٨] وهذا حكم، ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:١٤٨].

ثم إننا لا نسلم لهم القول إنّ أحاديث الآحاد لا تفيد العلم، بل قد تفيده، يقول صديق حسن خان: «والخلاف في إفادة خبر الآحاد الظنّ أو العلم تقيد بما إذا لم يضم إليه ما يقويه، أما إذا انضم إليه ما يقويه أو كان مشهوراً أو مستفيضاً فلا يجري فيه الخلاف المذكور.

ولا نزاع في أنّ خبر الواحد إذا وقع الإجماع على العمل بمقتضاه فإنّه يفيد العلم، لأنّ الإجماع عليه قد صيره من المعلوم صدقه، وهكذا خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول، فكانوا بين عامل به ومتأول له، ومن هذا القسم أحاديث

صحيحي البخاري ومسلم».

وقال العلامة السفاريني في «لوامع الأنوار البهية»:

«وخبر الآحاد إن كان مستفيضاً مشهوراً أفاد علماً نظرياً كما نقله العلامة ابن مفلح وغيره عن أبي إسحاق الأسفراييني وابن فورك، وقيل يفيد القطع».

ثم ذكر قولاً إن خبر الآحاد غير المستفيض يفيد الظن لاحتمال السهو والخطأ، ولكنّه نقل عن الإمام الموفق (ابن قدامة) وابن حمدان والطوفي وجمع أنّه يفيد العلم بالقرائن.

قال العلامة علاء الدين عليّ بن سليمان المرداوي في شرح التحرير: «وهذا أظهر وأصح» وضبط القرائن يكون (بسكون النفس إلى الخبر كسكونها إلى المتواتر أو قريب منه بحيث لا يبقى احتمال عنده ألبتة).

ونصَّ أيضاً على أنّ خبر الآحاد غير المستفيض يفيد العلم إذا نقله آحاد الأئمة المتفق عليهم وعلى إمامتهم وضبطهم.

ونقل عن القاضي أبي يعلى: «أنّ هذا هو المذهب (مذهب الحنابلة)، وقال أبو الخطاب: هذا ظاهر كلام أصحابنا».

وذكر السفاريني أن هذا القول اختاره ابن الزاغوني والإمام تقي الدين ابن تيمية، ثم ذكر أن الذي عليه «الأصوليون من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد - رضي الله عنهم أجمعين - أنّ خبر الواحد إذا تلقته الأمّة بالقبول تصديقاً وعملاً به يوجب العلم».

ثم ذكر أنّ المخالفين في ذلك من أتباع الأئمة فرقة قليلة تابعت علماء الكلام، وذكر أنّ ممن قال بإفادة خبر الآحاد العلم «أبا إسحق وأبا الطيب، وذكره عبدالوهاب وأمثاله من المالكية والسرخسي وأمثاله من الحنفية» وقال:

«وهو الذي عليه أكثر الفقهاء وأهل الحديث والسلف وأكثر الأشعرية وغيرهم».

وقال ابن الصلاح: «ما أسنده البخاري ومسلم العلم اليقيني النظري واقع به، خلافاً لقول من نفى ذلك محتجاً بأنّه لا يفيد في أصله إلا الظن، وإنما تلقته الأمّة بالقبول، لأنه يجب عليهم العمل بالظن، قال: والظنّ قد يخطىء».

قال ابن الصلاح: «وقد كنت أميل إلى هذا وأحسبه قوياً، ثم بان لي أنّ المذهب الذي اخترناه أولاً هو الصحيح، لأنّ ظنّ من هو معصوم من الخطأ لا يخطىء، والأمة في إجماعها معصومة من الخطأ». وابن الصلاح يعني أن الأمة أجمعت على صحة أحاديث البخاري ومسلم.

قال السفاريني: «ولما وقف ابن كثير على اختيار ابن الصلاح من أنّ ما أسند في الصحيحين مقطوع بصحته، قال: وأنا مع ابن الصلاح فيما نصّ عليه وأرشد إليه».

ثم ذكر أنّ ابن كثير وقف على كلام لشيخه ابن تيمية مضمونه أنّه نقل القطع بالحديث الذي تلقته الأمة بالقبول عن جماعات، وبعد أن ذكر بعض أسمائهم قال: (أي ابن تيمية) «وهو مذهب أهل الحديث قاطبة ومذهب السلف عامة»[1].

والصواب من القول أن أحاديث الآحاد الصحيحة تفيد اليقين إذا احتفت بها قرائن ودلائل كما نقلنا ذلك عن جملة من أهل العلم، فالأحاديث التي وردت في كتب السنة وصححها أهل العلم ولم يطعن في صحتها واحد منهم تفيد

(١) لوامع الأنوار البهية: ص١٧، وبهذه النقول الكثيرة التي أثبتناها يتبين لك ما في قول الشيخ شلتوت من التجني حيث يقول: «وهكذا نجد نصوص العلماء متكلمين وأصوليين مجتمعة على أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين، فلا تثبت به العقيدة، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضروري لا يصح أن ينازع أحد في شيء منه..» راجع الإسلام عقيدة وشريعة: ص٧٥.

اليقين لإجماع الأمة على صحتها، ومن ذلك ما اتفق عليه صاحبا الصحيحين أو ورد في واحد من الصحيحين، ولم يطعن في صحته واحد من أهل العلم. ومن ذلك أن يكون الحديث مشهوراً أو مستفيضاً أو رواه الأئمة الكبار كمالك عن نافع عن ابن عمر.

خلاصة القول في المسألة: الصواب من القول أن علماء أهل السنة يقبلون أحاديث الآحاد الصحيحة في العقائد والأحكام من غير تفريق في ذلك، يدلك على هذا تخريج أئمة أهل السنة كمالك وأحمد والبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي والدارمي وغيرهم للأحاديث المثبتة للعقائد في مدوناتهم، والمتواتر منها قليل، ولو لم يرتضوا الاستدلال بها لما أتعبوا أنفسهم في روايتها وضبطها وتدوينها، ومن قال عنهم خلاف ذلك فإنه قد افترى عليهم، ولا دخل لكون الأحاديث الآحاد تفيد الظن الراجح أو اليقين في المسألة.

فالذين يقولون لا تفيد اليقين يرون الأخذ بها في العقائد إذا صحت ولا تلازم بين إفادتها الظن وردها في باب الاعتقاد.

فابن عبد البر رحمه الله تعالى مع قوله إنّ أخبار الآحاد لا تفيد اليقين إلا أنه يرى أنه يجب الأخذ بها في العقائد كما يؤخذ بها في الأحكام، وينسب ذلك إلى جماعة أهل السنة[١].

---

(١) راجع التمهيد، لابن عبد البر: ١/ ٧.

المبحث الثاني: النصوص الدالة على الاحتجاج بخبر الآحاد

وقد وردت نصوص كثيرة تدل على وجوب الأخذ بحديث الآحاد والاحتجاج بها في إثبات العقائد، منها:

١- قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢] فهذه الآية فيها حثّ للقبائل والعشائر وأهل النواحي والأقطار المختلفة من المؤمنين على أن ينفر من كلّ منهم طائفة ليتفقهوا في دينهم، ثم يرجعوا إلى قومهم فينذروهم، والطائفة في لغة العرب: تطلق على الواحد فما فوق، والتفقه في الدين: يشمل العقائد والأحكام، بل التفقه في العقائد أهم من التفقه في الأحكام، ولذا أطلق الإمام أبو حنيفة -رحمه الله- على وريقات كتبها في العقائد: (الفقه الأكبر)، ففي الآية دليل صريح على وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة، وإلا لما جاز للطائفة أن تنذر قومها.

٢- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ [الحجرات: ٦] وفي القراءة الأخرى (فتثبتوا)، فإنها تدلّ على أنّ من لم يكن فاسقاً بأن كان عدلاً إذا جاء بخبر ما فالحجة قائمة به، وأنّه لا يجب التثبت، بل يؤخذ حالاً.

٣- وقد ورد في السنة ما يوضح قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فقد روى البخاري في صحيحه عن مالك بن الحويرث قال: (أتينا إلى النبي ﷺ، ونحن شَبَبَة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين يوماً وليلة، وكان رسول الله رحيماً رقيقاً، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا، أو قد

اشتقنا، سألنا عمن تركنا بعدنا، فأخبرناه، قال: ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلموهم، ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي)[1].

فقد أمر كلَّ واحد من هؤلاء الشباب أن يعلِّم كلٌّ واحد أهله، والتعليم يعمّ العقيدة، بل هي أول ما يدخل في العموم، فلو لم يكن خبر الآحاد مما تقوم به العقيدة لم يكن لهذا الأمر معنى.

٤- وفي صحيحي البخاري ومسلم أيضاً: أنّ أهل اليمن قدموا على رسول الله ﷺ فقالوا: «ابعث معنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام، قال فأخذ بيد أبي عبيدة» فقال: (هذا أمينُ هذه الأمة)[2].

فلو لم تقم الحجة بخبر الواحد لم يبعث الرسول ﷺ إليهم أبا عبيدة وحده، وكذلك يقال في بعثه ﷺ في نوبات مختلفة أو إلى بلاد متفرقة غيره من الصحابة: كعلي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، وأبي موسى الأشعري، وأحاديثهم في الصحيحين وفي غيرهما.

ولا ريب أن هؤلاء كانوا يعلّمون العقائد في جملة ما يعلمون، فلو لم تكن الحجة قائمة بهم عليهم لم يبعثهم رسول الله ﷺ أفراداً.

قال الإمام الشافعي -رحمه الله- في كتابه (الرسالة):

«وهو لا يبعث بأمره، إلا والحجة للمبعوث إليهم وعليهم قائمة بقبول خبره عن رسول الله ﷺ»[3].

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ١١٠، ورقمه: ٦٢٧، ورواه مسلم: ١/ ٤٦٥ ورقمه: ٦٧٤، واللفظ للبخاري.

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٨٨٨، ورقمه: ٢٤١٩، والذي في البخاري أنه أرسله إلى أهل نجران، صحيح البخاري: ٧/ ٩٣، ورقمه: ٣٧٤٥، ١٣/ ٢٣٢، ورقمه: ٧٢٥٤.

(٣) الرسالة، الشافعي: ٤١٢.

الرد على القائلين إن حديث الآحاد لا يؤخذ بها في العقيدة:

وقد ردَّ العلماء على الذين لا يأخذون بأحاديث الآحاد في العقيدة من وجوه كثيرة منها:

١- القول إن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة قول مبتدع حادث لا أصل له في الشريعة، وكلّ ما كان كذلك فهو قول مردود.

٢- قولهم هذا في ذاته عقيدة (أي أنّ أحاديث الآحاد لا يحتج بها)، وعلى طريقتهم فإن هذه العقيدة تحتاج إلى دليل قطعي ينهى عن الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة، ولا دليل على ذلك.

٣- لو وجد دليل قطعي يدل على أن أحاديث الآحاد لا تثبت بها عقيدة لعلمها الصحابة وصرحوا بها، وكذلك مَنْ بعدهم من السلف الصالح.

٤- هذا القول مخالف للمنهج العلمي الذي كان عليه الصحابة، فقد كان الواحد منهم يقبل خبر من حدثه عن الرسول ﷺ ويجزم به، ولا يرد قول أخيه بحجة أن الحديث الذي نقله إنما هو حديث آحاد.

٥- الأدلة الدالة على وجوب الأخذ بأدلة الكتاب والسنة تشمل العقائد والأحكام، فتخصيص هذه الأدلة بالأحكام دون العقائد إذا كانت آحاداً تخصيص من غير مخصص.

٦- أمر الله -تعالى- رسوله بالبلاغ المبين، ومعلوم أنّ البلاغ المبين هو الذي تقوم به الحجة على المُبلغ ويحصل به العلم، فلو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم، لم يقع به التبليغ فإنّ الحجة إنّما تقوم بما يحصل من العلم.

٧- يلزم من هذا القول إبطال الأخذ بالأحاديث الآحاد في العقيدة مطلقاً من بعد الصحابة الذين سمعوه منه ﷺ مباشرة، لأنَ الأحاديث لم تصل للناس قبل

تدوينها إلا بطريق الآحاد، والذين وصلهم الحديث بطريق التواتر قليل، بل أقل من القليل، ثم إنّ إخبار هؤلاء غيرهم أن الحديث الفلاني متواتر لا يفيد العلم، لأنّ خبر هذا العالم خبر آحاد.

٨- هذا القول يقتضي ترك العمل بأحاديث الآحاد التي فيها عقيدة وعمل؛ لأنّ عدم الأخذ بها في العقائد ردّ لها، فكيف يؤخذ بها في الأحكام؟!

٩- لم يتفق الأصوليون على هذا القول -كما زعم الشيخ شلتوت- وقد نص الإمام مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة وداود بن علي وأصحابه كابن حزم على أن خبر الواحد يفيد العلم، ونص عليه الحسين بن علي الكرابيسي والحارث بن أسد المحاسبي والقاضي أبو يعلى من الحنابلة.

المبحث الثالث: العقائد التي تثبت بالأحاديث

وقبل أن ننهي القول في هذه المسألة نسوق إليك جملة من العقائد الثابتة بالأحاديث الصحيحة:

١- القول بنبوة آدم عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين لم يُنصّ في القرآن على نبوتهم.

٢- أفضلية نبينا محمد ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين.

٣- شفاعته ﷺ العظمى في المحشر.

٤- شفاعته ﷺ لأهل الكبائر من أمته.

٥- معجزاته ﷺ كلها ما عدا القرآن، ومنها معجزة انشقاق القمر، فإنّها مع ذكرها في القرآن تأولوها بما ينافي الأحاديث الصحيحة المصرحة بانشقاق القمر.

٦- الأحاديث التي تتحدث عن بدء الخلق وصفة الملائكة والجن، والجنة والنار، وأنهما مخلوقتان، وأن الحجر الأسود من الجنة.

٧- كثير من خصوصياته ﷺ التي جمعها السيوطي في كتاب (الخصائص الكبرى) مثل دخول الجنة ورؤية أهلها، وما أعِدّ للمتقين فيها وإسلام قرينه من الجنّ.

٨- القطع بأن العشرة المبشرين بالجنّة من أهل الجنة.

٩- الإيمان بسؤال منكر ونكير في القبر.

١٠- الإيمان بعذاب القبر.

١١- الإيمان بضغطة القبر.

١٢- الإيمان بالميزان ذي الكفتين يوم القيامة.

١٣- الإيمان بالصراط.

١٤- الإيمان بحوضه ﷺ وأنّ من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

١٥- دخول سبعين ألفاً من أمته ﷺ الجنة بغير حساب.

١٦- الإيمان بكل ما صحّ في الحديث في صفة القيامة والحشر والنشر مما ليس في القرآن.

١٧- الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، وأنّ الله تعالى كتب على كلّ إنسان سعادته أو شقاوته ورزقه وأجله.

١٨- الإيمان بالقلم الذي كتب كلّ شيء.

١٩- الإيمان بأنّ أهل الكبائر لا يخلدون في النّار.

٢٠- الإيمان بأنّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنّة.

٢١- الإيمان بأنّ الله حرّم على الأرض أنْ تأكل أجساد الأنبياء.

٢٢- الإيمان بأنّ لله ملائكة سياحين يبلّغون النبي ﷺ سلام أمته.

٢٣- الإيمان بمجموع أشراط الساعة كخروج المهدي، ونزول عيسى وخروج الدجال... وغير ذلك.

وليست أدلة هذه العقائد جميعاً أحاديث آحاد، بل منها ما دليله أحاديث متواترة، ولكن عدم علم هؤلاء بالسنة المتواترة منها والآحاد جعلهم يردّونها، أو يردون كثيراً منها، وإلا فإنّ أحاديث خروج الدجال، وخروج المهدي، ونزول عيسى ابن مريم أحاديث متواترة كما صرح بذلك علماء الحديث.

والأدهى من ذلك أن تُردّ العقائد التي وردت في الأحاديث المتواترة، بل وردت في القرآن بزعم أنّ دلالة هذه النصوص غير قطعية كما سبق، وقد ذكرنا قول الشيخ شلتوت، ولذا لم يثبتوا رؤية العباد لربهم في يوم القيامة مع تصريح القرآن بإثباتها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقد تواترت الأحاديث بإثباتها.

وقد حمل أبو الحسن الأشعري على المعتزلة لردهم النصوص من الكتاب والسنة تقليداً لرؤسائهم وأهل الرأي فيهم، قال رحمه الله تعالى: «أما بعد فإن الزائغين عن الحق من المعتزلة وأهل القدر مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد رؤسائهم، ومن مضى من أسلافهم، فتأولوا القرآن على آرائهم تأويلاً لم ينزل الله به سلطاناً، ولا أوضح به برهاناً، ولا نقلوه عن رسول رب العالمين، ولا عن السلف المتقدمين، وخالفوا روايات الصحابة عليهم السلام عن نبي الله صلوات الله عليه في رؤية الله بالأبصار، وقد جاءت في ذلك روايات من الجهات المختلفة، وتواترت بها الآثار، وتتابعت بها الأخبار، وأنكروا شفاعة رسول الله ﷺ للمذنبين، ودفعوا الروايات في ذلك عن المتقدمين، وجحدوا

عذاب القبر، وأن الكفار في قبورهم يعذبون»[١].

وقال أبو الحسن في موضع آخر: «وأنكرت المعتزلة الحوض، وأنكرت المعتزلة عذاب القبر»[٢].

وقال أبو الحسن في مقالات الإسلاميين: «اختلفوا في عذاب القبر، فمنهم من نفاه ومنهم من أثبته وهم المعتزلة والخوارج»[٣].

وقال في مقالاته: «اختلفوا في شفاعة رسول الله ﷺ هل هي لأهل الكبائر، فأنكرت المعتزلة ذلك وقالت بإبطاله»[٤].

وذكر أيضاً في مواضع من مقالاته أن المعتزلة أنكروا العين واليد لله، كما أنكروا رؤيته بالأبصار ومجيئه يوم القيامة ونزوله إلى السماء الدنيا، وجزموا بتخليد الفساق في النار، وغير ذلك مما خالفوا فيه الأحاديث الصحيحة والمتواترة بل نصوص القرآن[٥].

فمن نفى هذه العقائد التي صحت بها الأحاديث، فإنه سائر على درب المعتزلة، لا على طريق أهل السنة.

وقد رأيت من السابقين واللاحقين من جزم بأن جميع أشراط الساعة أحاديث آحاد، وردها بسبب ذلك، وما ظنه منها متواتراً لاحقه بالتأويل والتحريف.

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة: ص٦.

(٢) المصدر السابق: ص٧٥.

(٣) مقالات الإسلاميين: ص٣٤٠.

(٤) مقالات الإسلاميين: ص٣٤٠.

(٥) راجع مقالات الإسلامين: ص١٥٧، ٢١٦، ١٩٥، ٤٧٤.

المبحث الرابع: حكم من أنكر ما ثبت بخبر الآحاد

نقل السفاريني القول بكفر من أنكر خبر الآحاد عن إسحاق بن راهويه، والأصح أنّه لا يكفر، ويبدو أن الذي قال بكفره نظر إلى الأحاديث التي تلقتها الأمة بالقبول، وأجمعت على صحتها.

وإننا، وإن لم نقل بكفره، نقول: لقد سلك هذا الذي ردّ أحاديث الرسول ﷺ الصحاح في الاحتجاج بها في العقائد مسلكاً بيّن الخطأ، ويخشى عليه أن يزيغ بسبب رده لهذه الأحاديث وأن يبتليه الله بالمضلات ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

المبحث الخامس: شبهتان تحتاجان إلى إيضاح وبيان

إنّنا نلتزم في هذه الدراسة التي نقدمها بالكتاب والسنة ؛ ولذلك كان لزاماً علينا أن نعرض العقيدة وفق المنهج الذي عرضه الكتاب والسنة ولا نتجاوز هذا النهج، فهو الطريق الذي أحيا قلوب الأوائل من هذه الأمة.

وهو السبيل الوحيد الذي سيصلح بقية الأمة، وصدق الإمام مالك - إمام المدينة المنورة وعالمها - إذ يقول: « لن يَصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ».

وقد قدّمنا تميز القرآن في نهجه عن الفلسفة في إقرار الدّين والاعتقاد، وهذا التميز يلزمنا بالأخذ به دون سواه.

وهناك شبهتان تحتاجان إلى إيضاح وبيان:

الشبهة الأولى: كيف نخاطب بالقرآن من لا يؤمن به:

يقول بعض الذين عندهم حظ من الدّين: كيف نعرض القرآن على من لا يؤمن بالله؟ يجب أن نخاطب النّاس اليوم بمنطق العلم المادي الحديث والأدلة العقلية، فإذا اقتنعوا بالإسلام خاطبناهم بالقرآن.

ونحن نقول لهؤلاء: بالله عليكم كيف أمر الله رسوله أن ينذر بالقرآن الكفار الذين يكذّبون بالله وبالقرآن وبالرسول ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩] كيف أمره أن يتلو عليهم هذا القرآن؟ ألم يكن يقرؤه على المعاندين المكذبين فيهزّ نفوسهم، ويزلزل قلوبهم؟

ماذا فعلت آيات القرآن بأميّة بن خلف، والوليد بن عتبة، . . . وغيرهم على غلظ كفرهم وتمكن عداوتهم؟

قد يقال: فالقرآن اليوم يتلى في كل مكان حتى من إذاعة (لندن - وواشنطن) ومع ذلك فإنّ أبناء الإسلام الذين يقرؤون القرآن لا يؤمنون بما جاء به.

والجواب على هؤلاء أنّ العربي قديماً كان يسمع الآيات تتلى عليه، فتنسل إلى أعماق نفسه، لأنّه عربيّ يفقه معاني الآيات ومراميها، فلا حجاب بينه وبينها.

أمّا اليوم فتقوم بين النّاس والقرآن حواجز وحجب، بعضها يعود إلى اللغة، وبعضها إلى شبهات استقرت في الأذهان، وأصبحت عند النّاس مسلّمات.

ولذلك فإنّ مهمة حامل القرآن اليوم أنْ يقوم بترجمة القرآن إلى اللغة التي يفقهها النّاس، عليه أن يصل النّاس بالقرآن، ويصل القرآن بالنّاس، بأن يبين لهم معانيه ومراميه، ويجدد معاني هذا الكتاب في النفوس، فتعود مرة أخرى إلى تذوقه واستشعاره. . . ، وتصل معانيه إلى المكذّبين والمنكرين بهذه الطريقة، فتتحقق الدعوة التي تقوم بها الحجة على كلّ إنسان.

وقد سبق أن بيّنا أنّ القرآن يحتوي على الأدلة التي تناقش العقول، وتروي ظمأ القلوب، وليس هو مجرد أخبار فقط.

الشبهة الثانية: الدعوة إلى التقارب بين الأديان:

هذا هو السبيل: أن نتبين النهج الذي جاءنا الله به لإقرار الإيمان في النفوس، ونلتزمه في ذوات أنفسنا، وفي دعوة الناس، وفي تربيتهم وِفْقَهُ.

ويحاول أعداء الله، والمخدوعون من أبناء هذه الأمة، أن يشوهوا هذا السبيل، وذلك بالدعوة إلى التقارب بين الأديان، فقد أقيمت مؤتمرات وندوات من أجل ذلك.

وقد أخطأ الذين أمّوا هذه المؤتمرات والندوات من المسلمين خطأً كبيراً حين رضوا بأن يجعلوا الإسلام موضوعاً للبحث كاليهودية والنصرانية على حدٍّ سواء.

قد نجد لهؤلاء العذر لو ذهبوا إلى هناك يقولون للآخرين كما قال القرآن: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤] كان عليهم أن يبينوا باطل هؤلاء بالتي هي أحسن، ويعرضوا عليهم الدّين الحقّ، ويقيموا عليهم الحجة، لا أن يخطبوا ودّهم، ويجاملوهم في باطلهم.

ويخطىء الذين يخلطون الإسلام بغيره من الأديان والمذاهب والفلسفات، يزعمون أنهم يوفّقون بين نصوص القرآن وكلام أولئك الأقوام، ليصلوا إلى مرحلة وسط يلتقي فيها الإسلام بغيره، وكذبوا في زعمهم، وضلوا في نهجهم، فالإسلام دين الله يهيمن على الحياة والأحياء، ولا يحتاج إلى أن نوفّق بينه وبين

غيره، فغيره فيه الباطل والصالح، والإسلام صلاح كله، ومهمتنا أن نُبقي كتاب ربّنا ودينه متميزين ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] حتى يفيء إليه النّاس فيجدوه صافياً غير مخلوط.

وقد ذمّ الله هذا الصنف من النّاس الذين يريدون مزج الإسلام بغيره والالتقاء في منتصف الطريق بزعم التوفيق، وأخبر أنّ هذا فعل المنافقين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء: ٦١-٦٢].

البَابُ الثَاني

الإيمان بالله

تمهيد: أهمية هذا الأصل:

الأصل الأول من الأصول الاعتقادية هو الإيمان بالله، وهذا الأصل هو أهمّ الأصول الاعتقادية والعملية، وعليه مدار الإسلام، وهو لبّ القرآن ، ولا نبالغ إذا قلنا: إنّ القرآن كلّه حديث عن هذا الإيمان ؛ لأنّ القرآن إمّا حديث مباشر عن الله تعالى: ذاته وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، كآية الكرسي، وسورة الإخلاص.

وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وترك ما يُعبد من دونه من آلهة باطلة، وهذا كله تعريف بالله، ودعوة للقيام بحقّه، ونهيٌ عن صرف ذلك لغيره.

وإما أمر بطاعته سبحانه، ونهي عن معصيته، وهذا من لوازم الإيمان.

وإمّا إخبار عن أهل الإيمان وما فعل بهم في الدُّنيا من الكرامة، وما يثيبهم به في الآخرة، وهذا جزاء أهل الإيمان بالله.

وإمّا إخبار عن الكافرين، وما فعل الله بهم في الدّنيا من النكال، وما سيفعل بهم في الآخرة في دار العذاب، وهذا جزاء من أعرض عن الإيمان.

فالقرآن كله حديث عن الإيمان بالله، يوضح هذا أنّنا نجد أنّ ذكر الله قد تكّرر في القرآن باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته (١٠٠٦٢) مرة أي في

الصفحة الواحدة قرابة عشرين مرة في المتوسط.

إننا نستطيع أن نقول: إنّ الإيمان بالله بالنسبة لبقية الأصول والفروع كأصل الشجرة بالنسبة للسوق والفروع، فهو أصل الأصول، وقاعدة الدّين، وكلما كان حظ المرء من الإيمان بالله عظيماً كانَ حظه في الإسلام كبيراً.

مسائل الإيمان بالله:

مسائل هذا الباب التي لا بدّ للباحث من عرضها وتمحيصها هي:

أولاً: أدلة وجود الله -تعالى- وردّ الشبهات التي تثار حول هذا الموضوع.

ثانياً: التعريف بالله -سبحانه- وهذا يتمّ في القرآن من خلال طريقين:

١- بيان ما في المخلوقات من إبداع وإعجاز تدل على عظيم قدرة الله وبديع صنعه.

٢- دراسة الآيات القرآنية التي تتحدث عن الله حديثاً مباشراً: ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

ثالثاً: توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، ونبذ ما يعبد من دونه.

رابعاً: نظرة في تاريخ العقيدة الإلهية، وتحقيق القول في ذلك.

الفصل الأول

أدلة وجود الخالق جل وعلا والرد على الملحدين في نشأة الكون

المبحث الأول أدلة وجود الخالق جلّ وعلا

الدليل الأول: دليل الفطرة

الفطرة السليمة تشهد بوجود الله من غير دليل:

لم يطل القرآن في الاستدلال على وجود الله تعالى، لأنّ القرآن يقرّر أنّ الفطر السليمة، والنفوس التي لم تتقذر بأقذار الشرك، تُقرّ بوجوده من غير دليل، وليس كذلك فقط، بل إنّ توحيده - سبحانه - أمر فطري بدهي ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [الروم: ٣٠].

هذه الفطرة هي التي تفسر الظاهرة التي لاحظها الباحثون في تاريخ الأديان، وهي أنّ الأمم جميعاً - التي درسوا تاريخها - اتخذت معبودات تتجه إليها وتقدّسها[١].

وقد يقال هنا: لو كان التوجه إلى الله أمراً فطرياً لما عبد النّاس في مختلف

---

(١) حتى الشيوعيين اليوم الذين أرادوا أن يتحرروا من عبادة الآلهة بزعمهم يعبدون مؤسس المذهب، فتراهم يمرون أمام جثته المحنطة في الميدان الأحمر في ذكرى يوم وفاته خاضعين حانين رؤوسهم، لقد جعلوه إلهاً، وبدلاً من أن يعبدوا خالق البشر عبدوا ميتاً من البشر، فبعداً لهم.
هذا ما دونته قبل خمس عشرة سنة، وقبل سنوات هدم القائمون على المذهب الشيوعي مذهبهم، وألقوا جثث قادة المذهب، كما ألقوا عقائدهم وأفكارهم.

العصور آلهة شتى.

والجواب: أنّ الفطرة تدعو المرء إلى الاتجاه إلى الخالق، لكنّ الإنسان تحيط به مؤثرات كثيرة تجعله ينحرف حينما يتجه إلى المعبود الحق.

فما يغرسه الآباء في نفوس الأبناء، وما يلقيه الكتّاب والمعلمون والباحثون في أفكار الناشئة يبدّل هذه الفطرة ويقذرها، ويلقي عليها غشاوة، فلا تتجه إلى الحقيقة.

وقد نصّ الرسول ﷺ على صدق هذا الذي قررناه، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه)[1]. ولم يقل يُسلمانِه، لأنّ الإسلام مُوافقٌ للفطرة.

وقد يقال: إذا تركنا الطفل من غير أن نُؤثّر في فطرته هل يخرج موحداً عارفاً بربّه، فنقول: إذا ترَكَ شياطين الإنس البشر، ولم يدنّسوا فطرهم، فإنّ شياطين الجنّ لن يتركوهم، فقد أخذ الشيطان على نفسه العهد بإضلال بني آدم: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

وأعطي الشيطان القدرة على أن يصل إلى قلب الإنسان، كما في الحديث الصحيح (إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّا) أو قال: (شيئاً)[2].

والقرآن وصف الشيطان المطلوب الاستعاذة منه بأنّه ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، وقد صح أيضاً أنّ لكل إنسان قريناً من الجنّ يأمره

(١) صحيح البخاري: ٣/ ٢٤٥، ورقمه: ١٣٨٥، ورواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٤٧، ورقمه: ٢٦٥٨.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ١٧١٢. ورقمه: ٢١٧٥.

بالشرّ، ويحثه عليه، وفي القرآن ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

ولا يتخلص المرء من هذا إلا بالالتجاء إلى الله ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١-٦].

وشياطين الجنّ يقومون بدور كبير في إفساد الفطرة وتدنيسها، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم، فكان مما جاء في خطبته: (ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا: كلّ مال نحلته[1] عبادي حَلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا)[2].

المصائب تصفي جوهر الفطرة:

وكثيراً ما تنكشف الحجب عن الفطرة، فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها عندما تصاب بمصاب أليم، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عوناً، وتفقد أسباب النجاة، فكم من ملحد عرف ربّه وآب إليه عندما أحيط به، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرّ نزل به ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقد سمعنا كيف آب ركاب طائرة ما إلى ربهّم عندما أصاب طائرتهم خلل،

---

(١) نحلته: منحته.

(٢) صحيح مسلم: ٤/٢١٩٧، ورقمه: ٢٨٦٥.

فأخذت تهتز وتميل، وتتأرجح في الفضاء، والطيار لا يملك من أمره شيئاً فضلاً عن الركاب، هناك اختفى الإلحاد، وضجّت الألسنة بالدّعاء، ورغبت القلوب إلى ربها بصدق وإخلاص، ولم يبق للشرك والإلحاد وجود في مثل هذا الموقف الرهيب.

المشركون الذين بُعث إليهم الرسول كانوا يقرّون بوجود الخالق:

العرب الذين جابههم الرسول ﷺ كانوا مقرّين بوجود الله، وأنّه الخالق وحده للكون، كما يقرّون بأنّه وحده الرازق النافع الضارّ. . . ولكنهم كانوا يعبدون غيره معه، ولا يخلصون دينهم لله وحده.

وفي معرض إلزام المشركين بالعبودية لله وحده، وإخلاص الدّين له كان يسألهم عن الخالق المالك للسماء والأرض، فكانوا يعترفون، ولا ينكرون، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥].

وفي سورة المؤمنون ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]. ومن المعروف أنّ العرب كانوا يُعظمون الكعبة، ويحجون، ولهم بقية من عبادات يتنسّكون بها.

كفر النّاس - اليوم أعظم:

كان حرياً بنا ألا نقف عند أدلة وجود الله كثيراً ؛ لأنّ الفطرة الإنسانية تشهد بذلك، ولا يكاد يعرف منكر لوجود الخالق في الماضي إلا النزر اليسير، وهم لا يمثلون في البشرية نسبة تذكر.

إلا أن الانحراف اليوم وصل الدّرك الأسفل، فأصبحنا نرى أقواماً يزعمون أن لا خالق، ويجعلون هذه المقولة مذهباً يقيمون عليه حياتهم، وقامت دول على هذا المذهب تعدّ بمئات الملايين من البشر.

وانتشرت هذه المقولة في كل مكان، وألفت فيها كتب، وأصبح لها فلسفة تدرس، وحاول أصحابها أن يسموها بالمنهج العلمي، ويدللوا عليها.

من أجل ذلك كان لا بدّ أن نتوسع شيئاً ما في الاستدلال على هذه القضية.

الدليل الثاني: المخلوق لا بدّ له من خالق

يحتجّ القرآن على المكذّبين المنكرين بحجة لا بدّ للعقول من الإقرار بها، ولا يجوز في منطق العقل السليم رفضها، يقول تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

يقول لهم: أنتم موجودون هذه حقيقة لا تنكرونها، وكذلك السمٰوات والأرض موجودتان، ولا شك.

وقد تقرر في العقول أنّ الموجود لا بدّ من سبب لوجوده، وهذا يدركه راعي الإبل في الصحراء، فيقول: «البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدلّ على المسير، فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير». ويدركه كبار العلماء الباحثين في الحياة والأحياء.

وهذا الذي أشارت إليه الآية هو الذي يعرف عند العلماء باسم: (قانون السببية). هذا القانون يقول: إنّ شيئاً من (الممكنات) «لا يحدث بنفسه من غير شيء»؛ لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده، «ولا يستقل بإحداث شيء»؛ لأنّه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئاً لا يملكه هو.

ولنضرب مثالاً نوضح به هذا القانون:

منذ سنوات تكشفت الرّمال في صحراء الربع الخالي إثر عواصف هبت على المنطقة عن بقايا مدينة كانت مطموسة في الرمال، فأخذ العلماء يبحثون عن محتوياتها ويحاولون أن يحققوا العصر الذي بنيت فيه، ولم يتبادر إلى ذهن شخص واحد من علماء الآثار أو من غيرهم أن هذه المدينة وجدت بفعل العوامل الطبيعية من الرياح والأمطار والحرارة والبرودة لا بفعل الإنسان.

ولو قال بذلك واحد من النّاس لعده الناس مخرّفاً يستحقّ الشفقة والرحمة، فكيف لو قال شخص ما: إنّ هذه المدينة تكونت في الهواء من لا شيء في الأزمنة البعيدة، ثم رست على الأرض؟ إنّ هذا القول لا يقلّ غرابة عن سابقه، بل يفوقه.

لماذا؟ لأنّ العدم لا يوجد شيئاً، هذا أمر مقرر في بدائه العقول، ولأنّ الشيء لا يستطيع أن يوجد نفسه.

والمدينة على النحو الذي نعرفه لا بد لها من موجِد، والفعل يشي، ويعرّف بصانعه، فلا بدّ أن تكون المدينة صناعة قوم عقلاء يحسنون البناء والتنسيق.

ولو رأينا إنساناً انتقل من أسفل بناية إلى أعلاها فلا نستنكر ذلك، ولا نستغربه، لأنّ الإنسان لديه القدرة على ذلك.

فإذا رأينا حجراً كان في ساحة البناية قد انتقل إلى أعلاها، فإنّنا نجزم بأنّه لم ينتقل بنفسه، بل لا بدّ من شخص رفعه ونقله ؛ لأنّ الحجر ليس لديه خاصية الحركة والصعود.

ومن الغريب أنّ النّاس يجزمون بأنّ المدينة لا يمكن أن توجد من غير

موجد، ولا يمكن أن تبني نفسها، ويجزمون بأنّه لا بدّ للحجر من شخص صعد به إلى أعلى، ولكن يوجد فيهم من يجيز أن يصنع الكون من غير صانع، ويوجد من غير موجد، مع أنّ بناء الكون أشدّ تعقيداً وأعظم خلقة ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

ولكنّ المنكرين عندما يواجهون بذلك بمنطق علمي يخاطب العقل، لا يستطيعون إلا أن يقروا أو يكابروا.

وبهذا الدليل كان علماء الإسلام ولا يزالون يواجهون الجاحدين، فهذا أحد العلماء يعرض له بعض الزنادقة المنكرين للخالق، فيقول لهم: ما تقولون في رجل يقول لكم: رأيت سفينة مشحونة بالأحمال، مملوءة من الأنفال، قد احتوشتها في لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة، وهي من بينها تجري مستوية، ليس لها ملاح يُجريها، ولا متعهد يدفعها، هل يجوز في العقل؟.

قالوا: هذا شيء لا يقبله العقل.

فقال ذلك العالم: يا سبحان الله، إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر، فكيف يجوز قيام هذه الدّنيا على اختلاف أحوالها، وتغيّر أعمالها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها من غير صانع ولا حافظ؟! فبكوا جميعاً، وقالوا: صدقت وتابوا.

هذا القانون الذي سلمت به العقول وانقادت له هو الذي تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] وهو دليل يُرغم العقلاء على التسليم بأنّ هناك خالقاً معبوداً، إلا أن الآية صاغته صياغة بليغة مؤثرة، فلا تكاد الآية تلامس السمع حتى تزلزل النفس وتهزها.

روى البخاري في صحيحه عن جبير بن مطعم قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ

﴿ٱلْخَٰلِقُونَ ۞ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۞ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير»[1].

قال البيهقي[2]: قال أبو سليمان الخطابي: «إنما كان انزعاجه عند سماع هذه الآية لحسن تلقيه معنى الآية، ومعرفته بما تضمنته من بليغ الحجة، فاستدركها بلطيف طبعه، واستشف معناها بزكي فهمه...».

واختار الخطابي في معنى ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ [الطور: ٣٥] «فوجدوا بلا خالق، وذلك ما لا يجوز أن يكون، لأنّ تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الأمر، فلا بدّ له من خالق، فإذ قد أنكروا الإله الخالق، ولم يجز أن يوجدوا بلا خالق خلقهم، أفهم الخالقون لأنفسهم؟ وذلك في الفساد أكثر، وفي الباطل أشد، لأنّ ما لا وجود له كيف يجوز أن يكون موصوفاً بالقدرة، وكيف يخلق؟ وكيف يتأتى منه الفعل، وإذا بطل الوجهان معاً قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقاً، فليؤمنوا به.

ثم قال: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦] وذلك شيء لا يمكنهم أن يدّعوه بوجه، فهم منقطعون والحجة قائمة عليهم».

وهذا الذي قرر الخطابي أن الكفار لا يمكن أن يدعوه فائدة ذكره والسؤال عنه قطع الحجاج والخصام؛ إذ قد يوجد جاحد مكابر يقول: «أنا خلقت نفسي» كما زعم مثيل له من قبل بأنه يحيي ويميت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فماذا كان الجواب؟ سؤال آخر أبان عجزه وأكذبه في زعمه الأول ﴿قَالَ

(١) صحيح البخاري: ٨/ ٦٠٣، ورقمه: ٤٨٥٤.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي: ١/ ٣٩١.

إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فكانت النتيجة: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهنا هَبْ شخصاً قال: «أنا خلقت نفسي» فهل يستطيع أن يزعم أنّه خلق السمٰوات والأرض؟! فإذا كان العدم لا يُوجِد سماء ولا أرضاً، وإذا كانت السماء والأرض لم توجدا نفسيهما، وإذا كان هؤلاء لا يستطيعون الادعاء بأنّهم أوجدوا ذلك كله، فإنّه لا بدّ لهذا كله من موجد، وهذا الموجد هو الله سبحانه وتعالى.

موقف العلوم التجريبية من هذا القانون:

إنّ طاقة البشر، وطبيعة المخلوق، أعجز من أن تحصي مراحل الأسباب مرحلة مرحلة، وتتابع سلسلتها حلقة حلقة، حتى تشهد بداية العالم، ولذلك يئست العلوم التجريبية من معرفة أصول الأشياء، وأعلنت عدولها عن هذه المحاولة، وكان قصاراها أن تخطو خطوات معدودة إلى الوراء، تاركة ما بعد ذلك إلى ساحة الغيب التي يستوي في الوقوف دونها العلماء والجهلاء.

لا بدّ للعقل من الاعتراف:

ولكنّ هذا اليأس الإنساني من معرفة أطوار الكائنات تفصيلاً في ماضيها ومستقبلها، يقابله يقين إجمالي ينطوي كلّ عقل على الاعتراف به طوعاً أو كرهاً، وهو أنّه مهما طالت الأسباب الممكنة، وسواء أفرضت متناهية أو غير متناهية، فلا بدّ لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شيء آخر يحمل في نفسه سبب وجوده وبقائه، بحيث يكون هو الأول الحقيقي الذي ليس قبله شيء، وإلا لبقيت كلّ هذه الممكنات في طيّ الكتمان (إن لم يكن لها مبدأ ذو وجود مستقل).

المبحث الثاني

الرد على شبهات الملحدين في نشأة الكون

نسمع ونقرأ شبهات قيلت في القديم، وتقال اليوم، يحاول أصحابها أن يعللوا بها وجود الكون، وسنحاول أن نعرض لبعض هذه الشبهات، ثم نبين ما فيها من باطل.

١- القول بالمصادفة

بعد توضيح الدليل القرآني الذي يخاطب العقول، ويلزمها بالاعتراف بوجود الخالق المعبود، يبدو القول إنّ هذا الكون خلق مصادفة من غير خالق ليس قولاً بعيداً عن الصواب فحسب، بل قول بعيد عن المعقول يدخل صاحبه في عداد المخرفين الذين فقدوا عقولهم أو كادوا، فهم يكابرون في الدليل الذي لا يجد العقل بُدّاً من التسليم به.

لقد وجد من يقول: «لو جلست ستة من القردة على آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها بلايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبتها قصيدة من قصائد شكسبير، فكذلك الكون الموجود الآن، إنما وجد نتيجة لعمليات عمياء، ظلت تدور في «المادة» لبلايين السنين».

يقول وحيد الدين خان[١] بعد نقله لهذه الفقرة من كلام (هكسلي)[٢]: «إنَّ

(١) الإسلام يتحدى: ص٦٦.

(٢) (هكسلي) هو الكاتب الملحد الذي كتب كتابه المعروف (الإنسان يقوم وحده)، فسخّر الله له عالماً من ملته هو (أ. كريستي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك وعضو سابق في المجلس =

أيّ كلام من هذا القبيل لغو مثير بكل ما تحويه هذه الكلمة من معان، فإنّ جميع علومنا تجهل - إلى يوم النّاس هذا - أية مصادفة أنتجت واقعاً عظيماً ذا روح عجيبة، في روعة الكون».

وينقل عن عالم آخر إنكاره لهذه المقالة قوله: «إنّ القول إن الحياة وجدت نتيجة حادث اتفاقي شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفي يقع في مطبعة».

ويقرر وحيد الدين خان: «أنّ الرياضيات التي تعطينا نكتة المصادفة، هي نفسها التي تنفي أيّ إمكان رياضي في وجود الكون الحالي بفعل قانون المصادفة».

وخذ هذا المثال الذي نقله وحيد الدين خان عن العالم الأمريكي (كريستي موريسون) يبين فيه استحالة القول بوجود الكون مصادفة:

قال: «لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من واحد إلى عشرة، ثم رميتها في جيبك، وخلطتها جيداً، ثم حاولت أن تخرج من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي بحيث تلقي كلّ درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى، فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه واحد في المحاولة الأولى هو واحد في العشرة، وإمكان أن نخرج الدراهم من (١-١٠) بالترتيب واحد في عشرة بلايين»[١].

وعلى ذلك فكم يستغرق بناء هذا الكون لو نشأ بالمصادفة والاتفاق؟ إنَّ حساب ذلك بالطريقة نفسها يجعل هذا الاحتمال خيالياً يصعب حسابه فضلاً عن تصوره.

= التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة)، فسطر كتابه القيم (الإنسان لا يقوم وحده) رداً على (هكسلي) وقد ترجم هذا الكتاب تحت عنوان (العلم يدعو إلى الإيمان).

(١) انظر: العلم يدعو إلى الإيمان: ص٥١.

إنَّ كلَّ ما في الكون يحكي أنَّه إيجاد موجد حكيم عليم خبير، ولكنَّ الإنسان ظلوم جهول ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ * فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [عبس: ١٧-٢٩].

كيف يمكن أن تتأتى المصادفة في خلق الإنسان وتكوينه، وفي صنع طعامه على هذا النحو المقدّر الذي تتشارك فيه الأرض والسماء، وصدق الله في وصفه للإنسان ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢][١].

٢- قالوا الطبيعة هي الخالق

وهذه فرية راجت في عصرنا هذا، راجت حتى على الذين نبغوا في العلوم المادّية، وعلل كثيرون وجود الأشياء وحدوثها بها، فقالوا: الطبيعة هي التي تُوجد وتُحدِث.

وهؤلاء نوجه لهم هذا السؤال: ماذا تريدون بالطبيعة؟ هل تعنون بالطبيعة ذوات الأشياء؟ أم تريدون بها السنن والقوانين والضوابط التي تحكم الكون؟ أم تريدون بها قوة أخرى وراء هذا الكون أوجدته وأبدعته؟

إذا قالوا: نعني بالطبيعة الكون نفسه، فإننا لا نحتاج إلى الردّ عليهم، لأنّ فساد قولهم معلوم مـمّا مضى، فهذا القول يصبح ترديداً للقول السابق إنّ الشيء يوجد نفسه، أي: إنّهم يقولون الكون خلق الكون، فالسماء خلقت السماء، والأرض خلقت الأرض، والكون خلق الإنسان والحيوان، وقد بيّنا أنّ العقل الإنساني يرفض التسليم بأنّ الشيء يوجد نفسه، ونزيد الأمر إيضاحاً

---

(١) وسيأتي مزيد بحث لهذه المسألة عند الكلام على الآيات الكونية إن شاء الله تعالى.

فنقول: والشيء لا يخلق شيئاً أرقى منه، فالطبيعة من سماء وأرض ونجوم وشموس وأقمار لا تملك عقلاً ولا سمعاً ولا بصراً، فكيف تخلق إنساناً سميعاً عليماً بصيراً! هذا لا يكون.

فإن قالوا: خُلق ذلك كله مصادفة، قلنا: ثبت لدينا يقيناً أن لا مصادفة في خلق الكون، وقد تبينا ذلك فيما سبق.

نظرية التولد الذاتي (شبهة ثبت بطلانها):

وكان مما ساعد على انتشار الوثنية الجديدة (القول إنّ الطبيعة هي الخالق) هو ما شاهده العلماء الطبيعيون من تكون (دود) على براز الإنسان أو الحيوان، وتكوّن بكتيريا تأكل الطعام فتفسده، فقالوا: ها هي ذي حيوانات تتولد من الطبيعة وحدها.

وراجت هذه النظرية التي مكنت للوثن الجديد (الطبيعة) في قلوب الضالين التائهين بعيداً عن هدى الله الحق، لكنّ الحق ما لبث أن كَشَفَ باطل هذه النظرية على يد العالم الفرنسي المشهور (باستير) الذي أثبت أنّ الدود المتكون، والبكتيريا المتكونة المشار إليها لم تتولد ذاتياً من الطبيعة، وإنّما من أصول صغيرة سابقة لم تتمكن العين من مشاهدتها، وقام بتقديم الأدلة التي أقنعت العلماء بصدق قوله، فوضع غذاء وعزله عن الهواء، وأمات البكتريا بالغليان، فما تكونت بكتيريا جديدة، ولم يفسد الطعام، وهذه النظرية التي قامت عليها صناعة الأغذية المحفوظة (المعلبات)[1].

---

(١) كتاب التوحيد، للزنداني: ٢/ ٧٤.

الطبيعة هي القوانين التي تحكم الكون:

ويرى فريق آخر أنّ الطبيعة هي القوانين التي تحكم الكون، وهذا تفسير الذين يدّعون العلم والمعرفة من القائلين إنّ الطبيعة هي الخالق، فهم يقولون: إنّ هذا الكون يسير على سنن وقوانين تسيّره وتنظم أموره في كل جزئية، والأحداث التي تحدث فيه تقع وفق هذه القوانين، مثله كمثل الساعة التي تسير بدقة وانتظام دهراً طويلاً، فإنها تسير بذاتها بدون مسيّر.

وهؤلاء في واقع الأمر لا يجيبون عن السؤال المطروح: من خلق الكون؟

ولكنهم يكشفون لنا عن الكيفية التي يعمل الكون بها، هم يكشفون لنا كيف تعمل القوانين في الأشياء، ونحن نريد إجابة عن موجد الكون وموجد القوانين التي تحكمه.

يقول وحيد الدين خان: «كان الإنسان القديم يعرف أنّ السماء تمطر، لكننا اليوم نعرف كلّ شيء عن عملية تبخر الماء في البحر، حتى نزول قطرات الماء على الأرض، وكلّ هذه المشاهدات صور للوقائع، وليست في ذاتها تفسيراً لها، فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة، حتى إنّ العلماء يستنبطون منها قوانين علمية.

إنّ ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنّه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه، فإنّه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة.

إن الطبيعة لا تفسّر شيئاً (من الكون) وإنّما هي نفسها بحاجة إلى تفسير. واقرأ هذه المحاورة التي يمكن أن تجرى بين رجل نابه، وأحد الأطباء الأفذاذ في علمهم:

السائل: ما السبب في احمرار الدم؟

الطبيب: لأنّ في الدّمِ خلايا حمراء، حجم كل خلية منها: ١/ ٧٠٠ من البوصة.

السائل: حسناً، ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟

الطبيب: في هذه الخلايا مادة تسمى (الهميوجلوبين)، وهي مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين في القلب.

السائل: هذا جميل، ولكن من أين تأتي هذه الخلايا التي تحمل (الهميوجلوبين)؟

الطبيب: إنها تصنع في كبدك.

السائل: عجيب! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدّم والخلايا والكبد وغيرها، بعضها ببعض ارتباطاً كلياً وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدّقة الفائقة؟

الطبيب: هذا ما نسميه بقانون الطبيعة.

السائل: ولكن ما المراد بقانون الطبيعة هذا يا سيادة الطبيب؟

الطبيب: المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية العمياء للقوى الطبيعية والكيماوية.

السائل: ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائماً إلى نتيجة معلومة؟ وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور في الهواء، ويعيش السمك في الماء، ويوجد إنسان في الدّنيا، بجميع ما لديه من الإمكانات والكفاءات العجيبة المثيرة؟

الطبيب: لا تسألني عن هذا، فإنّ علمي لا يتكلم إلا عما يحدث، وليس له أن يجيب: لماذا يحدث؟

يتضح من هذه الأسئلة مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون. إن مثل الكون كمثل آلة تدور تحت غطائها، لا نعلم عنها إلا أنهّا تدور «ولكن لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الآلة بدوائر وتروس كثيرة، يدور بعضها ببعض، ونشاهد حركاتها كلّها. هل معنى هذا أنّنا قد علمنا خالق هذه الآلة بمجرد مشاهدتنا لما يدور بداخلها؟ كيف يفهم منطقياً أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الآلة جاءت من تلقاء ذاتها، وتقوم بدورها ذاتياً؟!»[1].

الطبيعة قوة:

فإن وجد من يقول: إن الطبيعة قوة أوجدت الكون، وإنها قوة حيّة سميعة بصيرة حكيمة قادرة... فإنّنا نقول لهم: هذا صواب وحقّ، وخطؤكم أنكم سمّيتم هذه القوة (الطبيعة)، وقد دلتنا هذه القوة المبدعة الخالقة، على الاسم الذي تستحقه وهو (الله)، الله عرّفنا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، فعلينا أن نسميه بما سمّى به نفسه سبحانه وتعالى.

كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم:

هؤلاء الذين نسبوا الخلق إلى الطبيعة لهم سلف قالوا قريباً من قولهم، وهم الدهرية الذين نسبوا الأحداث إلى الدهر، فقد شاهدوا أنّ الصغير يكبر، والكبير يهرم، والهرِم يموت بمرور الزمان، وتعاقب الليل والنهار، فنسبوا الحياة

(١) الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان: ٢٩-٣١، وقد ضمّن كلامه نقولاً عن غيره من علماء الغرب.

والموت إلى الدهر ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

أولئك نسبوا الأحداث إلى الزمان، وهؤلاء إلى ذوات الأشياء فهما صنوان في الضلال.

٣- نظرية دارون[١]

حاول أصحاب هذه النظرية أن يعللوا بها وجود الأحياء، وقد شاعت هذه النظرية، وعمل كثيرون على نشرها بحسن نية، لظنّهم أنّها حقيقة علمية، وعمل آخرون على نشرها بسوء نية، لأنّها وافقت أهواءهم، فهي تكذب بالأديان التي وصفت خلق الإنسان، وبذلك يجد الطاعنون في الدِّين دليلاً من العلم يرتكزون عليه، ويدلِّسون على النَّاس به.

ماذا تقول هذه النظرية؟

تزعم هذه النظرية أنّ أصل المخلوقات حيوان صغير، نشأ من الماء، ثم أخذت البيئة تفرض عليه من التغييرات في تكوينه ممّا أدّى إلى نشوء صفات جديدة في هذا الكائن، أخذت هذه الصفات المكتسبة تورث في الأبناء حتى تحولت مجموع هذه الصفات الصغيرة الناشئة من البيئة عبر ملايين السنين إلى نشوء صفات كثيرة راقية جعلت ذلك المخلوق البدائي مخلوقاً أرقى، واستمر ذلك النشوء للصفات بفعل البيئة والارتقاء في المخلوقات، حتى وصل إلى هذه المخلوقات التي انتهت بالإنسان.

---

(١) كتاب التوحيد، للزنداني: ٣/ ٨١.

أساس النظرية:

١- تعتمد النظرية على أساس ما شوهد في زمن « دارون » من الحفريات الأرضية، فقد وجدوا أنّ الطبقات القديمة تحتوي على كائنات أولية، وأنّ الطبقات التي تليها تحتوي على كائنات أرقى فأرقى. فقال « دارون »: « إنَّ تلك الحيوانات الراقية قد جاءت نتيجة للنشوء والارتقاء من الحيوانات والكائنات الأولى».

٢- وتعتمد أيضاً على ما كان معروفاً في زمن « دارون » من تشابه جميع أجنّة الحيوانات في أدوارها الأولى، فهو يوحي بأنّ أصل الكائنات واحد، كما أنّ الجنين واحد، وحدث التطور على الأرض كما يحدث في أرحام الكائنات الحيّة.

٣- كما تعتمد النظريّة على وجود الزائدة الدودية في الإنسان التي هي المساعد في هضم النباتات، وليس لها الآن عمل في الإنسان مما يوحي بأنّها أثر بقي من القرود لم يتطور؛ لأنها تقوم بدورها في حياة القرود.

شرح « دارون » لعملية التطور وكيف تـمّت:

١- **الانتخاب الطبيعي**: تقوم عوامل الفناء بإهلاك الكائنات الضعيفة الهزيلة، والإبقاء على الكائنات القوية، وذلك ما يسمّى بزعمهم بقانون « البقاء للأصلح»، فيبقى الكائن القوي السليم الذي يورث صفاته القويّة لذريته، وتتجمع الصفات القوية مع مرور الزمن مكوّنة صفة جديدة في الكائن، وذلك هو « النشوء » الذي يجعل الكائن يرتقي بتلك الصفات الناشئة إلى كائن أعلى، وهكذا يستمر التطور، وذلك هو الارتقاء.

٢- **الانتخاب الجنسي**: وذلك بوساطة ميل الذكر والأنثى إلى التزوج بالأقوى والأصلح، فتورث بهذا صفات الأصلح، وتنعدم صفات الحيوان الضعيف لعدم الميل إلى التزاوج بينه وبين غيره.

٣- كلما تكونت صفة جديدة، ورثت في النسل.

تفنيد الأساس الذي قامت عليه النظرية:

علم الحفريات لا يزال ناقصاً، فلا يدّعي أحد أنّه قد كمل التنقيب في جميع طبقات الأرض وتحت الجبال والبحار، فلم يجد شيئاً جديداً ينقض المقررات السابقة.

وعلى فرض ثبات مقررات هذا العلم فإنّ وجود الكائنات الأولى البدائية أولاً، ثم الأرقى ليس دليلاً على تطور الكائنات الراقية من الكائنات الأدنى، بل هو دليل على ترتيب وجود هذه الكائنات فقط عند ملاءمة البيئة لوجودها على أي صورة كان هذا الوجود، وإذا كانت الحفريات في زمن « دارون » تقول: إنّ أقدم عمر للإنسان هو ستمائة ألف سنة، فإنّ الاكتشافات الجديدة في علم الحفريات قد قدّرت أنّ عمر الإنسان يصل إلى عشرة ملايين من السنين.

أليس هذا أكبر دليل على أنّ علم الحفريات متغيّر لا يبنى عليه دليل قطعيّ، وأنّه قد ينكشف في الغد من الحقائق عكس ما كنّا نؤمل؟

ولقد كتب الدكتور مصطفى شاكر سليم تعليقاً على كتاب «الإنسان في المرآة» للمؤلف (كلايد كلوكهون) حول إنسان (يناندرتال) الذي يزعم أنصار نظرية (دارون) أنّه أوّل إنسان تطور من القرود أو الغوريلا. فقال الدكتور مصطفى: ويتصف (إنسان يناندرتال) بالصفات الطبيعية الرئيسة الآتية: مخ أكبر حجماً من مخ الإنسان المعاصر، وجمجمة كبيرة عريضة. إلى أن قال: إلى

جانب أنّ السلسلة التي تغطيها الحفريات مقطعة غير متصلة بما يسمى (الحلقات المفقودة).

يقول الدكتور (سوريال) في كتابه « تصدّع مذهب دارون »:

١ - **إنّ الحلقات المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء**، وليست بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب، فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعددة، ولا بين الحيوانات الرخوية وبين الحيوانات المفصلية، ولا بين الحيوانات اللافقرية وبين الأسماك والحيوانات البرمائية، ولا بين الأخير وبين الزحافات والطيور، ولا بين الزواحف وبين الحيوانات الآدمية، وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها في العصور الجيولوجية.

٢- **تشابه أجنة الحيوانات**: ذلك خطأ كبير وقع فيه بعض العلماء، نتيجة لعدم تقدم الآلات المكبّرة التي تبين التفاصيل الدقيقة التي تختلف بها أجنة الحيوانات بعضها عن بعض في التكوين والتركيب والترتيب، إلى جانب التزييف الذي قام به واضع صور الأجنّة المتشابهة العالم الألماني (أرنست هيكل) فإنّه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنّه اضطرّ إلى تكملة الشبه في نحو ثمانية في المئة من صور الأجنّة لنقص الرسم المنقول.

٣- **أما وجود الزائدة الدودية في الإنسان** كعضو أثري للتطور القردي فليس دليلاً قاطعاً على تطور الإنسان من القرد، بل يكون سبب وجودها هو وراثتها من الإنسان الجدّ الذي كان اعتماده على النباتات، فخلقت لمساعدته في هضم تلك النباتات، كما أنّ العلم قد يكشف أنّ لها حقيقة لا تزال غائبة عنّا حتى اليوم.

فالعلم كل يوم إلى ازدياد، وإذا كانت الخنوثة من صفات الكائنات الأولية الدنيا، والزوجية من خصائص الكائنات الراقية، فإنّ الثدي من أمارات الأنوثة،

ونجد الفيل الذكر له ثدي كما للإنسان، في حين ذكور ذوات الحافر كالحصان والحمار لا ثدي لها إلا ما يشبه أمهاتها. فكيف بقي أثر الخنوثة في الإنسان، ولم يبق فيما هو أدنى منه؟ مع أنّ (دارون) يزعم أنّ الإنسان تطـور مما هو أدنى منه.

تفنيد شرح دارون لعملية التطور:

١ - يقول « دارون »: إنّ هناك ناموساً أو قانوناً يعمل على إفناء الكائنات الحية، فلا يبقى إلا الأصلح الذي يورث صفاته لأبنائه، فتتراكم الصفات القوية حتى تكون حيواناً جديداً، حقاً هناك نظام وناموس وقانون يعمل على إهلاك الكائنات الحيّة جميعها قويها وضعيفها، لأنّ الله قدّر الموت على كلّ حي ؛ إلا أنّ نظاماً وناموساً يعمل بمقابلة هذا النظام، ذلك هو قانون التكافل على الحياة بين البيئة والكائن، لأنّ الله قدّر الحياة فهيّأ أسبابها، فنجد الشمس والبحار والرياح والأمطار والنباتات والجاذبية، كلّ هذه وغيرها تتعاون للإبقاء على حياة الإنسان وغيره من الحيوانات.

فالنّظر إلى عوامل الفناء وغض النظر عن عوامل البقاء يُحدث خللاً في التفكير، فإذا كان هناك سنة للهلاك، فهناك سنة للحياة، ولكلٍّ دورٌ في الحياة، وإذا كانت الظروف الطبيعية: من رياح ورعد وحرارة وماء وعواصف وغيرها قادرة على تشويه الخلق أو تدمير صنعه كطمس عين أو تهديم بناء، فإنّه من غير المعقول أن تقدر هذه الظروف الطبيعية الميتة الجامدة والبليدة أن تنشىء عيناً، لمن لا يملك عيناً، أو تصلح بناء فيه نقص.

إنَّ العقل يقبل أن تكون الظروف الطبيعية صالحة لإحداث الخراب والهلاك، لكنَّه من غير المعقول أن تكون هذه الظروف صالحة لتفسير الخلق البديع

والتصوير والتكوين المنظم المتقن، إن أي عضو من أعضاء الكائنات الحيّة قد رُسم بإتقان، وكوّن بنظام، ورتبت أجزاؤه بحكمة بالغة محيّرة، ونسق عمله مع غيره في غاية الإبداع، ومن المحال أن ينسب ذلك الإتقان والنظام البديع إلى خبط الظروف الطبيعية العشواء.

قال « جمال الدين الأفغاني » في كتابه « الردّ على الدهريين » بعد نقاش لهذه النظرية: وبعد ذلك فإني سائلهم كيف اطلع كلّ جزء من أجزاء المادة مع انفصالها على مقاصد سائر الأجزاء؟ وبأية آلة أفهم كلّ جزء منها بقية الأجزاء بما ينويه من مطلبه؟ وأي (برلمان، أو سينات) - مجلس الشيوخ - عقدت لإبداع هذه المكونات العالمية التركيب البديعة التأليف؟ وأنّى لهذه الأجزاء أن تعلم - وهي في بيضة العصفور - ضرورة ظهورها في هيئة الطير يأكل الحبوب، فمن الواجب أن يكون له منقار وحوصلة لحاجته في حياته؟.

إنّ هذا المبدأ الذي أطلقه (دارون) (البقاء للأصلح) قد دمّر الحياة البشرية، لأنّه أعطى المسوغ لكلّ ظالم فرداً كان أو حكومة، لأنّ الظالم وهو يمارس غصبه وظلمه وحربه ومكره لا يمارس رذائل خلقية، إنّما هو يمارس قانوناً من قوانين الفطرة كما زعم (دارون)، إنه يمارس قانون (البقاء للأصلح)، وذلك الزعم هو الذي أعطى حركة الاستعمار كلّ بشاعتها.

٢- أمّا الانتخاب الطبيعي الذي يكون به الميل في التناسل بين الأفراد القويّة مما سبب اندثار الأفراد الضعاف، وبقاء الأقوى، فليس ذلك دليلاً على حدوث تطور في النوع، بل يفهم منه بقاء النوع القوي من النوع نفسه واندثار النوع الضعيف.

أمّا إذا قيل: إنَّ تطوراً يحدث على كائن ما فإنَّه يحدث فيه فتوراً جنسياً؛ لأنّ الألفة بين الذكور والإناث تنقص بقدر التباعد والاختلاف بينهما في

الشكل. ذلك ما يقوله (دوير زانسكي) أشهر المختصين بالجيولوجية النوعية عام ١٩٥٨ م بعد قرن من (دارون)، فمن قوله في هذا: «المخالفة في الشكل تضعف الميل التناسلي منه، فالميل إلى التناسل يضعف بين الأشكال والأنواع المختلفة بقدر ذلك الاختلاف. وليس صحيحاً أنّ الصفات المحسنة في فرد من الأفراد تنقل بوساطة الوراثة.

فمثلاً هذا الحداد القويّ العضلات لا تنتقل قوة عضلاته إلى ذريته، كما أنّ العالم الغزير العلم لا ينتقل علمه بالوراثة إلى أبنائه».

٣- أما القول بحدوث نشوء لبعض الخصائص والصفات العارضة، ثم توريثها في النسل، فذلك ما يرفضه علم الوراثة الحديث. فكلّ صفة لا تكمن في الناسلة، ولا تحتويها صبغة من صبغاتها فهي صفة عارضة، لا تنتقل إلى الذرية بالوراثة.

يقول الأستاذ (نبيل جورج) أحد ثقات هذا العلم: «إنّ الانتخاب الطبيعي لأجل هذا لا يصلح لتعليل مذهب النشوء، أو مذهب التطور ؛ لأنّه يعلل زوال غير الصالح ونشأة المزايا الموروثة بين الأفراد، والقائلون بالطفرة يقصدون أنّ الحيوان الذي لم يكن له عين تتكون له العين فجأة بوساطة بعض الأشعة.

فقد ثبت لدى المختصين أنّ الأشعة السينية تغيّر العدد في الناسلات، لكنّ أثر الأشعة تغيير لما هو موجود، لا إنشاء ما ليس له وجود، فعدد ناسلات القرد غير عدد ناسلات الإنسان، والأشعة لا تؤثر إلا في الناسلات الموجودة فضلاً من أن تحدث هذه الأشعة التي لا عقل لها ولا إدراك عقلاً للإنسان يتميز به عن القرد وغيره من سائر الحيوانات.

إنّ الأشعة تؤثر في الناسلات تأثيراً أقرب إلى التشويه منه إلى الإصلاح كما يحدث من الأشعة الذريّة. وإلى جانب مخالفة علم الوراثة (لنظرية دارون) فإنّ

التجربة تنقضه، فها هم اليهود والمسلمون من بعدهم يختنون أبناءهم، ولكن ذلك كله لم يسبب أن وُلد أطفالهم بعد مرور السنين مختونين، وهكذا فكلما تقدم العلم أثبت بطلان نظرية (دارون).

النظرية لا يؤيدها الواقع المشاهد:

١- لو كانت النظرية حقا لشاهدنا كثيراً من الحيوانات والإنسان تأتي إلى الوجود عن طريق التطور، لا عن طريق التناسل فقط. وإذا كان التطور يحتاج إلى زمن طويل فذلك لا يمنع من مشاهدة قرود تتحول إلى آدميين في صورة دفعات متوالية.

٢- لو سلمنا أنّ الظروف الطبيعية والانتخاب الطبيعي؛ قد طورت قرداً إلى رجل - مثلاً - فإنّا لن نسلم أبداً بأن هذه الظروف قد قرّرت أيضاً أن تكون امرأة لذلك الرجل، ليستمرا في التناسل والبقاء مع الموازنة بينهما.

٣- إن القدرة على التكيف التي نشاهدها في المخلوقات كالحرباء التي تتلون بحسب المكان، هي مقدرة كائنة في تكون المخلوقات، تولد معها، وهي عند بعضها وافرة، وعند بعضها الآخر تكاد تكون معدومة، وهي عند جميع المخلوقات محدودة لا تتجاوز حدودها، فالقدرة على التكيف صفة كامنة، لا صفة متطورة تكونها البيئة كما يزعم أصحاب النظرية، وإلا كانت البيئة فرضت التكيف على الأحجار والأتربة وغيرها من الجمادات.

٤- تمتاز الضفادع على الإنسان بمقدرة على الحياة في البر والماء، كما تمتاز الطيور عليه بمقدرة الطيران والانتقال السريع وذلك بدون آلة، كما أنّ أنف الكلب أشدّ حساسية من أنف الإنسان، فهل أنف الكلب أكثر رقياً من أنف الإنسان؟

وهل الضفادع والطيور أرقى من الإنسان في بعض الجوانب؟

كما أنَّ عين الجمل أو الحصان أو الحمار ترى في النهار وفي المساء على السواء، في حين تعجز عين الإنسان عن الرؤية في الظلام، كما أن عين الصقر أشدّ حدة من عين الإنسان. فهل الصقر أو الحمار أرقى من الإنسان؟ وإذا أخذنا الاكتفاء الذاتي أساساً للرقي كما هو بالنسبة لحال الدول فإنّ النبات يفوق الإنسان وجميع الحيوانات، لأنّه يصنع طعامه وطعام غيره دون أن يحتاج لغذاء من غيره.

وإذا أخذنا الضخامة أساساً للرقي، عندئذ يجب أن يكون الجمل والفيل وحيوانات ما قبل التاريخ الضخمة أرقى من الإنسان.

موقف علماء الطبيعة من النظرية:

١- المؤيدون للنظرية وتأييدهم كان أكثره انتصاراً لحرية الفكر الذي كانت الكنيسة تحاربه وتقاومه، فقد شن علماء الطبيعة حرباً ضد قسس الكنيسة وأفكارهم بعد أن نشبت حرب طاحنة بين الفريقين.

٢- المعارضون، وهم المطالبون بدليل محسوس على فعل (الانتخاب الطبيعي) في تحويل الأنواع، ولا سيما نوع الإنسان، فالمعترضون عليه طلباً للأدلة الطبيعية لا يقلون عدداً أو اعتراضاً عن المعترضين اللاهوتيين في أوربا.

وهذه بعض آراء العلماء المعارضين كما نقلها الأستاذ إبراهيم حوراني: «إنّ العلماء لم يثبتوا مذهب «دارون» بل نفوه، وطعنوا فيه، مع علمهم أنّه بحث فيه عشرين سنة». ومنهم العلامة «نشل»، والعلامة «دلاس» قال ما خلاصته: «إنَّ الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان، ولا بد من القول بخلقه رأساً».

ومنهم « فرخو » قال: « إنّه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرد فرقاً بعيداً، فلا يمكننا أن نحكم بأنّ الإنسان سلالة قرد أو غيره من البهائم، ولا يحسن أن نتفوّه بذلك ».

ومنهم « ميفرت » قال بعد أن نظر في حقائق كثيرة من الأحياء: « إنّ مذهب « دارون » لا يمكن تأييده، وإنّه من آراء الصبيان ».

ومنهم العلامة « فون بسكون » قال بعد أن درس هو و « فرخو » تشريح المقابلة بين الإنسان والقرد: « إنّ الفرق بين الاثنين أصلي وبعيد جداً. . ».

ومنهم العلامة « أغاسيز » قال في رسالة في أصل الإنسان تليت في ندوة العلم الفيكتورية، ما خلاصته: إنّ مذهب (دارون) خطأ على باطل في الواقع، وأسلوبه ليس من العلم في شيء، ولا طائل تحته.

ومنهم العلامة « هكسلي » وهو من (اللاأدرية) وصديق (للدارون) قال: إنَّه بموجب ما لنا من البينات لم يثبت قط أن نوعاً من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعي أو الانتخاب الصناعي.

ومنهم العلامة « تندل » وهو مثل « هيكل » قال: « إنّه لا ريب في أنّ الذين يعتقدون بالارتقاء يجهلون أنّه نتيجة مقدمات لم يعلم بها، ومن المحقق عندي أنه لا بدّ من تغيير مذهب (دارون) ».

نظرية لا حقيقة:

لذلك كله فقد أطلق على ما قاله (دارون) بشأن التطور (نظرية التطور)، وهناك فرق كبير لدى العلماء بين النظرية والحقيقة أو القانون. فالنظرية في اصطلاحهم هي ما تحتمل التصديق والتكذيب، أما الحقيقة أو القانون فلا يحتمل وجهاً من أوجه الباطل.

لماذا انتشرت إذن؟

سبب انتشار هذه النظرية هو مَجيئُها في وقت أذن الله فيه أن يظهر باطل ذلك الدّين المحرف المغير (النصرانية) على أيدي جماعة من أبنائه، فكان لتقدم العلوم أثر كبير في كشف زيف ذلك الدين، مما أدّى إلى نشوب معركة ضارية ذهب ضحيتها آلاف من علماء الطبيعة، وفي المعترك الحامي أخذ كل فريق في استخدام كل سلاح ضد خصمه، فانتشرت هذه النظرية سلاحاً أشهره علماء الطبيعة في وجه دينهم، ثمّ في وجه كلّ دين وطئت أقدامهم المستعمرة أرضه ؛ لاعتقادهم بصدق هذه النظرية، وانتقاماً من ذلك الدّين الباطل الذي وقف حجر عثرة أمام البحث في ميادين العلوم الطبيعية، ثم وسيلة لتحطيم أديان الأمم المستعمرة حتى يسهل على المستعمرين السيطرة على هذه الشعوب.

وهكذا فرض التعليم الاستعماري هذه النظرية بعد أن حطم دينها في مناهج الدراسة، وقدمها في ثوب (علمي) حتى يستطيع أن يقنع الطلاب بصدق هذه النظرية ليقرر ما ألقي في أذهان الطلاب من خلاف بين العلم الذي زيفوه والدّين، فيكفر الناس بدينهم.

ويكفي أن يعرف القارىء أنّه بوساطة هذه النظرية انحرف كثير من أبناء الإسلام عن دينهم، ولذلك فقد حرص الاستعمار على تعليم هذه النظرية لأبناء المسلمين في مدارسنا في الوقت الذي يحرّم فيه القانون الأمريكي تعليم هذه النظرية في المدارس منذ سنة ١٩٣٥م.

ولكن أوربا بعد أن قضت على دينها المحرف عادت لتعلن أنّ نظرية (دارون) التي استخدمتها في المعركة لدعم موقفها ليست حقيقة علمية، وإنما هي نظرية كلما تقدمت العلوم كشفت عن باطلها.

القرآن ونظرية دارون:

حين يتكلم القرآن في الحقائق الأزلية فعلى الناس أن يصغوا وينصتوا ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، لأنه من العليم الخبير الذي أحاط بكل شيء علماً، وما علم الإنسان! إنّه لا شيء بجانب علم الله ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكيف لا يعلم أمر خلقه وهو الذي خلقهم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وكيف يسمح النّاس لأنفسهم أن يتحدثوا عن أصلهم البعيد وهم لم يشهدوا ذلك الخلق ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١].

وما داموا لم يشهدوا، فإنّ صوابهم في هذا المجال قليل، وخطؤهم كثير.

عكس هذه النظرية هو الصواب:

الذي يقرره العليم الخبير خالق الإنسان مخالف تماماً لما قرره هؤلاء الجاهلون، فالله يخبرنا أنّه خلق الإنسان خلقاً مستقلاً مكتملاً، وقد أخبر ملائكته بشأن خلقه قبل أن يوجده ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وحدثنا عن المادة التي خلقه منها، فقد خلقه من تراب ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥].

وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت رسول

الله ﷺ يقول: (إنّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزْنُ، والخَبيثُ والطيبُ)[1].

والماء عنصر في خلق الإنسان ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥]، فهو من ماء وتراب: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ [الأنعام: ٢].

هذا الطين تحوّل إلى صلصال كالفخار ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].

وقد خلقه الله بيديه ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقد خلقه مجوّفاً منذ البداية، ففي الحديث عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: (لما صَوَّرَ الله آدَمَ فِي الجَنَّةِ تركَهُ مَا شَاءَ الله أنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إبليسُ يَطيفُ بهِ يَنْظرُ، فلَمّا رآهُ أجْوفَ عَرَفَ أنّه خُلِقَ خلقاً لاَ يتمالك)[2].

هذا الطين نفخ الله فيه من روحه، فدبّت فيه الحياة، فأصبح سميعاً بصيراً متكلماً عاقلاً واعياً، فقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم حين ينفخ فيه الروح، وتدبّ فيه الحياة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

وأخبرنا الله بالمكان الذي أسكنه فيه بعد خلقه ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

وبمجرد أن تمّ خلقه أخذ يتكلم ويفقه ما يقال له، ففي القرآن ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم

---

(١) رواه أحمد والترمذي وأبو داود (مشكاة المصابيح: ١/ ٣٦. ورقمه: ١٠٠).

(٢) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠١٦، ورقمه: ٢٦١١.

بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (لـمّا خَلقَ الله آدَمَ وَنَفَخَ فيهِ الرُّوحَ عَطسَ، فَقَالَ: الحَمْدُ لله، فَحَمِدَ الله بِإذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبّهُ: يَرحَمُكَ الله يَا آدَم، اذْهَبْ إلى أولئكَ الملائِكةِ - إلى مَلأٍ مِنْهُمْ جُلوسٌ فَقُلْ: السّلامُ عَلَيْكُمْ. قَالوا: عَلَيْك السّلامُ وَرَحْمَةُ الله..)[١].

هذا الإنسان الأول هو آدم وهو أبو الناس كافة، وخلق الله من آدم زوجه حواء، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

ولم يكن خلق الإنسان ناقصاً ثم اكتمل، كما يقول أصحاب نظرية التطوّر؛ بل كان كاملاً، ثمّ أخذ يتناقص الخلق، ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: (خلق الله آدَمَ وَطولُهُ: سِتّونَ ذِرَاعا)[٢].

ولذلك فالمؤمنون يدخلون الجنّة مكتملين على صورة آدم، ففي بقية الحديث السابق: (فَكُلّ مَنْ يَدخُلُ الجنّةَ عَلى صُورةِ آدَمَ وطوله ستون ذراعاً)، ثم يقول ﷺ: (فلم يَزَل الخلقُ يَنْقُصُ بعده حَتّى الآن)[٣].

وقد أخبرنا الحق أنه مسخ بعض الضالين من البشر قردة وخنازير، فالمستوى الراقي من الخلق يمكن أن ينحدر إلى المستوى الأدنى، أمّا أن تُحوّل القرود والخنازير بشراً فهذا لا يوجد إلا عند أصحاب العقول الضعيفة.

---

(١) رواه الترمذي: مشكاة المصابيح: ٢/ ٥٤٢، ورقمه: ٤٦٦٢. وقال محقق المشكاة: صححه الحاكم ووافقه الذهبي. وهو كما قالا.

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٣٦٢، ورقمه: ٣٣٢٦، ورواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢١٨٣، ورقمه: ٢٨٤١، واللفظ للبخاري.

(٣) المصدران السابقان، إلا أن اللفظ هنا لمسلم.

هذه لمحة مما حكاه القرآن وأخبرت به الأحاديث عن خلق الإنسان الأول، لم نستقص النصوص من الكتاب والسنّة في ذلك، وإلا فالقول في ذلك واسع وطويل، وهو يعطي صورة واضحة لأصل الإنسان ليس فيها غبش ولا خيال، وهذا الذي يبيّنه الإسلام أصل كريم يعتز الإنسان بالانتساب إليه، أمّا ذلك الإنسان الذي يصوّره أصحاب نظرية التطور، ذلك القرد الذي ترقى عن فأر أو صرصور فإنّه أصل يخجل الإنسان من الانتساب إليه.

وذلك الإنسان الذي يُدَرّسه علماء التاريخ للأطفال: الإنسان المتوحش الذي لا يفقه الكلام، ولا يحسن صنع شيء، الذي يتعلم من الحيوان... فيه الكثير من التجني على أصل الإنسان الكريم.

وبعد:

فقد آن لنا أن نفيق وأن نعود إلى ديننا الذي جاء به كتاب ربنا، ففيه الخير (فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من ابتغى الهدى من غيره أضله الله...).

آن لنا أن نعِفّ عن نتاج العقول الآسنة المتعفنة في مثل هذه المجالات، أعني المجالات التي قال الله فيها كلمة الفصل، ولم يترك لأحد فيها قولاً.

يجب أن تتوقف هذه الهزيمة الفكرية التي تجعلنا نسارع إلى قبول كل جديد بدون رويّة وتفكر، ثم لا نفيق على خطأ ما أخذناه إلا بعد أن يهدمه بناتُه.

الفصل الثاني

التعريف بالله وربط القلوب به

تمهيد:

ما كان لنا أن نطيل في عرض المسألة الأولى لولا ما أثير حولها من شكوك وشبهات تقتضي من الباحث أن يبين عوارها.

وقد آن لنا أن نبسط القول في المسألة الثانية، وهي أهم مسائل هذا الباب، وصلب هذه المباحث.

وقد سبق أن قررنا أن القرآن سلك سبيلين لتقرير هذه الحقيقة الكبيرة:

الأولى: الحديث عن بديع صنع الله في خلقه، وبيان ما في هذا الكون من إعجاز يشي بعظمة الخالق سبحانه.

الثانية: الحديث المباشر عن الله: ذاته، وأسمائه، وصفاته، ونعمه ومخلوقاته، وسنحاول - إن شاء الله تعالى - أن نفصل القول في ذلك، والله المستعان.

المبحث الأول

دلالة الآيات الكونية على خالقها ومبدعها

المطلب الأول: منهج القرآن في الاستدلال بالآيات الكونية

١ - ارتياد الكون عبر آيات القرآن

يأخذنا القرآن في جولات وجولات نرتاد آفاق السماء، ونجول في جنبات الأرض، ويقف بنا عند زهرات الحقول، ويصعد بنا إلى النجوم في مداراتها، وهو في كلّ ذلك يفتح أبصارنا وبصائرنا، فيرينا كيف تعمل قدرة الله وتقديره في المخلوقات، ويكشف لنا أسرار الخلق والتكوين، ويهدينا إلى الحكمة من الخلق والإيجاد والإنشاء، ويبين عظيم النعم التي حبانا بها في ذوات أنفسنا وفي الكون من حولنا.

إنه حديث طويل في كتاب الله يطالعك في طوال سوره وقصارها، وهو حديث مشوق تنصت إليه النفس، ويلذه السمع، ويستثير المشاعر والأحاسيس.

ولقد طالعت الكثير مما توصل إليه العلم والعلماء في شتى جوانب الحياة يبينون أسرار الخلق، ودلالة الخلق على الخالق، فما وجدت في شيء من ذلك كلّه ما وجدته في القرآن من جمال وصف، ووفرة علم، واستثارة مشاعر، وحسن توجيه، ودقة استنتاج، وكيف لا يكون كذلك وهو تنزيل الحكيم الحميد !!

فعل الله في الكون:

تعال معي لنقوم بجولة مع الآيات القرآنية ؛ نرتاد هذا الكون ليرينا كيف تعمل قدرة الله في مختلف أرجاء الكون: في الحبّة تلقى في التربة فتنفلق، وتضرب بجذورها في التربة، فيخرج من الحبّة الجامدة حياة تتمثل في سوق، وأوراق، وأزهار تفوح بالشذى، وثمار يتغذى بها الإنسان والحيوان. وفي الإصباح وهو ينبلج... وفي سكون الليل.. ومسير الشمس والقمر.. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٥-٩٦].

وانظر إلى مشهد السحاب كيف يصنعه الله، والبرد كيف يكوّنه ويصرفه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [النور: ٤٣].

ويحدثنا الله عن فعله في الظلّ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٤٥-٤٦].

وانظر إلى تصريفه شؤون الحياة والأحياء والليل والنهار: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

لا يكتفي القرآن بأن يرينا قدرة الله وهي تعمل في الكون، وعلمه يحيط

بالمخلوقات، وتصريفه للشؤون المختلفة... ولكنّه - مع ذلك - يعرفنا بالغاية التي خلق الكون من أجلها.

خلق الله هذه الأرض من أجل الإنسان ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩] خلقها لنا على نحو يتوافق مع طبيعتنا وتكويننا ويحقق لنا الصلاح، وهذا ما سماه القرآن بالتسخير.

وهو لا يخبرنا بذلك مجرد إخبار، وإنّما يوقفنا على هذا التسخير الذي جعله الله في الكون، ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان:٢٠] فالنجوم خلقت لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:٩٧].

والأرض والسماء، وإنزال الماء من السماء، والسفن السابحة في البحر، والأنهار الجارية في جنبات الأرض، والشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار... كلّ ذلك مخلوق لنا ولخيرنا ولصلاحنا ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ * وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

٢- نعم الله في الكون

عرّفنا القرآن بأنّ الله خلق هذا الكون وسخّره لنا، فجعله متوافقاً مع جبلتنا، وقدّره تقديراً تصلح به حياة الإنسان، والقرآن يتخذ من هذا الحديث والبيان سبيلاً ليشكر الإنسان ربّه، إذ الإنسان مفطور على حب من أحسن إليه ﴿ هَلْ

﴿جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ولذلك فقد أفاض القرآن في ذكر النعم التي حباها الله عباده في ذوات أنفسهم ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣]، وفي الكون من حولهم: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ * وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ * وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ * لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [الزخرف: ١٠-١٣].

وخلق لنا الشمس والقمر على نحو يحقق النفع والصلاح ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: ٥].

والأنعام من الجمال والأبقار والأغنام، وكذلك الخيل والبغال والحمير خلقها لنا على نحو يفيدنا ويتناسب مع طبائعنا وتكويننا ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ * وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ * وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ * وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٥-٨].

والبحر مخلوق لنا أيضاً، وفي خلقه على ما هو عليه ما يحقق لنا الشيء الكثير ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

والنحل خلقه الله ليقوم بذلك العمل الرائع، ليتتج لنا ذلك الشراب المختلف الألوان، ليتغذى به البشر، ويكون لهم شفاء ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ

ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

التعرف على الله من خلال آياته الكونية سبيلٌ حثَّ عليه القرآن:

حث القرآن عباد الله على النظر في آيات الله الكونية: الأرض، والسماء، وما فيهما وما بينهما، وجعل النظر والتأمل في ذلك من الذكرى التي تنفع المؤمنين.

وقد أعجبني تسمية بعض المعاصرين لهذا المنهج (بقانون السير والنظر) لكثرة حث الآيات القرآنية على ذلك، وقد يكون السير والنظر حسيّان، فيسير المرء بقدميه، وينتقل من بلد لآخر، كما قد يكون النظر بالبصر، وقد يكونان بالفكر والعقل.

وقد جاء الأمر في القرآن أمراً عاماً ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ [يونس: ١٠١]. وقد يأتي أمراً خاصاً ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤].

٣- استدلال القرآن بالآيات الكونية على استحقاق الخالق الربوبية والألوهية وبطلان ما يعبد من دون الله

يتخذ القرآن من الآيات الكونية مادة يناقش بها المشركين، ويقيم بها الحجة عليهم ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ *

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠-٣٣].

ويبين لهم فساد معتقداتهم في معبوداتهم، فهي لا تملك صفات الربوبية والألوهية التي تستحق أن تعبد بها، وتتخذ آلهة من دون الله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩-٦٤]

إنّ الآيات تبين عدم صلاحية الآلهة المدعاة للعبادة، فالله وحده الخالق للسماء والأرض، المنزل للماء من السماء، والمنبت به الحدائق التي تسرّ النفس، وتبهج النظر، وهو الذي جعل الأرض قراراً وسيّر خلالها الأنهار، وثبتها بالجبال. . . ، فهو المعبود الحق، وغيره لم يفعل شيئاً، فلا يستحق أن يعبد من دون الله.

وعلينا أن نستخدم هذا النوع من الاستدلال في مواجهة الكفرة والملحدين، فقد استخدمه الرسل من قبل، وأكثروا من الاحتجاج به، فهذا إبراهيم خليل الرحمن يناقش الملحد، ويقيم عليه الحجة بهذا النوع من الاستدلال بحيث يخرس لسانه ويدهش فكره ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ

﴿اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهذا موسى كليم الله يستخدم الاستدلال نفسه في مواجهة طاغية عصره فرعون، ولا يزال يأتيه بالدليل في إثر الدليل حتى يعجزه، فيلجأ إلى التهديد والوعيد: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٩].

بل إن هذا النوع من الاستدلال طريقة جميع الرسل، ارجع إلى سورة إبراهيم (آية ٩، ١٠) واقرأ ما قالته الأقوام المكذبة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، ثم إجابة الرسل حيث قالوا: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ [إبراهيم: ١٠].

فاستدلوا على صدق دعوتهم بأن الله - سبحانه - فاطر السموات والأرض أي موجدهما وخالقهما.

الكفر مُستَنكَر مستعجب مع وضوح الأدلة:

ولذلك يسأل القرآن سؤالاً يشي بالعجب من كفر الكافرين مع وضوح الأدلة والبراهين ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ويسأل في آية أخرى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

إن مقتضى نظر الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله يوجب عليه التوجه إلى خالقه وتعظيمه، ولذلك كان غريباً كفر الكافرين، وجحد الجاحدين ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٣-١٨].

٤- الذين ينتفعون بآيات الكون هم أولو الألباب

إن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلا للقلوب الذاكرة العابدة؛ لأن هذه القلوب انكشفت عنها الحجب وتفتحت واتصلت بالكون العجيب، فالقرآن أقام الوصلة بين القلب البشري وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل، وهذه الوصلة هي التي تجعل للنظر في كتاب الكون والتعرف إليه أثراً في هذا القلب البشري، وقيمة في الحياة البشرية. هذه هي الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذي يعلم ويعرف، ولذلك نصّ القرآن على أن الذي يهتدي بآيات الكون هم صنف معين من الناس ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

هؤلاء هم الذين ينتفعون بآيات الكون، لأنهم لم يقفوا عند حدود المنظر المشهود البادي للعيان؛ بل نظروا إلى اليد التي تسيره والقدرة التي تصنعه، إنهم يستخدمون أبصارهم وأسماعهم وعقولهم وأفكارهم على خير وجه في هذا المجال، مسترشدين بآيات الكتاب التي تعين السمع والبصر والفكر والعقل على التوصل إلى خير ما يمكن للإنسان أن يصل إليه ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ

﴿أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢١-٢٤].

فالآيات تتكشف للذين يتفكرون ويسمعون ويعقلون ؛ أي على وجه الحقيقة المؤدية إلى المطلوب.

أما الكفار فإنهم يشاهدون الحدث ولا يتجاوزونه بعقولهم وأفكارهم إلى صانعه وخالقه، ولا يدركون الحكمة من وراء الخلق ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧].

ولذلك لم ينتفعوا بالآيات الكونية ؛ لأنهم لم ينظروا إليها من خلال المنظار القرآني: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

ولذلك فإن القرآن ينكر على الكافرين والجاحدين تركهم النظر والاعتبار ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

٥- العلوم الحديثة تقطع الوشيجة بين الناس والكون

يقول سيد قطب - رحمه الله -: «إن مناهج البحث التي يسمونها «علمية» في هذا الزمان تقطع ما وصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه.

فالناس قطعة من هذا الكون لا تصح حياتهم ولا تستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون، وإلا حين تقوم وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير، وكل معرفة بنجم من النجوم، أو فلك من الأفلاك، أو خاصة من خواص النبات والحيوان، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال، وما فيه من عوالم حية وجامدة -إذا كانت هناك عوالم جامدة- أو أي شيء واحد جامد في هذا الوجود !

كل معرفة «علمية» يجب أن تستحيل في الحال إلى إيقاع في القلب البشري، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون، وإلى تعارف يوثق أواصر الصداقة بين الناس والأشياء والأحياء، وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموحية المؤثرة في حياة البشر، هي معرفة ناقصة، أو علم زائف، أو بحث عقيم.

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح الذي يقرأ بكل لغة، ويدرك بكل وسيلة، ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة وساكن الكوخ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور، كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده، فيجد فيه زاداً من الحق، حين يطالعه بشعور التطلع إلى الحق، وهو قائم مفتوح في كل آن ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨].

ولكن العلم الحديث يطمس هذه التبصرة، أو يقطع الوشيجة بين القلب البشري والكون الناطق المبين، لأنه في رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة (المنهج العلمي)، المنهج الذي يقطع ما بين الكون والخلائق التي تعيش فيه.

والمنهج الإيماني لا ينقص شيئاً من ثمار «المنهج العلمي» في إدراك الحقائق المفردة، لكنه يزيد ربط هذه الحقائق المفردة بعضها ببعض، وردها

إلى الحقائق الكبرى، ووصل القلب البشري بها، أي وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة في مشاعر الناس وحياتهم، لا معلومات جامدة جافة متحيزة في الأذهان لا تفضي لها بشيء من سرّها الجميل، والمنهج الإيماني هو الذي يجب أن تكون له الكرة في مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التي يهتدى إليها، بهذا الرباط الوثيق..»[(١)].

٦- دلالة الخلق على صفات الخالق

إذا نظرنا إلى آلة دقيقة الصنع، بديعة التكوين، غاية في القوة والمتانة، تقوم بعملها على خير وجه، فلا بدّ أن ندرك بلا كثير تفكير أن صانعها يتصف بصفة الحياة والعلم ولديه قدرة وإرادة... إلى آخر تلك الصفات التي تنبئنا عنها الآلة.

وهذا الكون يشي ويعرّف بكثير من صفات الخالق، فمن ذلك:

قدرته وعلمه: هذا الكون الهائل الضخم الشاسع الواسع السائر وفق نظام دقيق لا بدّ أن يكون صانعه قديراً عليماً، والله خلق الخلق بهذا التكوين الهائل وهذا النظام الكامل ليعرفنا بقدرته وعلمه ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

ولا بد أن يكون العلم الذي يحكم هذا الكون شاملاً كاملاً ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

(١) في ظلال القرآن: تفسير سورة (ق)، آية ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾.

وهو حكيم: فالنظر في هذا الكون يشي بأنّه محكم متقن قد وضع كلّ شيء منه في موضعه المناسب، وخُلق بالمقدار المناسب، في غاية الجودة والإتقان ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة: ٧].

ولذلك فإن الناظر المتبصر في خلق الله لا يرى إلا الكمال والإتقان، ولو بحث عن عيب في الخلق لأعجزه ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣-٤].

صفات أُخرى: ما ذكرناه من دلالة الخلق على بعض صفات خالقه أردنا به التمثيل، لا الحصر والاستقصاء، وهو تمثيل يفتح الباب للاستدلال والبحث، وإلا ففي الكون الكثير من الآيات الدالة على عظمة الله وعزته ولطفه، واستمع إلى الصفات الإلهية التي ذكرها الله في ختام كلّ آية من الآيات التالية ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ۞ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحج: ٦٣-٦٥].

٧- الله وحده المستحق للعبادة

الهداية التي يجلبها النظر والتفكر في الآيات الكونية توجه إلى عبادة الله وحده، فالله وحده هو الخالق المدبر المقيم للسموات والأرض الرازق المحيي المميت...؛ لذلك فهو المستحق للعبادة دون سواه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ ٱلَّذِى

﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

وبهذا الطريق - كما سبق - أثبت القرآن بطلان الآلهة المدعاة وعدم استحقاقها شيئاً من العبادة ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١٠-١١].

ولذلك فإنّه يذكّر خلقه بالآيات الكونية وتصريفه الأمور وتدبيره الشؤون ثم يعقب على ذلك في كثير من آي القرآن بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ [الزمر: ٦] أي ذلكم الإله الذي يستحق العبادة دون سواه.

استمع إلى هذه الآيات وتأمل التعقيب عليها: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ * خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٥-٦]

المطلب الثاني: العلماء يبينون عجائب صنع الله في خلقه

وكان العلماء ولا يزالون يبينون عجائب صنع الله في خلقه، ويعظون أنفسهم بذلك، كما يعظون غيرهم، وسننقل طرفاً مما توصل إليه العلماء في هذا المجال في القديم والحديث.

وأحب أن يضع القارىء نصب عينيه وهو يقرأ هذه المقتطفات قول موسى لفرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. فالله أعطى كل شيء خلقه الذي يناسبه، وهداه لما فيه صلاحه..، وسنرى نماذج من هذا الإعطاء وتلك الهداية.

١ - تكون الأجسام من الخلايا وانقسامها

أ - مم تتكون أجسام الأحياء وكيف؟

يقول باحث معاصر هو الدكتور يوسف عز الدين مجلياً هذا الموضوع: «معظم الحيوانات والنباتات تتكون من عدد هائل من تلك الوحدات الدقيقة الحجم التي نسميها (الخلايا)، كما يتكون المبنى من مجموعة من الأحجار المرصوصة».

ب - لماذا تنقسم الخلايا دائماً؟

ويتابع الدكتور يوسف عز الدين كلامه مبيناً السر في انقسام الخلايا فيقول: «وخلايا أجسامنا وأجسام غيرنا من الحيوانات دائمة الانقسام، وذلك الانقسام قد يكون لنمو الجسم، أو لتعويض ما يفقد أو يموت من الخلايا لأسباب عديدة. وكلّ خلية من هذه الخلايا تتكون أساساً من مادة عجيبة نطلق عليها اسم «البروتوبلازم».

وتوجد بداخل كل خلية محتويات عديدة ذات وظائف محددة، ومن هذه

المحتويات أجسام دقيقة تحمل عوامل وراثية هي التي نطلق عليها اسم «الكروموسومات».

وعدد هذه «الكروموسومات» ثابت في خلايا كلّ نوع من أنواع الحيوانات والنباتات المختلفة، فعددها في خلايا القط - مثلاً - يختلف عن عددها في خلايا الكلب أو الفيل أو نبات الجزر أو الفول.

وفي كل خليّة من الخلايا التي يتكون منها جسم الإنسان يوجد ستة وأربعون من هذه (الكروموسومات).

وعندما تنقسم الخلية إلى خليتين داخل أجسامنا فإنّ كلّ خلية جديدة لا بدّ أن تحتوي على العدد نفسه من (الكروموسومات)، وهي ستة وأربعون، إذ لو اختل هذا العدد لما أصبح الإنسان إنساناً. والخلايا كما ذكرت دائمة الانقسام، يحدث هذا في جميع ساعات اليوم حتى في أثناء نومنا، ونحن حتى الآن لا ندرك حقيقة القوى المهيمنة على هذه العملية المذهلة: عملية انقسام الخلايا، بل يكتفي العلم بوصف الخطوات العملية التي يمكن ملاحظتها تحت عدسات (الميكروسكوب) العادي أو عن طريق (الميكروسكوب الإلكتروني) الذي يكبر الأشياء تكبيراً أكثر بكثير من تكبير الميكروسكوب العادي».

جـ - لماذا تختلف الخلايا التناسلية عن غيرها؟

وذكر الدكتور يوسف: «أن جميع الخلايا الناتجة عن عمليات الانقسام في جسم الإنسان لا بدّ أن تحتوي على ستة وأربعين (كروموسوماً) فيما عدا نوعين من الخلايا، هما الخلايا التناسلية، أي الحيوان المنوي في الذكر والبويضة في الأنثى، وعندما تنقسم خلايا الأنسجة لتكوين هذه الخلايا التناسلية فإنها تنتج خلايا لا تحتوي على الستة والأربعين (كروموسوماً)، بل تحتوي على نصف هذا العدد، أي يصبح في كل خلية تناسلية ذكرية أو أنثوية ثلاثة وعشرون (كروموسوماً) فقط».

ثم بين لماذا يحدث ذلك، فقال: «يحدث هذا لحكمة بالغة ولهدف عظيم، إذ إنّ الخلية الذكرية (الحيوان المنوي) لا بدّ أن تندمج مع الخلية الأنثوية (البويضة) لتكوين أول خلية في جسم الجنين، وهي التي نطلق عليها اسم (الخلية الملقحة)، حيث ينضم الثلاثة والعشرون (كروموسوماً) التي في الخلية الذكرية إلى الثلاثة والعشرين (كروموسوماً) التي في الخلية الأنثوية لكي يعود عدد (الكروموسومات) في الخلية الجديدة إلى العدد الأصلي، وهو ستة وأربعون (كروموسوماً).

وهذه الخلية الملقحة التي أصبحت تحتوي على ستة وأربعين (كروموسوماً) توالي انقسامها، فتصبح خليتين، ثم أربع خلايا، ثم ثماني خلايا وهكذا، حتى يتم تكوين الجنين الذي يخرج من رحم أمه، ويستمر نموه عن طريق انقسام الخلايا حتى يصبح إنساناً كامل النمو في كلّ خلية من خلاياه ستة وأربعون (كروموسوماً) كما هو الحال في خلايا جسد أبيه وأمه وأجداده وجميع أفراد الجنس البشري».

«إنَّ اختزال عدد (الكروموسومات) إلى النصف عند تكوين الخلايا التناسلية بالذات لكي تندمج فيعود العدد الأصلي (للكروموسومات) في الخلايا لا يمكن مطلقاً أن يكون نتيجة مصادفة عمياء، بل لا بدّ أن يكون نتيجة تقدير دقيق من قوة عليا تعلم ماذا تفعل.

وهي في الوقت نفسه لا يمكن أن تخضع للتجربة واحتمال الخطأ، إذ لو حدث خطأ مرة واحدة عند بدء الخلق لقضي على الكائن الحي قبل تكوين الجيل الثاني. أي أنّ هذا الترتيب لا بد أن يكون قد تم منذ تكوين أول جنين ظهر في الوجود، ألا يكفي هذا وحده دليلاً على وجود قوة عليا مدبرة مقدرة حكيمة؟».

د - لماذا لا تنقسم خلايا المخ؟

أما النوع الآخر من الخلايا التي تخالف بقية خلايا الجسم فهي خلايا الدماغ، وهي تخالف بقية الخلايا في كونها لا تنقسم، وعن السر في عدم

انقسامها يقول الدكتور يوسف عز الدين:

« لا يمكن أن يكون عن طريق التجربة واحتمال الخطأ والصواب أن الخلايا الوحيدة التي لا تنقسم هي الخلايا العصبية التي يتكون منها المخ وباقي الجهاز العصبي، لو انقسمت كما يحدث لباقي الخلايا لحدثت كارثة مروعة، إنّ خلايا المخ في هذه الحالة لن يمكنها الاحتفاظ بشخصية الإنسان، وسوف تتلاشى جميع معالم الذاكرة في خلال ساعات قلائل.

إنَّ عدد خلايا المخ عند ولادة الإنسان أو أي حيوان آخر لا تزيد عليها خلية واحدة حتى وفاته، بينما نجد أنّ الكرات الدموية الحمراء التي تسبح في الدم، ما هي إلا خلايا تموت، ويحلّ محلها خلايا جديدة كلّ نحو مائة يوم. وتتكون الخلايا الحمراء (الكرات الحمراء) في نخاع العظام، ثم تنطلق لكي تسبح في تيار الدم ؛ لتحل محل الخلايا التي استهلكت ».

هـ- السر في تفاوت قوة عضلات الجسم.

ويتحدث الدكتور عن هذا الموضوع فيقول: « أقوى عضلات في جسم الإنسان أو الحيوانات الثدية هي عضلات الرحم عند الأنثى، تلك التي تدفع الجنين ليخرج من بطن أمه، إذ لو لم تكن هذه العضلات بهذه القوة منذ بدء خلق الإنسان أو غيره من الحيوانات لما خرج إلى الوجود أول جنين من بطن أمه.

وتلي عضلات الرحم في القوة عضلات القلب والفكين، فعضلات القلب لا بد أن تكون قوية لتصمد للعمل ليلاً ونهاراً لدفع الدم إلى الأوعية الدموية لمدة قد تطول لأكثر من مائة عام، وكذلك الحال في عضلات الفكين التي ينبغي أن تظلّ قادرة على دفع الأسنان لينطبق بعضها على بعض لكي تمضغ أطناناً من الطعام طوال حياة الإنسان ».

٢- مقاومة الأحياء لعوامل الفناء

ويقرر الدكتور يوسف: «وجود صفة مهمة تشترك فيها جميع الكائنات الحيّة من أدناها إلى أرقاها، هذه الصفة هي مقاومة عوامل الفناء، إذ إنّ خالق جميع هذه الكائنات يريد لها البقاء.

إنَّ (فيروس الأنفلونزا) يتشكل من آنٍ لآخر بأشكال مختلفة ؛ لتصعب مقاومته والقضاء عليه، والحشرات مع توالي الأجيال تكتسب مناعة ضدّ المبيدات الكيميائية؛ لكي تقاوم عوامل الفناء وانقراض الجنس.

بل في الإنسان نفسه لوحظ كثرة الإنجاب في فترات الحروب، كما لوحظ أنّ أية سيدة تواظب على تناول حبوب منع الحمل مدة طويلة ثم تسهو عن تناولها بعض الأيام - فإنّ النتيجة في معظم الأحيان تكون إنجاب عدة توائم ؛ لتعويض النقص في الذرية الذي حدث في أثناء فترة الامتناع عن الحمل. وإذا استأصل الإنسان إحدى الكليتين لسبب من الأسباب فإنّ الكلية الباقية يزداد حجمها وتؤدي عمل الكليتين، وكأن في الجسم عقلاً يدرك به ما حدث من نقص فيسرع لتعويضه.

الله وحده هو الذي زود هذه المخلوقات بهذه القدرة العجيبة على التوازن حتى لا تنقرض وتتعرض للفناء، كما زود العديد من الحيوانات بوسائل للدفاع عن أنفسها لا يختلف في ذلك الإنسان عن العقرب أو الثعبان أو أم أربعة وأربعين أو غيرها.

لا يمكن أن يكون هذا المبدأ أو القانون الذي يسود جميع الكائنات الحية من صنع مصادفة عمياء تتخبط في الظلام، إذ إنّ المصادفة لا يمكن أن تتخذ مظهر قانون عام تخضع له جميع الكائنات».

٣- هداية النحل وشيء من عجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم[١] رحمه الله تعالى عن بدائع صنع الله في خلقه، مبيناً هداية الله للنحل في أمور معاشه: «وأمر النحل في هدايتها من أعجب العجب وذلك أن لها أميراً ومدبراً، وهو اليعسوب، وهو أكبر جسماً من جميع النحل، وأحسن لوناً وشكلاً.

وإناث النحل تلد في إقبال الربيع[٢]، وأكثر أولادها يكنّ إناثاً، وإذا وقع فيها ذكر لم تدعه بينها، بل إما أن تطرده، وإما أن تقتله، إلا طائفة يسيرة منها، وذلك أن الذكور منها لا تعمل شيئاً ولا تكسب.

والنحل تقسم فرقاً فرقاً، فمنها فرقة تلزم الملك، ولا تفارقه، ومنها فرقة تهيىء الشمع وتصنعه، والشمع هو ثفل العسل، وفيه حلاوة كحلاوة التين، وللنحل فيه عناية شديدة فوق عنايتها بالعسل، فينظفه النحل، ويصفيه، ويخلصه مما يخالطه من أبوالها وغيرها، وفرقة تبني البيوت، وفرقة تسقي الماء، وتحمله على متونها، وفرقة تكنس الخلايا وتنظفها من الأوساخ والجيف والزبل، وإذا رأت بينها نحلة مهينة بطالة قطعتها وقتلتها حتى لا تفسد عليهن بقية العمال، وتعديهن ببطالتها ومهانتها.

وأول ما يبنى في الخلية مقعد الملك وبيته، فيُبنى له بيت مربع يشبه السرير والتخت، فيجلس عليه، ويستدير حوله طائفة من النحل يشبه الأمراء والخدم والخواص، لا يفارقنه، ويجعل النحل بين يديه شيئاً يشبه الحوض يصب فيه

---

(١) شفاء العليل: ١٠١، وما نقلناه عن ابن القيم يدلنا على أن السلف الصالح كانوا يعنون بالتأمل في خلق الله، ويدلنا على أن ملاحظة العلماء المسلمين بلغت مبلغاً كبيراً، إلا أنها لم تخل من أخطاء، فالنحل ليس له ملك بل ملكة.

(٢) الذي يبيض من النحل ملكة النحل فحسب.

من العسل أصفى ما يقدر عليه، ويملأ منه الحوض، ويكون ذلك طعاماً للملك وخواصه.

ثم يأخذن في ابتناء البيوت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحال، وتبني بيوتها مسدسة متساوية الأضلاع، كأنها قرأت كتاب إقليدس، حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها ؛ لأنّ المطلوب من بناء الدور هو الوثاقة والسعة، والشكل المسدس دون سائر الأشكال إذا انضمت بعض أشكاله إلى بعض صار شكلاً مستديراً كاستدارة الرحى، ولا يبقى فيه فروج ولا خلل، ويشد بعضه بعضاً، حتى يصير طبقاً واحداً محكماً، لا يدخل بين بيوته رؤوس الإبر.

فتبارك الذي ألهمها أن تبني بيوتها هذا البناء المحكم الذي يعجز البشر عن صنع مثله، فعلمت أنها محتاجة إلى أن تبني بيوتها من أشكال موصوفة بصفتين: إحداهما: أن لا تكون زواياها ضيقة حتى لا يبقى الموضع الضيق معطلاً. والثانية: أن تكون تلك البيوت مشكلة بأشكال إذا انضم بعضها إلى بعض، وامتلأت العرصة منها فلا يبقى منها ضائعاً، ثم إنها علمت أن الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط ؛ فإن المثلثات والمربعات، وإن أمكن امتلاء العرصة منها إلا أن زواياها ضيقة، وأما سائر الأشكال وإن كانت زواياها واسعة إلا أنها لا تمتلىء العرصة منها، بل يبقى فيما بينها فروج خالية ضائعة، وأما المسدس فهو موصوف بهاتين الصفتين، فهداها - سبحانه - إلى بناء بيوتها على هذا الشكل من غير مسطرة ولا آلة، ولا مثال يحتذى عليه، وأصنع بني آدم لا يقدر على بناء البيت المسدس إلا بالآلات الكبيرة.

فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها وتأتيها ذللاً لا تستعصي عليها، ولا تضل عنها، وأن تجتني أطيب ما في المراعي وألطفه، وأن تعود إلى بيوتها الخالية، فتصب فيها شراباً مختلفاً ألوانه، فيه شفاء للناس، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصاً تسيح سهلاً وجبلاً، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار، فترجع بطاناً.

وجعل - سبحانه - في أفواهها حرارة منضجة تنضج ما جنته، فتعيده حلاوة ونضجاً، ثم تمجه في البيوت، حتى إذا امتلأت ختمتها، وسدت رؤوسها بالشمع المصفى، فإذا امتلأت تلك البيوت عمدت إلى مكان آخر إن صادفته، فاتخذت فيه بيوتاً، وفعلت كما فعلت في البيوت الأولى، فإذا برد الهواء، وأخلف المرعى، وحيل بينها وبين الكسب، لزمت بيوتها، واغتذت بما ادخرته من العسل، وهي في أيام الكسب والسعي تخرج بكرة وتسيح في المراتع، وتستعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها.

وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادراً إذا اشتهى التنزه، فيخرج، ومعه أمراء النحل والخدم، فيطوفُ في المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار، ثم يعود إلى مكانه.

ومن عجيب أمره أنه ربما لحقه أذى من النحل أو من صاحب الخلية أو من خدمه، فيغضب ويخرج من الخلية، ويتباعد عنها، ويتبعه جميع النحل، وتبقى الخلية خالية.

فإذا رأى صاحبها ذلك، وخاف أن يأخذ النحل، ويذهب بها إلى مكان آخر احتال لاسترجاعه وطلب رضاه، فيتعرف موضعه الذي صار إليه بالنحل، فيعرفه باجتماع النحل إليه، فإنها لا تفارقه، وتجتمع عليه حتى تصير عليه عنقوداً، وهو إذا خرج غضباً جلس على مكان مرتفع من الشجرة، وطافت به النحل، وانضمت إليه، حتى يصير كالكرة، فيأخذ صاحب النحل رمحاً أو قصبة طويلة، ويشد على رأسه حزمة من النبات الطيب الرائحة العطر النظيف، ويدنيه إلى محل الملك، ويكون معه إما مزهر أو يراع أو شيء من آلات

الطرب فيحركه، وقد أدنى إليه ذلك الحشيش، فلا يزال كذلك إلى أن يرضى الملك، فإذا رضي وزال غضبه طفر ووقع على الضغث، وتبعه خدمه وسائر النحل، فيحمله صاحبه إلى الخلية، فينزل ويدخلها هو وجنوده، ولا يقع النحل على جيفة ولا حيوان ولا طعام.

ومن عجيب أمرها أنها تقتل الملوك الظلمة المفسدة،ولا تدين لطاعتها، والنحل الصغار المجتمعة الخلق هي العسالة، وهي تحاول مقاتلة الطوال القليلة النفع وإخراجها ونفيها عن الخلايا، وإذا فعلت ذلك جاد العسل، وتجتهد أن تقتل ما تريد قتله خارج الخلية صيانة للخلية عن جيفته.

ومنها صنف قليل النفع كبير الجسم، وبينها وبين العسالة حرب، فهي تقصدها وتغتالها وتفتح عليها بيوتها، وتقصد هلاكها، والعسالة شديدة التيقظ والتحفظ منها، فإذا هجمت عليها في بيوتها حاولتها وألجأتها إلى أبواب البيوت فتتلطخ بالعسل، فلا تقدر على الطيران، ولا يفلت منها إلا كلّ طويل العمر، فإذا انقضت الحرب وبرد القتال عادت إلى القتلى، فحملتها وألقتها خارج الخلية.

وفي النحل كرام عمال لها سعي وهمة واجتهاد، وفيها لئام كسالى قليلة النفع مؤثرة للبطالة، فالكرام دائماً تطردها وتنفيها عن الخلية، ولا تساكنها خشية أن تعدي كرامها وتفسدها.

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه، ولذلك لا تلقي زبلها إلا حين تطير، وتكره النتن والروائح الخبيثة، وأبكارها وفراخها أحرس وأشد اجتهاداً من الكبار، وأقل لسعاً وأجود عسلاً، ولسعها إذا لسعت أقل ضرراً من لسع الكبار.

ولما كانت النحل من أنفع الحيوان وأبركه فقد خصت من وحي الرب تعالى وهدايته بما لم يشركها فيه غيرها، وكان الخارج من بطونها مادة الشفاء من

الأسقام والنور الذي يضيء في الظلام بمنزلة الهداة من الأنام كان أكثر الحيوان له أعداء ؛ وكان أعداؤه من أقل الحيوان منفعة وبركة، هذه سنة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم»[١].

الباحثون المعاصرون يتحدثون عن عالم النحل[٢]

تقدم العلم اليوم، وبتقدمه تعرفنا على كثير من عجائب الخلق وأسرار الكون، لقد أكد لنا العلماء ما عرفناه من قبل من أن عالم النحل ينقسم إلى ثلاثة أقسام: النحلة الملكة، والنحلة الذكر، والنحلة الشغالة.

أما ملكة النحل فهي أم الخلية كلها، وجميع النحل في الخلية أبناؤها، ويكفي أن تعلم أن الملكة تضع في كل يوم تطلع فيها الشمس ما بين (١٥٠٠) بيضة إلى (٢٠٠٠) بيضة، بل يزيد العدد إلى (٣٥٠٠) بيضة. ويستمر هذا على امتداد موسم التكاثر الذي يبدأ من إقبال الربيع، وينتهي بانتهاء الصيف.

وما هذا العدد الهائل من البيض إلا لمواجهة النقص المستمر الذي يصيب خلية النحل، فالنحلة عمرها قصير، فهو يتراوح بين خمسة أسابيع وسبعة أسابيع، ولذلك فإنّ الخلية تحتاج إلى أجيال جديدة ترفد الخلية بأعداد كبيرة تواجه النقص الذي يلحق بها، كي تستمرّ الخلية في القيام بالواجبات التي يحتاج إليها عالم النحل، وحتى تستطيع الدفاع عن نفسها في مواجهة الأعداء والأخطار، ولولا ذلك لانقرضت الخلية وبادت.

ومن بديع صنع الله في ملكة النحل أنها تضع بيضها في البيوت التي تبنيها

---

(١) شفاء العليل: ص١٠١.

(٢) المعلومات التي أوردناها في هذا المبحث مأخوذة من كتاب: «النحلة تسبح الله»، لمحمد حسن حمصي، ولكن بتصرف كثير في الصياغة، والتقديم والتأخير والاختصار.

الشغالة بمقاسات مختلفة، فالمقاس الكبير يعده النحل لملكة المستقبل، والبيضة التي تضعها الملكة فيه تكون ملكة، والبيضة التي تضعها الملكة في البيت الأصغر حجماً ومقاسه ربع إنش تصبح نحلة ذكراً، أما البيضة التي تضعها في البيت الصغير ومقاسه خمس إنش فتنتج نحلة شغالة، بقي أن نعلم أن الملكة تضع مع بيضة النحلة الشغالة ثلاثة إلى أربعة حيوانات منوية لإخصابها، فتكون نحلة شغالة، بينما تضع، في بيت النحلة الذكر بيضة غير مخصبة.

ومن عجيب صنع الله في النحلة الملكة أنها لا تُلقّحُ إلا في الهواء في أثناء طيرانها، ولذلك سرّ عجيب، فالنحلة الذكر لا يمكنها تلقيح الملكة وهي رابضة على الأرض، ذلك أن عضو التذكير عندها كامن، ولا يمكن ظهوره إلا إذا حلقت في الفضاء، وعند ذلك تمتلىء أكياس موجودة في النحلة الذكر بالهواء، فتنتفخ في أثناء الطيران، ويؤدي انتفاخها إلى الضغط على عضو التذكير، فيخرج من مكمنه.

ومن عجائب صنع الله في الملكة العذراء قدرتها على دعوة الذكر لتلقيحها، وذلك بأصوات تصدرها تدعو بها الذكور إليها، وتخرج من خليتها حائمة حولها مصدرة تلك الأصوات، وتستقبل الذكور هذه الدعوة لا في الخلية وحدها، بل في جميع الخلايا المجاورة، وتنطلق أسراب الذكور خلف الملكة، وهي تغذ السير منطلقة في الفضاء الرحب، ويفوز بتلقيحها أقوى الذكور وأشدها وأسرعها، ولكنه يفقد حياته بعد ذلك، ذلك أنه بعد تلقيحه الملكة يفقد عضو تذكيره، إذ يبقى عضوه فيها مما يسبب له نزيفاً يفقده حياته.

ويسأل القارىء عن كيفية سماع الذكور لدعوة الملكة، والجواب: أن الله زود كل نحلة بقرني استشعار، وهذان القرنان يتألفان من حلقات متصل بعضها ببعض، عليها عدد كبير من الثقوب، ويبلغ عدد الحلقات في الذكر اثنتا عشرة حلقة، في حين أن عددها في الشغالة أو الملكة إحدى عشرة حلقة.

وتبلغ عدد ثقوب الحواس الكائنة على قرن الاستشعار عند الذكر (٢٨٠٠) ثقبٍ، وفي الشغالة (٢٤٠٠)، وفي الملكة (١٦٠٠).

والحقيقة أن قرني الاستشعار في النحلة بمنزلة هوائي الإذاعة يستخدمه لالتقاط الأصوات الصادرة من الملكة، ولغير ذلك من الأصوات، كما تستخدمه في الشم والسمع واللمس.

وإذا فقدت النحلة الشغالة أو الذكر أو الملكة قرني الاستشعار فإنها لا تستطيع أن تقوم بدورها، ففيه يتركز معظم حواسها: السمع والشم واللمس كما سبق.

وتكوين النحلة الذكر يتناسب مع المهمة التي خلق من أجلها، فهو كبير قوي، يأكل كثيراً، ولا يعمل شيئاً، فلا يجمع الرحيق، ولا يصنعه، ولا يبني، ولا يحرس، حتى طعامه، تضعه النحلة الشغالة في فمه، كل ما يستطيع القيام به هو تلقيح الملكة، ولذا فإن النحلة الشغالة بعد انتهاء مهمته تمتنع عن إمداده بالغذاء، وأكثر من هذا تهاجم الشغالة الذكور فتقتلها أو تطردها.

بقي أن نعلم أن عدد الذكور من النحل قليل بالنسبة لتعداد النحل، فلا يتجاوز عددها في الخلية الواحدة المائتين.

أما النحلة الشغالة فإنها تكون العدد الأكثر في الخلية، كما أنها العنصر الفعال فيها، وهي التي تقوم بالأعمال المختلفة، والمهمات الصعبة.

فهي التي تجني الرحيق، وتجمع غبار الطلع، وتصنع العسل، وتمدّ الملكة بغذائها الخاص، وتبني الأقراص التي يحفظ فيها العسل، وتربي فيها الأجيال الجديدة من النحل، وتحرس الخلية، وتقوم بتنظيفها، والمحافظة عليها، بل تقوم بتهويتها وتدفئتها.

والمهمات في الخلية موزعة في تخصصات وهذه التخصصات ترتبط بعمر النحلة، فلكل سن من النحل عمل يقوم به، وكلما امتد العمر بالنحلة فإنها تتحول إلى عمل آخر، وبذلك تقوم النحلة بعد أن تستكمل عمرها بالمرور على كل الأعمال والمهمات التي تحتاج إليها الخلية، ويلاحظ أن النحلة تبدأ بالأعمال السهلة التي لا تحتاج إلى جهد كبير، وتنتهي إلى أشق الأعمال وأصعبها وهي الجولان في الحقول، وجني الرحيق وغبار الطلع والماء، ثم صنع العسل وتخزينه، ونلاحظ أيضاً أنها تتدرج في الوظائف بحسب تكامل الخصائص التي يهبها الله إياها، فكل مهمة تصير إليها وتعمل فيها تتواءم مع تكامل أجهزتها التي تمكنها من القيام بالدور الجديد والمهمة الجديدة.

فالنحلة الشغالة في يومها الأول والثاني تقوم بمهمة تنظيف البيوت التي خرجت منها أجيال النحل التي تكامل خلقها، فتنظف هذه البيوت، وتعدها لأجيال أخرى، ولا تضع الملكة البيض في هذه البيوت إلا بعد أن تتفحصها وتجدها نظيفة تماماً.

وفي يومها الثالث والرابع تقوم بدور الحاضنة ليرقات النحل الشغالة والذكور التي يزيد عمرها على ثلاثة أيام، فتقدم لها ما يسميه العلماء (بخبز النحل) وهو مزيج من العسل وحبوب اللقاح، تأخذه مما خزنته النحل في العيون السداسية.

وبعد اليوم الخامس حتى اليوم الثاني عشر من عمر النحلة تقوم بتغذية النحلة الملكة بالغذاء الملكي طيلة عمرها، كما تمدّ بهذا الغذاء الفاخر صغيرات الشغالة والذكور في يومهن الأول والثاني والثالث، والنحل يقوم بهذه المهمة في هذه السن (٥ - ١٢) لنمو غدد خاصة في هذه الفترة في جانبي البلعوم، تتمكن بها النحل من صناعة الغذاء الملكي.

وبعد اليوم الثاني عشر تتمكن النحلة من الطيران، ولكنها لا تذهب بعيداً،

كل ما تفعله أن تتعلم وتتمرن، ومهمتها الرئيسية من اليوم الثاني عشر إلى اليوم الثامن عشر هو بناء الأقراص الشمعية التي تعد لتخزين العسل، وتربية أجيال النحل الجديدة.

والسبب في تخصصها بهذا الدور في هذه السن هو نمو أربعة أزواج من الغدد الموجودة على حلقات البطن، ومن هذا الشمع تقوم النحلة باستخدام فكيها في هذه السن ببناء تلك البيوت التي بلغت الغاية في الدقة والاتقان بأبعاد محددة وأشكال هندسية في غاية الروعة والتنظيم.

وفي اليوم التاسع عشر واليوم العشرين تقوم النحلة بتنظيف الخلية وحراستها، وبعد اليوم العشرين تقوم النحلة بالانطلاق إلى الحقول وجمع الرحيق وغبار الطلع وصنع العسل، وجلب الماء إلى الخلية، وهذه المرحلة الأخيرة تمثل الجزء الأكبر من عمر النحلة.

أجيال تذهب من النحل، وأجيال تأتي، ويترقى النحل في سلسلة متوالية من الأعمال تضمن القيام بالأعمال كلها باستمرار من غير أن تتخصص طائفة من النحل بعمل طيلة عمرها، ولكن التخصص يأتي في كل مرحلة من مراحل العمر.

سبحان الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي خلق هذه الكائنات الصغيرة، وعلمها أن تقوم بهذه الأعمال بمثل هذه الدقة والإتقان، إنه إبداع وإعجاز يدل على العليم الخبير.

ومن الإبداع الإلهي في النحلة هذا التكوين الذي أعطاه الله إياها، فقد جعل لها الباري سبحانه معدتين، إحداهما تستعملها لجمع المواد الأولية التي تستخلصها من رحيق الأزهار، أو تحمل بها الماء، وتنقله إلى الخلية، والمعدة الأخرى مخصصة للطعام الذي تهضمه وتتغذى به.

ومن عجب أن النحلة إذ تجمع في معدتها الأولى ما تجنيه من الرحيق، لا تكتفي بنقله، ولكنها في أثناء حملها له وتوصيله للخلية تقوم بعملية أولية لتحويله إلى العسل، وذلك بإفراز الخمائر اللازمة لتحقيق ذلك.

والنحلة تحتاج إلى غبار الطلع لأمور مختلفة في الخلية، وقد زودها خالقها بتجويف خاص لخزن هذه الحبوب في الوجه الخارجي لساق الرجل الخلفية، تسمى سلة الطلع، وجعل لها على الوجه الداخلي لرسغ الرجل الخلفية ما يشبه الفرشاة تستعملها الشغالة في تمشيط غبار الطلع وتكتيله تمهيداً لجمعه في سلة الطلع.

ومن العجائب المذهلة التي اكتشفها العلماء في النحلة، تلك الغدة التي في مؤخرة البطن، وقد سماها العلماء (غدة ناسانوف)، وهذه الغدة تفرز رائحة خاصة، ومن العجيب أن نحل كل خلية يتعارف على رائحة تميز نحلها عن غيره، وتستطيع النحلة أن تعود إلى بيتها من مكان بعيد تهديها تلك الرائحة المميزة عن رائحة غيرها من النحل، وبوابو الخلية وحراسها يعرفون النحلة التي تتبع الخلية عن طريق تلك الرائحة المميزة المنبعثة من النحلة.

والعجب أن النحل قادر على التعارف على رائحة جديدة عندما يحصل ما يستدعي ذلك، فمثلاً عندما تخرج طائفة من النحل لتشكل خلية جديدة، فإن الخلية الجديدة تتعارف على رائحة جديدة، وعندما مزج العلماء بطريقة علمية طائفة من النحل مع طائفة أخرى وجدوا أن النحل بعد دمجه تعارف على رائحة واحدة جديدة تميزه عن غيره.

ومن عجائب هداية النحل أنه يبني جدران البيوت السداسية من الشمع الخالص الذي لا ينفذ منه الهواء، ولكنه عندما يغلق أبواب البيوت التي تحوي يرقات النحل يخلط الشمع بحبوب اللقاح، وبهذا يتسرب الهواء من خلال

حبوب اللقاح، فتبقى اليرقات حيّة، ولو لم يهدها ربها إلى ذلك لماتت اليرقات، وزال النحل من فوق ظهر البسيطة.

وقد حدثنا ربنا فيما حدثنا عنه من آياته الباهرة التي تستدعي التأمل والتفكر إلى هدايته العجيبة للنحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ* ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩].

وقد اهتدى المسلمون للمنافع العظيمة التي في العسل، ولكن الضالون عن هدى الله لم يكتشفوا ما فيه من المنافع إلا في هذه الأيام، وقد اكتشف الباحثون حقائق مذهلة، فوجدوا أن العسل غذاء ودواء، وهو غذاء من نوع راق، يحوي على خصائص لا تكاد توجد في غيره، ووجدوا أنه علاج يكاد يصلح لجميع أنواع الأمراض، ولا يزال العلم يكتشف في كل يوم في العسل نفعاً جديداً.

كيف يدل النحل بعضه بعضاً على مكان الغذاء؟

مما لاحظه العلماء المعاصرون الطريقة التي يدل بها النحل بعضه بعضاً على مكان الغذاء، يقول الدكتور يوسف عز الدين: «لو اكتشف أحد عمال النحل حقلاً أو كمية من النباتات تعتبر مصدراً للغذاء، فإنّه يعود للمستعمرة ليخبر باقي العمال عن هذا الكنز الذي اكتشفه، وذلك عن طريق طقوس رقص عجيبة تفعلها النحلة بطريقة غريزية دون أن تدري لماذا تفعل هذا.

إنها ترقص رقصات غريبة ذات مدلولات معينة، إذ إن جسمها يصنع في أثناء الرقص زاوية تدل على زاوية الشمس، وإذا كان الحقل الذي اكتشفه قريباً من المستعمرة فإنّ الرقصة في هذه الحالة تختلف عنها في حالة بُعد الحقل

مسافة أطول.

ومن هذه الرقصات يفهم النحل أنّ حقلاً من البرسيم أو غيره من النباتات ذات الأزهار التي يحضر النحل غذاءه منها، يقع على بعد معين، والطريق إليه يقتضي السير بزاوية معينة بالنسبة لمكان الشمس.

فيؤدي بعض العمال الرقصة نفسها، عند ذلك تطمئن النحلة التي اكتشفت الحقل إلى أنّ باقي النحل قد فهم ما تريد أن تقوله، فيطير باقي الأفراد، ويصلون مباشرة إلى ذلك الحقل لإحضار مزيد من الغذاء.

إنّ النحلة المكتشفة قد نقلت إلى النحل الذي في المستعمرة عدداً من المعلومات برقصتها، ولو حاولنا نحن البشر أن نتوصل إلى ما توصل إليه النحل من فهم لهذه الطلاسم عن طريق رسم بياني لاستغرق منا وقتاً لا يقل عن ثلث ساعة إن كان لدينا إلمام كاف بالعلوم الرياضية، ولكن النحل يفهم كلّ ذلك في الحال، ويطير نحو الحقل في خط مستقيم ليحضر ما يلزمه من غذاء.

شيء مذهل لا يمكن تفسيره إلا إذا آمنا بوجود نفحة إلهية أودعها خالق الكون في هذه الكائنات الصغيرة التي لا تملك قدراً من العقل أو قدرة على التفكير تمكنها من القيام بما يلزمها».

رؤية النحل ما لا نراه من الألوان

ويذكر لنا الدكتور يوسف أن من عجائب النحل رؤيته «لوناً لا نراه نحن البشر، ولا يمكن أن نتصوره، وهو اللون فوق البنفسجي الذي نراه نحن أسود، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية»، ثم يبين لنا الحكمة من وراء رؤية النحل لذلك اللون فيقول: «والحكمة في ذلك هي أن تلك الأشعة هي الوحيدة القادرة على اختراق السحاب.

والنحل قد يعيش في مناطق يكسوها السحاب معظم شهور السنة، ورؤية الشمس ضرورية لمعرفة مكان الحقول التي بها الغذاء، وهنا تكمن الحكمة في رؤية النحل لذلك اللون فوق البنفسجي، فإنها بذلك يصبح في إمكانها رؤية الشمس من خلال السحب، فلا يموت النحل جوعاً في حالة اختفاء الشمس خلف الغمام، حقيقة مذهلة تدلّ على وجود خالق مدبر ومقدر يعلم ما يصنع، إذ إن القدرة على رؤية ذلك اللون لا يمكن أن تكون قد اكتسبها النحل مع مرور الزمن، بل لا بد أن تكون قد وجدت منذ أول لحظة خلق الله فيها النحل، إذ لو لم توجد من أول الأمر، لانقرض النحل في تلك المناطق منذ أمد بعيد».

٤- هداية النمل وعجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم عن نوع آخر من مخلوقات الله، ويبين لنا هداية الله لها في معاشها فيقول:

«وهذا النمل من أهدى الحيوانات، وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها، وإن بعدت عليها الطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان.

فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين ؛ لئلا ينبت فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوماً ذا شمس فخرجت به، فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله - سبحانه - في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟

﴿مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨]، فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول، وهو خشية أن يصيبهم معرّة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية.

وتأمل كيف عظم الله - سبحانه - شأن النمل بقوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧]، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ﴾ [النمل:١٨]، فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروفٌ بالنمل كوادي السباع ونحوه، ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكناً لا يدخل عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل:١٨]، فجمعت بين اسمه وعينه، وعرفته بهما، وعرفت جنوده وقائدهم، ثم قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل:١٨] فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون وبين لوم أمة النمل حيث لم يأخذوا حذرهم، ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكاً من قولها، وإنه لموضع تعجب وتبسم.

وقد روى الزهري عن عبدالله بن عبدالله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ «نَهى عن قَتْلِ النمل والنحلة والهدهد والصرد»[1]، وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أنْ قرصتْك

(١) عزاه المجد ابن تيمية في المنتقى ص:٧٥٩ إلى أحمد وأبي داود وابن ماجه بلفظ: نهى رسول الله ﷺ عن قتل أربع: «النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد».

نملة أحرقت أمة من الأمم تُسبحُ! فهلا نملة واحدة!)[1].

وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير، قال: قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة حتى للنمل سادة.

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سمواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه، قال: (خَرج نَبيٌّ من الأنبياء بالناس يَسْتَسْقُون، فإذا هم بنملة رافعة قَوائِمها إلى السماء تدعو مُستلقية على ظهرها، فقال: ارجعوا فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم) ولِهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره.

وفي مسند الإمام أحمد: (أن سليمان بن داود خرج يستسقي، فرأى نملة مُستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقولُ: اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غنى عن سقياك ورزقك، فإما أن تُسقينا وترزقنا، وإما أن تهلكنا، فقال: ارجعوا فقد سُقيتُمْ بدعوة غَيركم).

ولقد حُدّثت أن نملة خرجت من بيتها، فصادفت شق جرادة، فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعتُ ذلك من الأرض، فطافت في مكانه فلم تجده، فانصرفوا وتركوها.

قال: فوضعته، فعادت تحاول حمله فلم تقدر، فذهبت، وجاءت بهم، فرفعته، فطافت فلم تجده فانصرفوا، قال: فعلت ذلك مراراً، فلما كان في المرة الأخرى استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها، وقطعوها عضواً عضواً، قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية فقال: هذا النمل فطرها الله - سبحانه - على قبح الكذب وعقوبة الكذاب.

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ١٥٤، ورقمه: ٣٠١٩، وانظر: ٦/ ٣٥٦، ورقمه: ٣٣١٨، ورواه مسلم: ٤/ ١٧٥٩، ورقمه: ٢٢٤١، والحديث مأخوذ من مجموع الروايات الواردة فيه.

والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل، ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأى حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء استحضر نملة، وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث حبات من الحنطة، فأمر بإلقائها في قارورة، وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركها سنة بعد ما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة، فوجد حبة ونصف حبة، فقال: أين زعمك؟ أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات.

فقالت: نعم، ولكن لما رأيتك مشغولاً بمصالح بني جنسك حسبت الذي بقي من عمري فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت، واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي، فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والعطية.

ومن حرصها أنها تكدّ طول الصيف، وتجمع للشتاء علماً منها بإعواز الطلب في الشتاء، وتَعَذّرِ الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها، وتجره إلى بيتها.

وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل إلا أن لها رائداً يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها غير مختلسة من الحب شيئاً لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة ويجعل حولها ماء أو يتخذ إناء كبيراً، ويملؤه ماء، ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذي يطيف به فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء، فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك.

وأحمى صانع مرة طوقاً بالنار ورماه على الأرض ليبرد. واتفق أن اشتمل الطوق على نمل، فتوجه في الجهات ليخرج، فلحقه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزاً له، وهو أبعد مكان من المحيط »[1] .

النمل الأبيض غذاؤه ومساكنه:

يحدثنا الأستاذ يوسف عز الدين: عما كشف العلم من أسرار هذا الكائن: « ومن الغرائز التي وهبها الله لمثل هذه الكائنات الضئيلة ما هو مذهل، يجعل كل ذي عقل من البشر يخرّ ساجداً للخالق العظيم.

على سبيل المثال ما نراه في مستعمرة نوع من الحشرات نطلق عليه اسم (النمل الأبيض)، تعيش هذه الحشرات أيضاً في مستعمرات، إذا زاد أفراد المستعمرة عن الحد المعقول بالنسبة لكمية الغذاء المتاحة، فإنّ هذه الحشرات تدرك هذه الحقيقة عن طريق الغريزة، فتبدأ الأفراد في التهام عدد كبير من البيض، وبذلك يسهم في حلّ مشكلة زيادة أفراد المستعمرة ومشكلة الغذاء، إذ أن التهام البيض يعتبر تغذية، وفي الوقت نفسه يقلل من عدد الذرية.

إنّ هذه الحشرات لا تدرك لماذا تفعل ذلك، ولكنّها النفحة الإلهية التي تلهمها لعمل ما لا يمكن أن تدركه من الأشياء التي تعود عليها بالفائدة وتجنبها الفناء.

هذه الحشرات نفسها تتغذى على الأخشاب وتلتهمها بشراهة، إذ في بعض الأماكن الموبوءة بها قد يتناول أفراد الأسرة طعامهم على منضدة الطعام، ثم يذهبون في الصباح لتناول إفطارهم، فيجدون تلك المنضدة قد تقوضت أركانها، وانهارت في ليلة واحدة.

---

(١) شفاء العليل، لابن القيم: ص١٠٤ .

وفي بعض جهات استراليا الموبوءة بتلك الحشرات المدمرة قد يسأل أحد السائحين وهو ناظر من نافذة القطار عن اسم القرية التي رآها على مدى البصر، فيعتريه الذهول عندما يخبرونه أن تلك القرية لا تضم آدميين، ولكنها المساكن التي أقامها النمل الأبيض ليعيش بها.

هذه المساكن ترتفع عن سطح الأرض عدة أمتار وتصنعها الحشرات من مادة غريبة، هي خليط من لعابها وبعض المواد الأخرى، وهي أقوى من الإسمنت المسلح، ولا يمكن أن تخترقها الحشرات أو يتسرب إليها الماء من خلال جدرانها، وبداخلها أنفاق متشعبة يعيش فيها النمل الأبيض.

وتستخدم هذه الحشرات للتخابر عن بعد نوعاً من الشيفرة تشبه شيفرة التلغراف، إذ تدق على جدران النفق برأسها عدة دقات فيفهم باقي النمل ما تريد عن طريق تلك الدقات الشفرية، تفعل ذلك دون أن تدري ماذا تفعل، إذ إنها تفعلها عن طريق الإلهام الإلهي المسمى الغريزة.

ولقد احتار العلماء فترة طويلة من الزمن في تفسير إمكان حياة مثل هذه الحشرات عن طريق الغذاء على الأخشاب، والخشب لا يحتوي على أية مواد عضوية قابلة للهضم، وأخيراً اكتشفوا السر.

لقد وجدوا في داخل الجهاز الهضمي لأفراد هذه الحشرات حيوانات دقيقة أولية يتكون جسمها من خلية واحدة، وهذه الحيوانات الأولية تفرز أجسامها إفرازات تحول الخشب إلى مواد غذائية قابلة للهضم هي التي تغذي النمل الأبيض.

ومن العجيب أنّه لم يحدث إطلاقاً أن اكتشفت نملة بيضاء واحدة تخلو أمعاؤها من هذه الحيوانات الأولية، ولو لم توجد هذه الحيوانات داخل أمعاء النمل الأبيض منذ بدء خلقها لما أمكنها الحياة، ولانقرضت منذ أول جيل من

أجيالها، هل من الممكن أن يحدث هذا عن طريق المصادفة أم هو شيء مقدر مدبر مرسوم؟»

النمل يربي المواشي ويفلح الأرض:

ومن عجائب النمل ما ذكره الدكتور يوسف عز الدين، فقد ذكر أن النمل استأنس مئات من الأجناس من الحيوانات الأدنى منه شأناً، بينما لم يستأنس الإنسان سوى نحو عشرين من الحيوانات الوحشية التي سخرها لمنفعته ومتعته، ولقد عرف النمل الزرع والرعي عن طريق الغريزة.

إنَّ حشرات المن التي يطلق عليها أحياناً اسم (قمل النبات) التي نراها على أوراق بعض النبات يرعاها النمل ليستفيد منها. ففي الربيع الباكر يرسل النمل الرسل لتجمع له بيض هذا المن، فإذا جاؤوا به وضعوه في مستعمراتهم حيث يضعون بيضهم، ويهتمون ببيض هذه الحشرات كما يهتمون ببيضهم، فإذا فقس بيض المن وخرجت منه الصغار أطعموها وأكرموها، وبعد فترة قصيرة يأخذ المن يدر سائلاً حلواً كالعسل كما تدر البقرة اللبن، ويتولى النمل حلب هذا المن للحصول على هذا السائل وكأنها أبقار.

ولا يعتني النمل بتربية «المواشي» هذه وحدها، بل يعتني كذلك بالزرع وفلاحة الأرض، لقد شاهد أحد العلماء في إحدى الغابات قطعة من الأرض قد نما بها أرز قصير من نوع نصف بري، كانت مساحة القطعة خمسة أقدام طولاً في ثلاثة عرضاً، وكان طول الأرز نحو ستة «سنتيمترات»، ويتراءى للناظر إلى هذه البقعة من الأرض أنّ أحداً لا بد يعتني بها، فالطينة حول الجذور كانت مشققة، والأعشاب الغريبة كانت مستأصلة، والغرْيب أنّه لم يكن على مقربة من هذا المكان عود آخر من الأرز، فهذا الأرز لم ينم من تلقاء نفسه، وإنّما زرعه زارع.

ولوحظ أن طوائف النمل تأتي إلى هذا المزروع وتذهب عنه، فانبطح العالم على الأرض يلاحظ ما يصنعه، ولم يلبث أن عرف أنّ هذا النمل هو القائم بزراعة الأرز في تلك البقعة من الأرض، وأنه اتخذ من زراعتها مهنة له، تشغل كل وقته، فبعضه كان يشق الأرض ويحرثها، وبعض آخر كان يزيل الأعشاب الضارة، فإذا ظهر عود من عشب غريب قام إليه بعض النمل، فيقضمونه، ثم يحملونه بعيداً عن المزرعة.

نما الأرز حتى بلغ طوله ستين سنتيمتراً، وكانت حبوب الأرز قد نضجت، فلما بدأ موسم الحصاد شاهد صفاً من شغالة النمل لا ينقطع متجهاً نحو العيدان، فيتسلقها إلى أن يصل إلى حبوب الأرز، فتنزع كل شغالة من النمل حبة من تلك الحبوب، وتهبط بها سريعاً إلى الأرض، ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض.

بل الأعجب من ذلك أنّ طائفة من النّمل كانت تتسلق الأعواد، فتلتقط الحب، ثم تلقي به، بينما طائفة أخرى تتلقاه، وتذهب به إلى المخازن..

ويعيش هذا النوع من النمل عيشة مدنية في بيوت كبيوتنا ذات شقق وطبقات، أجزاء منها تحت الأرض، وأجزاء فوق الأرض، في هذه المدن نجد الخدم والعبيد.

بل الأعجب من ذلك نجد الممرضات اللاتي تعنى بالمرضى ليلاً ونهاراً، ونجد منها من يرفع جثث من يموت من النمل...

يفعل ذلك النوع من النمل كلّ هذا بدون تفكير، إذ يتم بالغريزة التي أودعها الله في أجسامهم الصغيرة.

٥- هداية الهدهد وعجائب صنع الله فيه

ويحدثنا ابن القيم بأسلوبه السهل الأخاذ عن نوع آخر من مخلوقات الله التي لها في كتاب الله ذِكْر، ألا وهو الهدهد، متحدثاً عن هداية الله له فيقول:

«وهذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره، ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أنه قال لنبي الله سليمان، وقد فقده وتوعده، فلما جاءه بَدَره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطاباً هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢]، وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، والنبأ هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين، لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر، وأوجبت له التشوق التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج.

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً بأدلة التأكيد، فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣]، ثم أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجلّ الملوك بحيث أوتيت من كل شيء يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في عظيم شأنها بذكر عرشها الذي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوه إلى قصدهم، وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤].

وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها، إيذاناً بأنها هي المقصودة، وما قبلها توطئة لها، ثم أخبر عن المغوي لهم، الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم، حتى صدهم

عن السبيل المستقيم، وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله - سبحانه - إخراج الخبء في السموات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن وأنواع ما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء إمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام مَنْ يخرج الخبء في السموات والأرض جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملاً إلا ألقى الله عليه رداء عمله».

٦- هداية الحمام وعجائب صنع الله فيه

أما حديث ابن القيم عن الحمام وبدائع صنع الله فيه، وعجيب هدايته إلى ما هداه إليه فحديث طويل ممتع، يدل على أن التفكير في خلق الله منهج أخذ به أهل العلم أنفسهم تحقيقاً لأمر الله لعباده، وفي هذا يقول ابن القيم:

وهذا الحمام من أعجب الحيوان هداية، حتى قال الشافعي: أعقل الطير الحمام، وبُردُ الحمام هي التي تحمل الرسائل والكتب، وربما زادت قيمة الطير منها على قيمة المملوك والعبد، فإن الغرض الذي يحصل به لا يحصل بمملوك ولا بحيوان غيره؛ لأنه يذهب ويرجع إلى مكانه من مسيرة ألف فرسخ فما دونها، وتنهي الأخبار والأغراض والمقاصد التي تتعلق بها مهمات الممالك والدول.

والقيمون بأمرها يعتنون بأنسابها اعتناء عظيماً، فيفرقون بين ذكورها وإناثها وقت السفاد، وتنقل الذكور عن إناثها إلى غيرها، والإناث عن ذكورها، ويخافون عليها من فساد أنسابها وحملها من غيرها، ويتعرفون صحة طرقها ومحلها، ولا يأمنون أن تفسد الأنثى ذكراً من عرض الحمام فتعتريها الهجنة، والقيمون بأمرها لا يحفظون أرحام نسائهم ويحتاطون لها كما يحفظون أرحام حمامهم ويحتاطون لها.

والقيمون لهم في ذلك قواعد وطرق يعتنون بها غاية الاعتناء بحيث إذا رأوا حماماً ساقطاً لم يخف عليهم حسبها ونسبها وبلدها، ويعظمون صاحب التجربة والمعرفة، وتسمح أنفسهم بالجعل الوافر له.

ويختارون لحمل الكتب والرسائل الذكور منها، ويقولون: هو أحن إلى بيته لمكان أنثاه، وهو أشد متناً، وأقوى بدناً وأحسن اهتداء، وطائفة منهم يختار لذلك الإناث، ويقولون: الذكر إذا سافر وبعد عهده حنّ إلى الإناث وتاقت نفسه إليهن، فربما رأى أنثى في طريقه ومجيئه فلا يصبر عنها، فيترك السير، ومال إلى قضاء وطره منها.

وهدايته على قدر التعليم والتوطين، والحمام موصوف باليُمْن والإلف للناس، ويحب الناس ويحبونه، ويألف المكان ويثبت على العهد والوفاء لصاحبه، وإن أساء إليه، ويعود إليه من مسافات بعيدة، وربما صد فترك وطنه عشر حجج، وهو ثابت على الوفاء، حتى إذا وجد فرصة واستطاعة عاد إليه.

والحمام إذا أراد السفاد يلطف للأنثى غاية اللطف، وإذا علم الذكر أنه أودع رحم الأنثى ما يكون منه الولد يقوم هو والأنثى بطلب القصب والحشيش وصغار العيدان، فيعملان منه أفحوصة، وينسجانها نسجاً متداخلاً في الوضع الذي يكون بقدر حيمان الحمامة، ويجعلان حروفها شاخصة مرتفعة، لئلا

يتدحرج عنها البيض، ويكون حصناً للحاضن، ثم يتعاودان ذلك المكان، ويتعاقبان الأفحوص يسخنانه، ويطيبانه وينفيان طباعه الأول، ويحدثان فيه طبعاً آخر مشتقاً ومستخرجاً من طباع أبدانهما ورائحتهما، لكي تقع البيضة إذا وقعت في مكان هو أشبه المواضع بأرحام الحمام، ويكون على مقدار من الحر والبرد والرخاوة والصلابة.

ثم إذا ضربها المخاض بادرت إلى ذلك المكان، ووضعت فيه البيض، فإن أفزعها رعد قاصف رمت بالبيضة دون ذلك المكان الذي هيأته كالمرأة التي تُسقط من الفزع.

فإذا وضعت البيض في ذلك المكان لم يزالا يتعاقبان الحضن، حتى إذا بلغ الحضن مداه وانتهت أيامه انصدع عن الفراخ، فأعاناه على خروجه، فيبدآن أولاً بنفخ الريح في حلقه حتى تتسع حوصلته، علماً بأن الحوصلة تضيق عن الغذاء، فتتسع الحوصلة بعد التحامها، وتنفتق بعد ارتتاقها.

ثم يعلمان أن الحوصلة وإن كانت قد اتسعت شيئاً فإنها في أول الأمر لا تحتمل الغذاء، فيزقانه بلعابهما المختلط بالغذاء، وفيه قوى الطعم.

ثم يعلمان أن طبع الحوصلة تضعف عن استمرار الغذاء، وأنها تحتاج إلى دفع وتقوية، لتكون لها بعض المتانة، فيلقطان من الغيطان الحب اللين الرخو، ويزقانه الفرخ، ثم يزقانه بعد ذلك الحب الذي هو أقوى وأشد.

ولا يزالان يزقانه بالحب والماء على تدريج بحسب قوة الفرخ، وهو يطلب ذلك منهما، حتى إذا علما أنه قد أطاق اللقط منعاه بعض المنع، ليحتاج إلى اللقط ويعتاده، وإذا علما أن رئته قد قويت ونمت، وأنهما إن فطماه فطماً تاماً قوي على اللقط وتبلغ لنفسه ضرباه إذا سألهما الزق، ومنعاه.

ثم تنزع تلك الرحمة العجيبة منهما، وينسيان ذلك التعطف المتمكن حين

يعلمان أنه قد أطاق القيام بالتكسب بنفسه، ثم يبتدآن ابتداء ذلك النظام.

ومن عجيب هداها أنها إذا حملت الرسائل سلكت الطرق البعيدة عن القرى ومواضع الناس ؛ لئلا يعرض لها من يصدها، ولا يرد مياههم، بل يرد المياه التي لا يردها الناس.

ومن هداية الحمام أن الذكر والأنثى يتقاسمان أمر الفراخ، فتكون الحضانة والتربية والكفالة على الأنثى، وجلب القوت والزق على الذكر، فإنّ الأب هو صاحب العيال والكاسب لهم، والأم هي التي تحبل وتلد وترضع.

ومن عجيب أمرها ما ذكره الجاحظ: أن رجلاً كان له زوج حمام مقصوص، وزوج طيار، وللطيار فرخان، قال: ففتحت لهما في أعلى الغرفة كوة للدخول والخروج وزق فراخهما، قال: فحبسني السلطان فجأة، فاهتممت بشأن المقصوص غاية الاهتمام، ولم أشك في موتهما ؛ لأنهما لا يقدران على الخروج من الكوة، وليس عندهما ما يأكلان ويشربان.

قال: فلما خلي سبيلي، لم يكن لي هم غيرهما، ففتحت البيت فوجدت الفراخ قد كبرت، ووجدت المقصوص على أحسن حال، فعجبت، فلم ألبث أن جاء الزوج الطيار، فدنا الزوج المقصوص إلى أفواههما يستطعمانهما كما يستطعم الفرخ فزقاهما.

فانظر إلى هذه الهداية، فإن المقصوصين لما شاهدا تلطف الفراخ، للأبوين وكيف يستطعمانهما إذا اشتد بهما الجوع والعطش، فعلا كفعل الفرخين، فأدركتهما رحمة الطيارين، فزقاهما كما يزقان فرخيهما.

ومن هدايتها أيضاً أنه إذا رأى الناس في الهواء عرف أي صنف يريده، وأي نوع من الأنواع ضده، فيخالف فعله ليسلم منه، ومن هدايته أنه في أول نهوضه يغفل، ويمر بين النسر والعقاب، وبين الرخم والبازي، وبين الغراب والصقر،

فيعرف من يقصده، ومن لا يقصده، وإن رأى الشاهين فكأنه يرى السم الناقع، وتأخذه حيرة كما يأخذ الشاة عند رؤية الذئب، والحمار عند مشاهدة الأسد.

مزيد من عجائب هداية الله مخلوقاته

ويعرض علينا ابن القيم جملة من عجائب هداية الله في مخلوقاته مما توصل إليه أهل العلم في زمانه، ولاحظوه من الوقائع في عهدهم فمن ذلك:

٧- كلبة ترضع طفلاً مات أهله

قال الجاحظ: لما وقع الطاعون الجارف أتى على أهل دار، فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق منهم أحد، فعمدوا إلى باب الدار فسدوه، وكان قد بقي صبي صغير يرضع، ولم يفطنوا له، فلما كان بعد ذلك بمدة تحول إليها بعض ورثة القوم، ففتح الباب، فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار فراعه ذلك، فلم يلبث أن أقبلت كلبة قد كانت لأهل الدار، فلما رآها الصبي حبا إليها، فأمكنته من أطبائها، فمصها، وذلك أن الصبي لما اشتد جوعه ورأى جراء الكلبة يرتضعون من أطباء الكلبة حبا إليها، فعطفت عليه، فلما سقته مرة أدامت له ذلك، وأدام هو الطلب.

٨ - المكاء يقتل الأفعى

وذكر ابن الاعرابي قال: أكلت حية بيض مكاء، فجعل المكاء يصوت ويطير على رأسها، ويدنو منها، حتى إذا فتحت فاها وهمت به ألقى حسكة، فأخذت بحلقها حتى ماتت، وأنشد أبو عمر الشيباني في ذلك قول الأسدي:

إن كنت أبصرتني عيلاً ومصطلماً   فربما قتل المكاء ثعباناً

٩- هداية الثعلب وحيله

ومن عجيب هداية الثعلب أنه إذا امتلأ من البراغيث أخذ صوفة بفمه، ثم عمد إلى ماء رقيق، فنزل فيه قليلاً، حتى ترتفع البراغيث إلى الصوفة، فيلقيها في الماء ويخرج.

ومن عجيب أمره أن ذئباً أكل أولاده، وكان للذئب أولاد وهناك زبية، فعمد الثعلب وألقى نفسه فيها، وحفر فيها سرداباً يخرج منه، ثم عمد إلى أولاد الذئب فقتلهم، وجلس ناحية ينتظر الذئب، فلما أقبل وعرف أنها فعلته هرب قدامه، وهو يتبعه، فألقى نفسه في الزبية، ثم خرج من السرداب، فألقى الذئب نفسه وراءه فلم يجده، ولم يطق الخروج، فقتله أهل الناحية.

ومن عجيب أمره أن رجلاً كان معه دجاجتان، فاختفى له، وخطف إحداهما وفر، ثم أعمل فكره في أخذ الأخرى، فتراءى لصاحبها من بعيد وفي فمه شيء شبيه بالطائر، وأطمعه في استعادتها بأن تركه وفر، فظن الرجل أنها الدجاجة، فأسرع نحوها، وخالفه الثعلب إلى أختها، فأخذها وذهب.

ومن عجيب أمره أنه أتى إلى جزيرة فيها طير، فأعمل الحيلة كيف يأخذ منها شيئاً فلم يطق، فذهب وجاء بضغث من حشيش وألقاه في مجرى الماء الذي نحو الطير ففزع منه، فلما عرفت أنه حشيش رجعت إلى أماكنها، فعاد لذلك مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، حتى تواظب الطير على ذلك وألفته، فعمد إلى جرزة أكبر من ذلك، فدخل فيها وعبر إلى الطير، فلم يشك الطير أنه من جنس ما قبله، فلم تنفر منه، فوثب على طائر منها وعدا به.

ومن عجيب أمره أنه إذا اشتد به الجوع انتفخ، ورمى بنفسه في الصحراء كأنّه جيفة، فتتداوله الطير، فلا يظهر حركة ولا نفساً، فلا تشك أنه ميت، حتى

إذا نقر بمنقاره، وثب عليها، فضمها ضمة الموت.

ومن عجيب أمره أنه إذا أصاب القنفذ، قَلَبَهُ لِظهره لأجل شوكه، فيجتمع القنفذ حتى يصير كبة شوك، فيبول الثعلب على بطنه ما بين مغرز عجبه إلى فكيه، فإذا أصابه البول اعتراه الأسر، فانبسط، فيسلخه الثعلب من بطنه، ويأكل مسلوخه.

١٠- من عجائب الذئاب

ومن عجيب الذئب أنه عرض لإنسان يريد قتله، فرأى معه قوساً وسهماً، فذهب وجاء بعظم رأس جمل في فيه، وأقبل نحو الرجل، فجعل الرجل كلما رماه بسهم اتقاه بذلك العظم حتى أعجزه، وعاين نفاد سهمه، فصادف من استعان به على طرد الذئب.

١١- من عجائب القرود

ومن عجيب أمر القرود ما ذكره البخاري في صحيحه، عن عمرو بن ميمون الأودي، قال: رأيت في الجاهلية قرداً وقردة زنيا، فاجتمع عليهما القرود فرجموهما حتى ماتا، فهؤلاء القرود أقاموا حد الله حين عطله بنو آدم.

١٢- من عجائب البقر

وهذه البقر يضرب ببلادتها المثل، وقد أخبر النبي ﷺ (أنّ رجلاً بينما هو يسُوق بقرة إذ ركبها فقالت: لم أخلق لهذا) فقال الناس: سبحان الله بقرة تتكلم؟! فقال: (فإني أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر، وما هما ثَمّ).

قال: (وبينما رجل يرعى غنماً له إذ عدا الذئبُ على شاة منها فاستنقذها منه، فقال الذئب: هذه استنقذتها مني، فمن لها يوم السبُع يوم لا راعي لها غيري)، فقال الناس: سبحان الله ذئب يتكلم؟! فقال رسول الله ﷺ (إني أومنُ بهذا أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثمّ).

١٣- من عجائب الفئران

ومن عجيب أمر الفئران أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة فنقص وعزّ عليها الوصول إليه ذهبت، وحملت في أفواهها ماءً وصبته في الجرة، حتى يرتفع الزيت فتشربه.

١٤- من عجائب الحيوان استخدامه الدواء

والأطباء تزعم أن الحقنة أخذت من طائر طويل المنقار، إذا تعسر عليه الذرق جاء إلى البحر المالح، وأخذ بمنقاره منه واحتقن به، فيخرج الذرق بسرعة.

وهذا ابن عرس والقنفذ إذا أكلا الأفاعي والحيات عمدا إلى الصتر النهري، فأكلاه كالترياق لذلك.

وهذا الثعلب إذا أصابه صدع أو جرح يأتي إلى صبغ معروف، فيأخذ منه، ويضعه على جرحه كالمرهم، والدبّ إذا أصابه جرح يأتي إلى نبت قد عرفه، وجهله صاحب الحشائش، فيتداوى به فيبرأ!

١٥- تعلم الإنسان من الحيوان

وكثير من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أموراً تنفعه في معاشه وأخلاقه وصناعته وحربه وحزمه وصبره، وهداية الحيوان فوق هداية أكثر الناس قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤] قال أبو جعفر الباقر: والله ما اقتصر على تشبيههم بالأنعام، حتى جعلهم أضل سبيلاً منها، فمن هدى الأنثى من السباع إذا وضعت ولدها أن ترفعه في الهواء أياماً تهرب به من الذر والنمل، لأنها تضعه كقطعة من لحم، فهي تخاف عليه الذر والنمل، فلا تزال ترفعه وتضعه وتحوله من مكان إلى مكان حتى يشتد.

وقال ابن الأعرابي: قيل لشيخ من قريش: مَنْ علمك هذا كله، وإنما يعرف مثله أصحاب التجارب والتكسب؟ قال: علمني الله ما علم الحمامة تقلب بيضها حتى تعطي الوجهين جميعاً نصيبهما من حضانتها، ولخوف طباع الأرض على البيض إذا استمر على جانب واحد.

وقيل لآخر: مَنْ علمك اللجاج في الحاجة والصبر عليها وإن استعصت حتى تظفر بها؟ قال: مَنْ علم الخنفساء إذا صعدت في الحائط تسقط، ثم تصعد، ثم تسقط مراراً عديدة، حتى تستمر صاعدة.

وقيل لآخر: مَنْ علمك البكور في حوائجك أول النهار لا تخل به؟ قال: من علم الطير تغدو خماصاً كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها، لا تسأم ذلك، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض.

وقيل لآخر: مَنْ علمك السكون والتحفظ والتماوت حتى تظفر بأربك، فإذا ظفرت به وثبت وثوب الأسد على فريسته؟ فقال: الذي علم السِّنَّورة أن ترصد

جحر الفأرة، فلا تتحرك ولا تتلوى، ولا تختلج كأنها ميتة، حتى إذا برزت لها الفأرة وثبت عليها كالأسد.

وقيل لآخر: مَنْ علمك الصبر والجلد والاحتمال وعدم السكون؟ قال: من علم أبا أيوب صبره على الأثقال والأحمال الثقيلة، والمشي والتعب وغلظة الجمّال وضربه، فالثقل والكل على ظهره، ومرارة الجوع والعطش في كبده، وجهد التعب والمشقة ملأ جوارحه، ولا يعدل به ذلك عن الصبر.

وقيل لآخر: مَنْ علمك حسن الإيثار والسماحة بالبذل؟ قال: من علم الديك يصادف الحبة في الأرض، وهو يحتاج إليها فلا يأكلها؛ بل يستدعي الدجاج ويطلبهن طلباً حثيثاً، حتى تجيء الواحدة منهن فتلقطها، وهو مسرور بذلك طيب النفس به، وإذا وضع له الحب الكثير فرّقه هنا وها هنا، وإن لم يكن هناك دجاج، لأن طبعه قد ألف البذل والجود، فهو يرى من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام.

وقيل لآخر: مَنْ علمك هذا التحيل في طلب الرزق ووجوه تحصيله؟ قال: من علم الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علمها وعملها، وهي أكثر من أن تذكر.

ومَنْ علم الأسد إذا مشى وخاف أن يقتفى أثره ويطلب، عفى أثر مشيته بِذَنَبِهَ، ومن علمه أن يأتي إلى شبله في اليوم الثالث من وضعه، فينفخ في منخريه، لأن اللبوة تضعه جرواً كالميت، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه فيفعل به ذلك!.

ومن ألهم كرام الأسود وأشرافها أن لا تأكل إلا من فريستها، وإذا مر بفريسة غيره لم يدن منها ولو جهده الجوع!

ومن علم الأنثى من الفيلة إذا دنا وقت ولادتها أن تأتي إلى الماء فتلد فيه،

لأنها دون الحيوانات لا تلد إلا قائمة، لأن أوصالها على خلاف أوصال الحيوان، وهي عالية، فتخاف أن تسقطه على الأرض فينصدع أو ينشق، فتأتي ماء وسطاً تضعه فيه يكون كالفراش اللين والوطاء الناعم.

ومن علم الذباب إذا سقط في مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر !

ومَنْ علم الكلب إذا عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره، والذكر من الأنثى، فيقصد الذكر مع علمه بأنّ عدوه أشد وأبعد وثبة، ويدع الأنثى على نقصان عدوها ؛ لأنّه قد علم أن الذكر إذا عدا شوطاً أو شوطين حقن ببوله، وكل حيوان إذا اشتد فزعه فإنه يدركه الحقن، وإذا حقن الذكر لم يستطع البول مع شدة العدو، فيقل عدوه، فيدركه الكلب، وأما الأنثى فتحذف بولها لسعة القبل وسهولة المخرج، فيدوم عدوها !.

ومَنْ علمه أنه إذا كسا الثلج الأرض أن يتأمل الموضع الرقيق الذي قد انخسف، فيعلم أن تحته جحر الأرانب، فينبشه، ويصطادها علماً منه بأن حرارة أنفاسها تذيب بعض الثلج فيرق !

ومن علم الذئب إذا نام أن يجعل النوم نوباً بين عينيه، فينام بإحداهما، حتى إذا نعست الأخرى نام بها، وفتح النائمة ! حتى قال بعض العرب:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

ومَنْ علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث، فلا يبقى عصفور بجوارها حتى يجيء، فيطيرون حول الفرخ، ويحركونه بأفعالهم، ويحدثون له قوة وهمة وحركة، حتى يطير معهم !

قال بعض الصيادين: ربما رأيت العصفور على الحائط، فأومي بيدي كأني أرميه فلا يطير، وربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً فلا يتحرك، فإن

مسست بيدي أدنى حصاة أو حجر أو نواة طار قبل أن تتمكن منها يدي.

ومن علم «اللبب» وهو صنف من العناكب أن يلطأ بالأرض، ويجمع نفسه، فيرى الذبابة أنه لاه عنها، ثم يثب عليها وثوب الفهد!

ومن علم العنكبوت أن تنسج تلك الشبكة الرفيعة المحكمة، وتجعل في أعلاها خيطاً ثم تتعلق به، فإذا تعرقلت البعوضة في الشبكة تدلت إليها فاصطادتها !

ومن علم الظبي أن لا يدخل كناسه إلا مستدبراً، ليستقبل بعينه ما يخافه على نفسه وخشفه !

ومن علم السنور إذا رأى فأرة في السقف أن يرفع رأسه كالمشير إليها بالعود، ثم يشير إليها بالرجوع، وإنما يريد أن يدهشها فتزلق فتسقط !

ومن علم اليربوع أن يحفر بيته في سفح الوادي حيث يرتفع عن مجرى السيل ليسلم من مدق الحافر ومجرى الماء، ويعمقه ثم يتخذ في زواياه أبواباً عديدة، ويجعل بينها وبين وجه الأرض حاجزاً رقيقاً، فإذا أحس بالشر فتح بعضها بأيسر شيء، وخرج منه، ولما كان كثير النسيان لم يحفر بيته إلا عند أكمة أو صخرة علامة له على البيت، إذا ضل عنه !

ومن علم الفهد إذا سمن أن يتوارى لثقل الحركة عليه حتى يذهب ذلك السمن، ثم يظهر!

ومن علم الأيل إذا سقط قرنه أن يتوارى، لأنّ سلاحه قد ذهب، فيسمن لذلك، فإذا كمل نبات قرنه تعرض للشمس والريح، وأكثر من الحركة ليشتد لحمه، ويزول السمن المانع له من العدو.

وهذا باب واسع جداً، ويكفي فيه قوله - سبحانه - ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ

﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ * وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٨-٣٩].

وجه المماثلة بين الحيوانات وبني الإنسان:

قال ابن عباس في رواية عطاء: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، ويريد: يعرفونني، ويوحدونني، ويسبحونني، ويحمدونني، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ومثل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١].

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، ويدل عليه قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾ [النمل: ١٨]، وقول سليمان ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

وقال مجاهد: أمم أمثالكم، أصناف مصنفة تعرف بأسمائها، وقال الزجاج: أمم أمثالكم في أنها تبعث.

وقال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في طلب الغذاء، وابتغاء الرزق، وتوقي المهالك.

وقال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي إلا وفيه شبه من البهائم، فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو

ألقي إليها الطعام الطيب عافته، فإذا قام الرجل عن رجيعه ولغت فيه، فلذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل تروّاه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية واستنبط منها هذه الحكمة، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعاً لظاهره وجب المصير إلى باطنه، وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع من جهة الخلقة والصورة، وعدم من جهة النطق والمعرفة، فوجب أن يكون منصرفاً إلى المماثلة في الطباع والأخلاق.

والله - سبحانه - قد جعل بعض الدواب كسوباً محتالاً، وبعضها متوكلاً غير محتال، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل على الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقاً مضموناً وأمراً مقطوعاً، وبعضها لا يعرف ولده ألبتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها تضيع ولدها، وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنى عنها، وبعضها يدخر، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكور يعول ولده، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه.

وجعل بعض الحيوانات يُتمها من قِبل أمهاتها، وبعضها يُتمها من قبل آبائها، وبعضها لا يلتمس الولد، وبعضها يستفرغ الهم في طلبه، وبعضها يعرف الإحسان ويشكره، وبعضها ليس ذلك عنده شيئاً، وبعضها يؤثر على نفسه، وبعضها إذا ظفر بما يكفي أمة من جنسه لم يدع أحداً يدنو منه.

وبعضها يألف بني آدم ويأنس بهم، وبعضها يستوحش منهم، وينفر غاية النفار، وبعضها لا يأكل إلا الطيب، وبعضها لا يأكل إلا الخبائث، وبعضها يجمع بين الأمرين.

وبعضها لا يؤذي إلا من بالغ في أذاها، وبعضها يؤذي من لا يؤذيها، وبعضها حقود لا ينسى الإساءة، وبعضها لا يذكرها ألبتة، وبعضها لا يغضب، وبعضها يشتد غضبه، فلا يزال يسترضى حتى يرضى، وبعضها عنده علم ومعرفة بأمور دقيقة لا يهتدي إليها أكثر الناس، وبعضها لا معرفة له بشيء من ذلك ألبتة، وبعضها يستقبح القبيح وينفر منه، وبعضها الحسن والقبيح سواء عنده، وبعضها يقبل التعليم بسرعة، وبعضها مع الطول، وبعضها لا يقبل ذلك بحال.

وهذا كله من أدل الدلائل على الخالق لها سبحانه، وعلى إتقان صنعه، وعجيب تدبيره، ولطيف حكمته، فإن فيما أودعها من غرائب المعارف، وغوامض الحيل، وحسن التدبير، والتأني لما تريده، ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب من معرفته ومعرفة حكمته وقدرته، وما يعلم به كل عاقل أنه لم يخلق عبثاً، ولم يترك سدى، وأن له - سبحانه - في كل مخلوق حكمة باهرة وآية ظاهرة وبرهاناً قاطعاً، يدل على أنه رب كل شيء ومليكه، وأنه المتفرد بكل كمال دون خلقه، وأنه على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

١٦- هداية الخالق الكائنات لطريقة التكاثر

يقول الدكتور يوسف عز الدين موضحاً هذا الموضوع: «من الأشياء العجيبة التي تشترك فيها جميع الكائنات الحية القدرة على التكاثر، لتكوين ذرية يكون من شأنها الاستمرار بالحياة، واستمرار بقاء النوع وعدم انقراضه.

وتتم عملية إنجاب الذرية في الكائنات الحيّة المختلفة بطرق شتى، ولكنّها تصل إلى الهدف المنشود. (فالبكتريا) (وهي من النباتات) تتكاثر، وكذلك

تفعل باقي النباتات والحيوانات على اختلاف درجة رقيها. ولا يمكن من وجهة نظر العلوم الرياضية أن تحدث مصادفات يكون من شأنها إيجاد ذكر أو أنثى في آلاف من النباتات والحيوانات لهدف مرسوم ومحدد وهو إنجاب ذرية تبقى بعد الفناء.

ومن الحيوانات والنباتات ما لا يتميز فيها ذكر وأنثى، ومع ذلكَ فإنّها تتكاثر وتنجب ذرية، فحيوان صغير الحجم أوّلي مثل حيوان (الأميبا) الذي يعيش في الماء والمكّون جسمه من خلية واحدة يتكاثر بطريقة عجيبة، إذ إنّ الحيوان الواحد ينقسم إلى قسمين، وكل قسم يتحول إلى حيوان، والحيوانات المتكونة من الانقسام تنقسم بدورها إلى حيوانين وهكذا... يحدث هذا عندما تكون ظروف الحياة ملائمة وعادية.

أمّا إذا شعر هذا الحيوان بما ينذر بالخطر فإنّه يتحوصل؛ أي يفرز حول جسمه حوصلة، وينقسم إلى حيوانين، بل عشرات الحيوانات داخل الحوصلة؛ لكي يعوض الوقت الذي قد يضيع هباء داخل الحوصلة إلى حين رجوع الظروف الملائمة لحياته.

ويحدث التكاثر عن طريق الانقسام في حيوانات أوليه عديدة غير (الأميبا) مثل الحيوان المسمى:(البراميسيوم) وهو يعيش في الماء، ويتكاثر أيضاً بالانقسام الثنائي في الظروف الملائمة كما تنقسم (الأميبا)، ولكنه من آن لآخر يحتاج إلى تجديد نشاطه وحيويته، فيلجأ إلى طريقة أخرى للتكاثر بالغة التعقيد يكون من شأنها تجنيد النَّوىٰ (ولكل خلية نواة كما هو معلوم) حيث ينجب كل فرخ في هذه الحالة أربعة أفراد بدلاً من انقسام حيوان إلى حيوانين فقط.

وفي الحيوانات الأرقى من هذه الحيوانات الأولية، إذا كانت ظروف الحياة تحول دون سهولة التقاء الأنثى بالذكر لإنجاب الذرية، فإنّ الحيوان في هذه

الحالة يصبح أنثى وذكراً في الوقت نفسه، أي يصبح خنثى حيث يضم جسمه أعضاء التناسل الأنثوية والذكرية جنباً إلى جنب، فيستطيع بذلك أن ينجب ذريته دون حاجة إلى انتظار فرصة التقاء الجنسين، يحدث هذا مثلاً في الدودة الكبدية التي تعيش في القنوات المرارية لبعض الحيوانات حيث يصعب على أحد الجنسين التنقل والتجول في هذا المكان الضيق للعثور على الجنس الآخر، وفي الوقت نفسه إذا حدث أن التقى حيوانان من هذه الديدان من الممكن أن يلقح أحدهما الآخر حيث يصبح أحدهما وكأنه أنثى، ويصبح الآخر وكأنه ذكر.

إن حدوث ملايين المصادفات في آن واحد لهدف معين مشترك وفي حيوانات مختلفة وبوسائل متباينة شيء لا يقره العلم، ولا تقره علوم الرياضيات، وفي هذه الحالة لا بدّ أن يسلم بوجود قوة خالقة عاملة وراء هذا كله.

ومنذ وجود أول حيوان ثديي على هذه الأرض، والأنثى مزودة بمصنع لإنتاج اللبن، وذلك لكي يضمن الصغير الحصول على غذائه بمجرد خروجه من بطن أمه، ولو لم يوجد هذا الثدي الذي يبرز من جسم الأم منذ أول حيوان ثديي لما أتيحت فرصة النمو والبقاء على قيد الحياة لأول مولود، أي أنها عملية مدبرة ومقدرة منذ البداية، ولا تخضع للتجربة والخطأ، إذ إنها لا تحتمل الخطأ مرة واحدة.

فهل يمكن أن يتصور أيّ إنسان عاقل أن تزويد الأم بطعام الصغير المولود يأتي نتيجة مصادفة عمياء؟ ولبن أنثى الحيوانات الثديية - علاوة على فائدته الغذائية - نجده مزوداً بمواد تحمل للمولود مناعة ضد الأمراض إلى أن يشب عن الطوق، ويمكن جسمه من الدفاع عن نفسه. وجميع الجهود التي تضافرت لصنع الألبان اللازمة لتغذية الصغار فشلت في صنع الألبان التي تحمل نفس صفات اللبن الذي أمد الله به الأنثى».

أهمية الغريزة الجنسية:

ويحدثنا الدكتور يوسف عن الغريزة الجنسية وأهميتها وعظيم أثرها فيقول: «ومن الأشياء التي حيرت العلماء كنه الغريزة الجنسية، تلك الغريزة التي تجعل الذكر ينجذب إلى الأنثى، والأنثى تنجذب إلى الذكر.

والغريزة الجنسية هي أقوى الغرائز؛ لأنها أهمها بالنسبة لبقاء النوع وعدم انقراضه، والهدف الرئيسي لبقاء بعض الحيوانات هو إتمام الالتقاء الجنسي، ثم يموت بعد ذلك.

فالطور الكامل للحشرات المسماة (ذباب مايو)، لا يزيد عن بضعة أيام، وهي في طورها الكامل هذا لا تتغذى إذ لا توجد بها أجزاء للفم تصلح لتناول الطعام إطلاقاً، وإنما وظيفتها الرئيسية في هذه الفترة القصيرة من العمر هي التقاء الذكر بالأنثى لإنجاب الذرية، حيث تموت الأم بعد ذلك مباشرة بعد أن تكون أدّت رسالتها وكذلك يموت الأب».

١٧- هداية الخالق الحيوان تعويض ما يفقده من أجزاء جسمه

ويتعرض الدكتور يوسف في مقالاته في جريدة الأهرام عما زود الله به مخلوقاته من خاصية تعويض الحيوان عما يفقده من أجزاء جسده فيقول: «ومن الصفات الأخرى المذهلة التي نجدها في جميع الحيوانات والنباتات القدرة على تعويض الأجزاء المفقودة، وتوجد بدرجات مختلفة في الكائنات الحية.

ففي حيوانات عديدة مثل ذلك الحيوان المسمى «الهيدرا» نجد شيئاً عجيباً يكتفي العلم بوصفه، ولكنّه لا يستطيع له تفسيراً، هذا الحيوان يعيش في الماء،

وهو أنبوبي الشكل لا يزيد طوله عن بضعة مليمترات، ذو قاعدة مقفلة وفتحة أمامية تستخدم كفم لدخول الطعام، وفي الوقت نفسه تستعمل كفتحة « است » تخرج منها الفضلات. وحول تلك الفتحة نجد عدداً من الزوائد المجوفة، يتصل تجويفها بتجويف الجسم.

إذا قطعنا هذا الحيوان إلى نصفين، نصف علوي، ونصف سفلي، فإننا نجد أنّ بعض الخلايا في كل نصف تتكاثر بحيث تستكمل الأجزاء الناقصة، فتكون النتيجة تكوين حيوانين يشبهان الحيوان الأصلي، ولا يقتصر الأمر على ذلك، إذ إننا لو قطعنا ذلك الحيوان، إلى عدة أجزاء فإنّ كل جزء ينمو ويعوض جميع الأجزاء المفقودة، ويصبح حيواناً كامل التكوين.

ويتركب جدار الجسم لهذا الحيوان من طبقتين من الخلايا: طبقة خارجية وطبقة داخلية تحيط بالتجويف الداخلي للجسم، وفي كل طبقة من الطبقتين توجد أنواع مختلفة من الخلايا لكل نوع منها وظيفة محددة، ومعظم خلايا الطبقة الخارجية وظيفتها الأساسية حماية جسم الحيوان، أما الطبقة الداخلية فوظيفتها الرئيسة هضم الغذاء الذي يبتلعه الحيوان من خلال فتحة الفم.

ولو قلبنا ذلك الحيوان كما يقلب الجورب، فإنّ الخلايا التي كانت خارجية تصبح داخلية، أي تحيط بتجويف الجسم، بينما الخلايا التي كانت داخلية تصبح خارجية، فماذا يحدث في هذه الحالة؟ لقد وجد العلماء الذين أجروا هذه التجارب أن الخلايا التي أصبحت الآن خارجية تهاجر نحو الداخل، بينما الخلايا التي أصبحت داخلية تهاجر نحو الخارج لكي يعود تركيب الحيوان إلى ما كان عليه، ولو لم يحدث ذلك لمات الحيوان، إذ إن الخلايا التي تحيط بتجويف الجسم لا بدّ أن تكون الخلايا الهاضمة، لتتم عملية هضم المواد الغذائية التي في تجويف الجسم، بينما الخلايا الخارجية لا بدّ أن تكون الخلايا الوقائية التي تحفظ الجسم وتقيه من التلف.

وإذا قطعنا دودة الأرض إلى جزءين، فإنّ كلّ جزء ينمو، ويعوض الجزء المفقود.

وفي حيوانات أخرى (كالجمبري، أو الكابوريا) وغيرهما إذا فقدت إحدى الأرجل فإنّ رجلاً جديدة تتكون بدلاً من المفقودة.

والبرص إذا استشعر خطراً أو أمسكه من ذنبه إنسان أو حيوان فإنه يفصل ذلك الذنب عن جسمه، وينجو من الخطر، وينمو له ذنب جديد.

ونحن إذا جرحنا أنفسنا في أثناء الحلاقة أو لأي سبب آخر، فإن خلايا جديدة تتكون بدلاً من الخلايا التي أتلفها الجرح، ولو لم يحدث ذلك لما أصبح في الإمكان إجراء أية عملية جراحية.

وإذا كسرت لنا عظمة فإنّ خلايا جديدة تتكون ويلتئم الكسر.

لا يمكن أن يحدث هذا نتيجة للمصادفة، بل لا بدّ أن يكون نتيجة تدبير يتجه نحو هدف معين، وهو المحافظة على حياة الفرد، وتحكمه قوى كامنة في الحيوان لم يتوصل العلم إلى كنهها، إنها قوى أودعها الله في الحيوان، والحيوان لا يعلم عنها شيئاً، ولا يدرك ماذا يفعل».

١٨- اتفاق جميع الأحياء في التنفس وإن اختلفت طرائقه

ويعرض الدكتور يوسف في مقالاته القيمة لهذا الموضوع، فيقول:

«إن عملية التنفس التي نجدها في جميع الكائنات الحية من أدناها إلى أرقاها عملية عجيبة، وهي في جميع الحالات ليست سوى عملية أكسدة، أي اتحاد الأكسجين بالمواد الغذائية التي في خلايا الجسم، ونتيجة لهذه الأكسدة تنطلق الطاقة اللازمة للكائن الحي التي لولاها لما استطاع القيام بأيّ نشاط من أنشطته المختلفة.

تتم هذه الأكسدة في الحيوانات المختلفة بطرق متباينة، ولكن النتيجة في جميع الأحوال واحدة، وهي انطلاق الطاقة، وفي الوقت نفسه يتكون الماء (وثاني أوكسيد الكربون) نتيجة لهذه العملية، ولذا فالمظهر الواضح لعملية التنفس هو أخذ (الأوكسجين) اللازم (لأكسدة) المواد الغذائية وبإخراج (ثاني أوكسيد الكربون) والماء الناتجين عن هذه العملية.

ففي حيوان بسيط (كالأميبا) حيث يتكون الجسم من خلية واحدة، تتم عملية التنفس بطريقة غاية في البساطة، إنّ هذا الحيوان الذي يشبه قطعة دقيقة من (الجيلاتين) الرخو يعيش في الماء، ويوجد بالماء المحيط به قدر من (الأوكسجين) المذاب، هذا (الأوكسجين) الذائب في الماء ينفذ إلى جسم (الأميبا) حيث يؤكسد المواد الغذائية التي في جسمها، فتنطلق الطاقة اللازمة لحركتها ونموها، وغيرها من العمليات الضرورية للحياة.

ويتكون (ثاني أوكسيد الكربون) والماء نتيجة لعملية (الأكسدة)، علاوة على انطلاق الطاقة.

وتتخلص (الأميبا) من الماء الزائد بطريقة تثير الدهشة، حيث تتجمع قطيرات الماء حتى تتكون فجوة مليئة بالماء، هذه الفجوة تتحرك نحو حافة جسم الحيوان، ثم تنفجر ملقية بالماء خارج الجسم، ثم تعود لتتكون من جديد... وهكذا.

أما ثاني (أوكسيد الكربون) فينفذ من داخل الجسم إلى الماء المحيط به.

وتحدث عملية التنفس في الحشرات عن طريق فتحات على جانبي الجسم توصل إلى شبكة من الأنابيب الدقيقة تتفرع داخل جسم الحشرة إلى أنابيب أصغر فأصغر، حتى تصل في النهاية إلى جميع الخلايا تقريباً، وبهذا التنظيم يدخل (الأوكسجين) من الفتحات الخارجية، ويصل مباشرة إلى خلايا الجسم.

أمّا في الإنسان وفي عديد من الحيوانات الأخرى فإنّ (الأوكسجين) يصل إلى أنسجة الجسم عن طريق الخلايا الدموية الحمراء التي تسبح في الدم، ويوجد بداخل هذه الخلايا الدموية المادة المسماة (بالهيموجلوبين).

ومن الخواص العجيبة لهذه المادة سرعة اتحادها (بالأوكسجين، وثاني أوكسيد الكربون) والقدرة على الانفصال عنهما بسهولة. فإذا وصلت هذه الخلايا الدموية إلى الرئتين، فإنها تتحمل بالأوكسجين، وتسير مع الدورة الدموية حتى تصل إلى الشعيرات الدموية الدقيقة التي في الأنسجة، فينفصل الأوكسجين عنها وينفذ إلى الأنسجة من خلال الجدران الرقيقة للشعيرات الدموية حيث يستخدم (لأكسدة) المواد الغذائية، وينفذ إليها من الأنسجة (ثاني أوكسيد الكربون) الناتج من عملية (الأكسدة) الذي تحمله إلى الرئتين حيث ينفصل عن (الهيموجلوبين)، ويتخلص منه الجسم عن طريق الزفير، ثم يتحمل من جديد (بالأوكسجين). . . وهكذا.

ويحدث التنفس بوسائل عديدة في الحيوانات المختلفة، ولكن النتيجة في جميع الحالات واحدة، وهي وصول (الأوكسجين) إلى خلايا الجسم، والتخلص من (ثاني أوكسيد الكربون).

وهذا يدل دلالة قاطعة على شيئين:

الأول: أنّ هذا التقدير الدقيق لا بد أن يكون من فعل خالق مدبر مقدر، إذ إنّه لا يمكن أن يحدث شيء بطرق مختلفة، ليؤدي لنتيجة واحدة عن طريق المصادفة.

والشيء الثاني: أنّ الخالق واحد أحد، إذ إن أسلوب الخلق مبني على أساس واحد، ويؤدي إلى نتيجة واحدة لا تتغير».

١٩- حصول الأحياء على الغذاء بطرق مختلفة

ويحدثنا الدكتور يوسف عن هذا الموضوع فيقول: «وجميع الكائنات الحية نباتات وحيوانات لا بدّ أن تتغذى، وتتغذى النباتات بطريقة تختلف تمام الاختلاف عن طريقة تغذية الحيوانات، فالنباتات ثابتة في مكانها، لا يمكنها أن تتحرك لتحصل على غذائها كما يفعل الحيوان، ولذا فهي تصنع غذاءها وهي مغروسة في مكانها مستخدمة في ذلك الطاقة الشمسية.

أمّا الحيوان فيحصل على غذائه جاهزاً من مواد نباتية أو حيوانية، والغذاء الذي يتناوله الحيوان لا بدّ أن يهضم ليمتصه الجسم ويستفيد منه، وعمليات الهضم عمليات بالغة التعقيد من شأنها تحويل المواد المعقدة التركيب إلى مواد بسيطة التركيب يستطيع الجسم امتصاصها والإفادة منها.

والمواد الغذائية قد تكون دهنية أو بروتينية أو نشوية. . . إلخ.

وكل نوع من الغذاء يقوم بهضمه أنزيم معين يؤثر في مادة بعينها، ولا يؤثر في المواد الأخرى الموجودة معها جنباً إلى جنب، فأنزيم يؤثر في المواد الدهنية، ولا يؤثر في المواد البروتينية، وآخر يؤثر في المواد البروتينية، ولا يؤثر في المواد الدهنية.

فهل من الممكن أن يحدث كلّ ذلك نتيجة خبط عشواء أو مصادفة عمياء أو نتيجة تجارب عديدة تحتمل الخطأ والصواب؟

إنّ أيّ عقل قادر على التفكير لا بد أن يدرك أن هذا من المستحيل، كما ترفضه رفضاً باتاً نظرية الاحتمالات في العلوم الرياضية.

ففي حيوان (الأميبا) الدقيق الحجم المكون من خلية واحدة تتم عملية التغذية بطريقة غريبة، إذ تمتد منه أذرع تلتف حول المادة الغذائية الموجودة حوله في

الماء، والتي قد تكون حيواناً ضئيل الحجم أو نباتاً وحيد الخلية أصغر حجماً من الأميبا، والمواد الغذائية في هذه الحالة قد تكون متحركة إذا كانت حيواناً صغيراً، وقد تكون ثابتة إذا كانت نباتاً أولياً وحيد الخلية كبعض الطحالب.

ومن العجيب أنّ حيوان (الأميبا) البسيط التركيب الذي لا يوجد به مخ أو جهاز عصبي يستطيع التفرقة بين المواد الغذائية الثابتة والمواد الغذائية المتحركة، فإذا كان الغذاء حيواناً متحركاً، فإنّ أذرع (الأميبا) تمتدّ في حذر بعيداً عن الحيوان لكي لا يهرب، أما إذا كان الغذاء ثابتاً غير متحرك، فإنّ الأذرع تمتدّ حوله ملاصقة له بلا احتياط أو احتراس، إن المادة الغذائية في هذه الحالة لن تستطيع الهرب، فكيف يدرك هذه الأشياء حيوان ضئيل (كالأميبا) - لا تكاد تراه العين إلا من خلال عدسات الميكروسكوب - لا مخّ له ولا أعصاب أو عيون أو أية أعضاء للإحساس!.

فإذا أطبقت الأذرع على المادة الغذائية أصبحت في داخل الجسم محاطة بقطرة ماء، عند ذلك يبدأ جسم (الأميبا) في إفراز أنزيم هاضم حامض ليقتل الفريسة التي التهمتها (الأميبا) إذا كانت لا تزال على قيد الحياة، ثم تفرز (أنزيماً قلوياً)، ولذلك حكمة، إذ إنّ أهم (الأنزيمات) وهو (الأنزيم) الذي يهضم المواد (البروتينية) لا يعمل إلا في وسط قلوي».

٢٠- دوران الدم في جميع أجزاء أجسام الأحياء

ويحدثنا الدكتور يوسف عن الدورة الدموية قائلاً:

«والدورة الدموية في شعب وظائف الحيوانات المختلفة تتم بطرق عديدة، كما يختلف تركيب القلب في المجموعات المختلفة للحيوانات، ولكنها تؤدي إلى نتيجة واحدة، وهي دوران الدم في جميع أجزاء الجسم.

وإذا تأملنا تركيب القلب والجهاز الدوري في الإنسان، وفي عديد من الحيوانات، وجدنا أنّ القلب - ذلك العضو الرائع التصميم - يتكون من حجرات يُوصل بعضها مع بعض فتحات ذات صمامات، ووظيفة هذه الصمامات السماح للدم بالمرور في اتجاه واحد، وتمنع رجوعه في الاتجاه المضاد.

ونجد مثل هذه الصمامات في الأوعية الدموية الكبرى للغرض نفسه.

وشبكة الأوعية الدموية بأوردتها وشرايينها وشعيراتها الدموية تصميم مذهل، إنّ الشرايين تتفرع إلى أنابيب أصغر فأصغر، حتى تصبح شعيرات دموية رقيقة الجدران، والحكمة من رقة جدران الشعيرات الدموية هي إمكان تبادل غازي (الأوكسجين) من (هيموجلوبين) الكرات الدموية الحمراء، وينفذ إلى أنسجة الجسم، وفي الوقت نفسه ينفذ (ثاني أوكسيد الكربون) من الأنسجة إلى الشعيرات الدموية، فتلتقطه الكرات الحمراء، ثم تتجمع الشعيرات الدموية لتكوين أوردة تحمل الدم إلى الرئتين، حيث تتخلص الكرات الدموية من (ثاني أوكسيد الكربون)، وتلتقط (أوكسجيناً) جديداً وهكذا.

والقلب ينبض نبضات إيقاعية مدى الحياة، حيث تتمدد بعض حجراته وتنقبض حجرات أخرى دافعاً الدم النقي الحامل (للأوكسجين) في الأوعية الدموية، ومستقبلاً له بعد دورانه في الجسم محملاً (بثاني أوكسيد الكربون)، ليرسله إلى الرئتين حيث يتحمل (الأوكسجين)، ويتخلص من (ثاني أوكسيد الكربون).

ويتجول داخل جسم الإنسان، وعديد من الحيوانات الأخرى سوائل ذات وظائف محددة مثل الدم (واللمف). و(اللمف) وسيط بين الدم والأنسجة. وللدم وظائف عديدة، منها توصيل المواد الغذائية إلى جميع أجزاء الجسم،

وإذا لم يوجد الدم في أجسام بعض الحيوانات كالدودة الكبدية مثلاً، فإنّ تركيب الجسم في مثل هذه الحيوانات نجده مصمماً بحيث تتم عملية نقل الأغذية وغيرها بوسائل أخرى.

ويتكون الدم في أجسامنا وأجسام عديد من الحيوانات الأخرى، من سائل يسبح فيه عدد هائل من الخلايا المختلفة الأشكال والوظائف نطلق عليها أحياناً اسم الكرات الدموية الحمراء، والكرات الدموية البيضاء.

والكرات الحمراء - كما ذكرت - ذات وظيفة تنفسية، أما الكرات البيضاء فمتعددة الأشكال والوظائف، بعضها ملتهم، وظيفته التهام أي جرثومة تتسرب إلى جسم الإنسان أو الحيوان، فتلتهمها بطريقة تشبه التهام الأميبا لغذائها، ونحن نستنشق من الهواء ملايين الجراثيم طول النهار والليل، ولكنّنا لا نمرض كلّ يوم، لأنّ هذه الخلايا العجيبة السابحة في الدم، والتي من الممكن أن تخترق تيار الدم وتنفذ إلى الأنسجة في حالة الطوارىء تلتهم هذه الجراثيم وتقضي عليها، ولا يعترينا المرض إلا إذا ضعفت مقاومة الجسم لأيّ سبب من الأسباب، أي إذا ازداد عدد الجراثيم عن الحدّ المألوف».

٢١- تركيب الحواس في الأحياء

ويبين لنا الدكتور يوسف أن «لمعظم الحيوانات أعضاء للحس كحاسة الإبصار والشم واللمس والسمع، والتركيب الأساسي للعين يتشابه في جميع الثدييات وغيرها، وهو تركيب مذهل وشديد التعقيد، فللعين عدسة تستقبل الضوء، وفتحة ينفذ الضوء من خلالها ؛ ليخترق العدسة، وتلك الفتحة التي ينفذ منها الضوء في العين تتسع تلقائياً في الضوء الخافت، وتضيق تلقائياً إذا

كان الضوء شديداً، والحكمة من ذلك واضحة، ففي حالة الضوء الخافت تحتاج عملية الإبصار إلى كمية كبيرة من الضوء، أمّا في حالة الضوء الشديد فتكفي كمية قليلة منه لكي تتضح الأشياء المرئية.

والعين ترى الأشياء في ضوء خافت، ولم يتمكن عقل الإنسان من اختراع آلة تصوير يمكنها التقاط صور المرئيات في مثل هذا الضوء.

وكما أنّ النحل قادر على رؤية الأشعة فوق البنفسجية، فإنّ البومة في إمكانها رؤية الأشعة تحت الحمراء التي لا نراها، وهي أشعة حرارية، ولذا فالبومة تستطيع أن تبصر الفأر في الظلام الدامس عن طريق الأشعة الحرارية تحت الحمراء التي تشع من جسده الدافىء.

وينفذ شعاع الضوء من العدسة ليقع على الشبكية عند قاع العين، وتتكون الشبكية من تسع طبقات مختلفة، ولا تزيد في مجموعها عن سمك ورقة رقيقة، والطبقة التي في أقصي قاع العين تتكون من ملايين من الأعواد والمخروطات منتظمة في تناسب محكم يمكنها أن تميز الألوان. ويتولى العصب البصري نقل هذا الإحساس إلى مركز معين في المخ يترجم الإحساس إلى صورة مرئية تبصرها العين بوضوح.

وتلك التنظيمات العجيبة للعدسات والأعواد والمخروطات والأعصاب لا بدّ أن تكون قد حدثت في وقت واحد. . إذ إنه إذا لم توجد جميعها معاً في وقت واحد فإنّ الإبصار يصبح مستحيلاً، فكيف استطاعت جميع هذه العوامل أن يُكمّل بعضُها بعضاً في وقت واحد؟

إن العلوم الرياضية تقول لنا: إن حدوث هذه الأشياء دفعة واحدة عن طريق المصادفة أمر مستحيل، إن آلة التصوير التلفزيونية ما هي إلا محاكاة بدائية لعملية الإبصار التي تتم عن طريق العين، بل كل ما ابتكره الذهن البشري من

اختراعات ما هو سوى محاكاة بدائية لما هو موجود في الخلق، وإذا كانت آلة التصوير البسيطة يلزمها فكر وعقل لابتكارها، فهل من المعقول أن تكون العين في الإنسان وغيره من الحيوانات تكونت عن طريق المصادفة؟

ومن العجيب أنّ كلّ من هو في حاجة إلى الإبصار من الحيوانات خلق الله له عيوناً يرى بها، ولو أنّ تلك العيون قد تختلف في تركيبها عن عيوننا اختلافاً كبيراً، ولكنّها توصل إلى الهدف نفسه وهو الإبصار، فنجد في دودة الأرض مثلاً خلايا في جلدها ذات حساسية للنور والظلام، وهذا هو كلّ ما تحتاج إليه مثل هذه الدودة التي تعيش في الأنفاق من الطين داخل التربة.

وللحشرات عيون تختلف في تركيبها عن عين الإنسان أو القرد أو البقرة أو السلحفاة أو السمكة، ولكن على الرغم من هذا الاختلاف إلا أن الحشرات ترى بها الأشياء التي تنظر إليها، واختلاف الوسائل مع تشابه الهدف لا يمكن أن يأتي عن طريق المصادفة؛ بل يأتي نتيجة لتخطيط يقصد من ورائه الوصول إلى هدف معين.

ولقد منح الله كلّ كائن حيّ من الحواس والإدراك على قدر حاجته فالذبابة المنزلية مثلاً بحاجة إلى عين ترى بها الغذاء، وتدرك أيّ حركة يقصد بها الاعتداء على حياتها؛ ولذا فقد زودها الخالق كما هي الحال في معظم الحشرات بزوج من العيون المركبة؛ إذ إنّ كلّ عين من هذه العيون مكونة من مئات الوحدات المتشابهة المتراصة بعضها بجوار بعض، كلّ وحدة من هذه الوحدات ترى نقطة من الشيء المرئي، وتتجمع هذه النقط فترى الذبابة الشيء كاملاً، كما زودها خالقها بنوع آخر إضافي من العيون نسميه العيون البسيطة، إذ توجد ثلاثة من هذه العيون البسيطة عند قمة رأسها، وظيفتها إدراك أيّة حركة، وهذه العيون هي التي تجعل الإمساك بالذبابة يكاد يكون في حكم المستحيل».

٢٢- كيفية تصميم العظام والمفاصل

والعظام في أجسامنا وأجسام عديد من الحيوانات نحركها عند المفاصل، فتنقبض عضلات معينة وتنبسط عضلات أخرى في الوقت نفسه في توافق عجيب، فتتحرك اليد أو الساق أو الأصبع وغيرها في الاتجاه الذي يرغب فيه الإنسان أو الحيوان، وتركيب المفاصل مصمم بشكل يسمح بالانزلاق، فلا يشعر الحيوان بأي احتكاك.

كما أن تصميم الفقرات في العمود الفقري من شأنه تحمل الضغط، وتجنب الاحتكاك، وترابط الفقرات مع بعضها، فهو مصمم تصميماً مذهلاً، ويحيط العمود الفقري بالحبل العصبي لحمايته، كما تحمي الجمجمة المخ الذي بداخلها، وتنفذ الأعصاب من الحبل العصبي من خلال ثقوب بالفقرات، وجميع هذه التصميمات لا بدّ أن تكون قد تكونت في وقت واحد، إذ لو اختل جانب منها لأصبحت حركة الحيوان غير ممكنة، فهل من المعقول أن تحدث كل هذه الترتيبات في وقت واحد نتيجة مصادفة؟

٢٣- الحكمة في تجلط الدم

ومن المعروف أنّه إذا حدث جرح في أجسامنا فإنّ الدم الذي يخرج من الأوعية الدموية المجروحة لا يلبث أن يتجلط عند مكان الجرح، وهذا تصميم مقصود له حكمته إذ إنّ الدم المتجمد يقفل الوعاء الدموي المجروح، فيوقف بذلك استمرار تدفق الدم من الجرح، ولو لم يحدث هذا التجلط لظلّ الدّم ينزف حتى الموت.

ومما يدلّ على أنّ هذا تدبير مقصود من الخالق لحفظ الكائن الحي أنّنا نجده يحدث بطرق متباينة في الحيوانات المختلفة، ولكنّ النتيجة في جميع الحالات واحدة، ففي معظم الحشرات إذا جرح جسم حشرة كالصرصار مثلاً، فإنّ عدداً من الخلايا يتجمع، ويكون سدادة تقفل الجرح حتى لا ينزف الدم، بينما نجد أنّ الدم يتجلط في بعض الحشرات كما يتجلط دمنا.

والوصول إلى هدف معين بطرق مختلفة.. كما سبق أن ذكرت... دليل قاطع على وجود خالق يدبر ويقدر بشتى الطرق للتوصل إلى نتيجة معينة يكون من شأنها حفظ الكائن الحي.

٢٤- قرنا الاستشعار عند البعوض

ولا يمكن أن يكون عن طريق المصادفة أن قرني استشعار ذكر البعوض به شعيرات أطول من تلك التي في قرني استشعار أنثاه، وكان الاعتقاد فيما مضى أنّ هذه الشعيرات الطويلة مظهر من مظاهر الزينة، لكي يبدو الذكر جميلاً في عين الأنثى، ولكن اتضح أنّ هذه الشعيرات التي في قرني استشعار الذكر قادرة على التقاط أصوات خاصة تحدثها أنثى البعوض وهي بعيدة عن الذكر بعداً شاسعاً، وأصوات الأنثى هذه ذات موجات خاصة تشبه إلى حد كبير موجات الإذاعة.

ويحرك الذكر قرني استشعاره في شتى الاتجاهات كما نحرك نحن هوائي التلفزيون لتصبح الصورة الملتقطة أكثر وضوحاً، وفي وضع خاص يلتقط قرنا الاستشعار صوت الأنثى واضحاً، وعن طريق زاوية قرن استشعاره يدرك الذكر غريزياً مكان الأنثى التي تحدث الصوت، فيطير نحوها بأقصى سرعته حيث يتم التزاوج بينهما.

وهكذا نرى أنّ البعوض قد منحه خالقه هذه القدرة العجيبة التي تمكنه من إدراك صوت الأنثى البعيدة عنه بعشرات « الأمتار » على الرغم من وجود أصوات أخرى عديدة يموج بها الجو، ولو لم يحدث ذلك لما تمكن الذكر من العثور على الأنثى بسهولة، ولما تمكن البعوض من البقاء جيلاً بعد جيل.

إنها محطة استقبال إذاعي في قرني استشعاره استخدمها البعوض قبل أن يتمكن الإنسان من التوصل إلى أسرار الإرسال اللاسلكي بملايين السنين، فهل يمكن أن يحدث مثل هذا عن طريق مصادفة عمياء؟

٢٥- حيوانات تومض في الظلام

ومن الحشرات ما تنبعث من أنثاها أضواء تومض في الظلام ومضات ذات تردد معين يميزها ذكر هذا النوع من الحشرات بالذات، ولا تختلط عليه مع ومضات ضوئية لحشرات أخرى ذات تردد مختلف. عندما يرى الذكر هذه الومضات التي لا تكاد تدركها عيوننا يطير إلى أنثاه، فيحدث التزاوج ليستمر بقاء النوع.

إن العلوم الرياضية تثبت أنّ مثل هذا التنظيم والترتيب لا يمكن مطلقاً أن يكون من صنع «طبيعة» لا عقل لها، بل هو تخطيط من صنع خالق يعلم ماذا يصنع ويرتب ويقدر أروع تقدير لبلوغ هدف معين.

٢٦- عملية الهضم في الحيوان

ونحن نعلم أن تقطيع الطعام إلى أجزاء صغيرة أمر ضروري لتسهيل عملية الهضم، والأسنان ذات تركيب وتنظيم متباين في الحيوانات المختلفة، ولكنّها تؤدي الوظيفة نفسها وهي تقطيع الطعام.

وترتيب الأسنان في الإنسان ترتيب مذهل إذ توجد قواطع وأنياب وأضراس مرتبة ترتيباً خاصاً يجعل لكلّ نوع منها وظيفة معينة. ولا توجد أسنان للحيوانات التي لا تحتاج إليها، كتلك التي تتغذى على السوائل حيث تزود بوسائل خاصة لارتشاف الغذاء السائل وتوصيله إلى القناة الهضمية. وفي أثناء المضغ في الحيوانات ذات الأسنان تفرز الغدد اللعابية إفرازها ليختلط بالغذاء حيث تبدأ عملية هضمه.

وفي المعدة والأمعاء - كما ذكرت فيما سبق - يفرز الحيوان (أنزيمات) يؤثر كلّ واحد منها في نوع معين من الغذاء، ولا يؤثر في الأنواع الأخرى.

٢٧- تكون الجنين

وعملية تكوين الجنين في أي حيوان عملية مذهلة، يكتفي العلم بملاحظة وشرح خطواتها، ولكنّه يقف عاجزاً عن معرفة كنهها، والقوى التي تدفع بها نحو هدف محدود هو تكون جنين لحيوان معين.

تبدأ هذه العملية بانجذاب الخلية الذكرية (الحيوان المنوي للذكر) نحو الخلية الأنثوية (بويضة الأنثى) فتتكون الخلية الملقحة، وتبدأ الخلية الملقحة بعد ذلك في الانقسام بوساطة قوة عجيبة كامنة فيها، فتصبح الخلية خليتين، ثم أربع خلايا، ثم ثماني خلايا، وهكذا.. حتى يصل عدد الخلايا إلى حد معين، فتصبح على هيئة كرة جوفاء جدارها مكون من طبقة واحدة من الخلايا، ثم ينغمد نصف الكرة داخل النصف الآخر، فتصبح ذات جدارين خلويين.

وفي معظم الحيوانات - ومنها الإنسان - تتكون بين الطبقتين طبقة خلوية ثالثة، وتستمر الخلايا في الانقسام، فتتكون من كلّ طبقة من الطبقات الثلاث أعضاء معينة.

فمن الطبقة الخارجية يتكون الجلد والجهاز العصبي، وبعض أجزاء أخرى، ومن الطبقة الوسطى تتكون العضلات والعظام، ومن الطبقة الداخلية تتكون بعض أجزاء الجهاز الهضمي، ويستمر انقسام الخلايا، حتى يتم تكوّن الجنين داخل الرحم في الحيوانات الثديية أو داخل البيضة في الحيوانات التي تبيض، وعند اكتمال تكوين الجنين يلفظ الرحم ذلك الجنين خارج الجسم في الحيوانات الثديية، ويكسر البيضة ويخرج منها في الحيوانات التي تضع بيضاً.

٢٨- تركيب الأذن

وتركيب الأذن في الإنسان وفي عدد من الحيوانات الأخرى لا يمكن لأي عاقل أن يتصور حدوثه عن طريق المصادفة، فللأذن طبلة تستقبل الموجات الصوتية فتتذبذب، وهذه الذبذبات تؤثر في ثلاث عظام دقيقة مرتبة ترتيباً رائعاً. والضغط على جانبي الطبلة ينبغي أن يكون متساوياً، ولهذا الغرض تمتد أنبوبة خلف الطبلة توصل إلى تجويف الأنف، ويصل بالجزء الداخلي للأذن عظمة تشبه القوقعة في شكلها، ووظيفتها تحليل الصوت، وتمييز الأنغام المختلفة، كما أنّ من وظيفتها أيضاً إحداث الاتزان، إذ لولاها لما استطعنا أن نخطو خطوة واحدة دون أن نترنح ونسقط.

وتنتقل الذبذبات بعد ذلك عن طريق الأعصاب إلى مركز السمع بالمخ، ليدرك الإنسان أو الحيوان سماع الأصوات المختلفة بعضها عن بعض. هل يمكن أن يحدث كل هذا في وقت واحد عن طريق المصادفة؟ إن نظرية الاحتمالات في العلوم الرياضية تنفي إمكان ذلك نفياً قاطعاً.

٢٩- ديدان الفلاريا

وتحدث في الكائنات الحية أشياء عجيبة، لا تعد ولا تحصى، تدلّ على وجود قوة عليا ترتب وتقدر لاستمرار بقاء الكائنات، أشياء لا يمكن أن تحدث عن طريق المصادفة، منها مثلاً: ما يحدث في دورة حياة الديدان التي تسبب المرض المسمى بمرض الفيل، وهي التي نسميها ديدان (الفيلاريا).

تغيض هذه الديدان في طورها الكامل في الأوعية اللمفاوية والغدد اللمفاوية للإنسان، وتسد الأوعية اللمفاوية، فتسبب تضخم بعض الأعضاء، وعلى الأخص الساقين أو إحداهما، حيث تصبح ساق الإنسان في حجم ساق الفيل.

وتتزاوج هذه الديدان في أثناء وجودها داخل الأوعية اللمفاوية للإنسان، وتنتج ديداناً صغيرة تنتقل من الأوعية اللمفاوية إلى الأوعية الدموية، وإذا بقيت هذه الديدان في الأوعية الدموية للإنسان فإنها تعجز عن إتمام دورة حياتها إذ لابد لها من أن تنتقل إلى جسم بعض أنواع البعوض لكي تتم تلك الدورة، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان، فإذا امتصت البعوضة دم إنسان مصاب فإنّها تمتص مع الدّم عدداً من هذه الديدان الصغيرة التي تنمو داخل جسم البعوض حتى يكتمل نموها، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان إذا حقنتها البعوضة في دمه في أثناء عملية امتصاصها لدم الإنسان الذي تتغذي عليه.

ولقد حاول العلماء الحصول على هذه الديدان من دم المصابين بهذا المرض ولكن جميع محاولاتهم كانت تبوء بالفشل إلى أن حدث شيء عجيب.

في إحدى الليالي كان أحد العلماء ساهراً في معمله حتى ساعة متأخرة من الليل، فأخذ عينة من دم إنسان مصاب وفحصها تحت الميكروسكوب، وفوجيء بعدد هائل من هذه الديدان في العينة التي أخذها، وفي أثناء النهار في

اليوم التالي أخذ عينة من المصاب نفسه فلم يجد للديدان أثراً، احتار في تفسير هذه الظاهرة العجيبة، لماذا توجد هذه الديدان في عينة الدم إذا أخذها من المصاب ليلاً، ولا تظهر إذا أخذها نهاراً؟

واتضح أنّ تلك الديدان الصغيرة تهرب إلى الأوعية الدموية الداخلية في أثناء النهار، ثم تعود إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد في أثناء الليل، والحكمة من ذلك هي أنّ البعوض الذي يتغذى على دم الإنسان في هذه الأماكن لا ينشط إلا في أثناء الليل؛ ولذا فإنّ الديدان تنتقل إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد؛ لكي يتمكن البعوض من امتصاصها مع الدم لتتم دورة حياتها داخل جسم البعوضة، ومن الطبيعي أن هذه الديدان لا تدرك شيئاً ولا تعلم شيئاً عن البعوض التي ستتم دورة حياتها داخل جسمه؛ بل تفعل هذا عن غريزة، أي أنّ هناك قوة عليا تملي عليها هذا التصرف لكي تستمر حياتها.

ومن العجيب أنّه في الأماكن التي تنشط أنواع البعوض التي تمتص الدّم نهاراً ولا تنشط ليلاً نجد أنّ الديدان تفعل العكس، حيث تبقى في الأوعية الدموية الداخلية ليلاً، وتهاجر إلى الأوعية الدموية نهاراً، ليتمكن البعوض في هذه الحالة أيضاً من امتصاصها مع الدم، فهل من الممكن أن يحدث هذا عن طرق المصادفة؟

٣٠- مغناطيسية الأرض

إذا تركنا تركيب الكائنات الحية وما فيه من إعجاز تتيه فيه العقول، وتأملنا في الكون الرحب وجدنا عجباً، أولى هذه العجائب المغناطيسية الكامنة في الكرة الأرضية، وهي التي تربطنا بالأرض، وتمنعنا من أن نتبعثر في الفضاء في أثناء دورانها.

هذه المغناطيسية تختلف عن المغناطيسية التي نجدها في القضيب المغناطيسي. . .، إننا نعلم أنّ القضيب المغناطيسي قادر على جذب بعض الأشياء، ولكنّه يعجز عن جذب أشياء أخرى كاللحم والورق والزجاج والحجارة والرمل والماء وغيرها. . .، ولكن مغناطيسية الأرض تجذب كلّ شيء، تجذب أجسامنا، وتجذب الزجاج والرمل والماء والحجارة والورق، إذ لو لم تجذب الأرض إليها هذه الأشياء لما بقي على سطحها شيء.

٣١- أحجام الأجرام السماوية وأبعادها ومداراتها

ولقد ذكر (فردهويل) أستاذ الفلك بجامعة لندن في كتابه (طبيعة الكون) أن من الكواكب ما يبلغ حجماً مذهلاً لا يكاد يتصوره العقل، إذ تبدو الكرة الأرضية بالنسبة لأحد هذه الكواكب العملاقة كحبة الرمل.

يقول العالم الأمريكي الكبير(كريستي موريسون) الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك: «إنّ وضع الأجرام السماوية ليس مجرد مصادفة عشواء؛ بل هي موضوعة في الفضاء بحسبان؛ إذ إن القمر مثلاً لو كان أقرب إلى الأرض بمقدار ربع المسافة التي تفصلنا عنه لأصبح المد والجزر عنيفين حيث يغرق المد جميع أجزاء اليابسة، فتموت غرقاً جميع حيوانات اليابسة نتيجة لذلك، كما أن محور الأرض لو لم يكن منحرفاً بمقدار نحو ثلاث وعشرين درجة لترتب على ذلك وجود ليل دائم عند القطبين، وتكوّن من بخار ماء المحيطات كميات هائلة من الجليد تضغط على القطبين فيتفرطح خط الاستواء، ويقل هطول الأمطار بدرجة تجعل الحياة مستحيلة على الكرة الأرضية.

وتبلغ سرعة دوران الأرض نحو ألف ميل في الساعة، فلو فرضنا أنها تدور بسرعة مائة ميل في الساعة فقط، لطال كل من الليل والنهار، وترتب على ذلك

أن جميع النباتات والحيوانات تحترق نهاراً من شدة الحرارة، وتَتجمد ليلاً من شدة البرد ».

وفي كتاب ضخم للدكتور جود أستاذ الفلسفة بجامعة لندن تناول بالدراسة ضمن ما تناوله شتى احتمالات نشأة الكون، ونشأة الحياة من الوجهة العلمية والفلسفية، وخلص من هذه الدراسة المستفيضة إلى أن الكون لا بد أن يكون نشأ نتيجة لعملية خلق رائعة،وصدق الله إذ يقول: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

المبحث الثاني
التعرف إلى الله من خلال النصوص

(مباحث الصفات والأسماء)

ذكرنا أن السبيل الثاني الذي يعرفنا بالله هو النصوص القرآنية والحديثية التي تتحدث عن الله حديثاً مباشراً مبينة صفاته وأسماءه وأفعاله.

وهذا السبيل سبيل نيّر مأمون العواقب ؛ لأن التعرف إلى الله من خلال كلامه وكلام رسوله لا يبقي مجالاً للشك والالتباس.

وقد حرصنا على أن نسوق النصوص ذاتها في أكثر الموضوعات ؛ فإنها أقدر على التعبير والتوضيح من نصوص البشر وكلامهم، كما حرصت على ألا أزيف النصوص بالتأويل والتحريف كما فعل كثير من السابقين كي توافق آراء البشر ومقاييسهم، والواجب أن يغير البشر من آرائهم ومقاييسهم كي توافق النصوص.

المطلب الأول: مدى إدراك العقل لصفات الله

صفات الله التي جاء بها القرآن وتحدثت عنها السنة النبوية قسمان:

الأول: ما لا يستطيع العقل الإنساني التعرف عليه وإدراكه بنفسه، أي من غير طريق النصوص كإثبات اليد والوجه لله.

الثاني: ما يمكن أن يستدلّ عليه بالعقل كاتصافه بالقدرة والحكمة، ونحن

لن نستقصي ذكر صفات الله، ولكن سنذكر جملة منها توضح المراد، وتحرر المقصود، وتعطي تصوراً وافياً إن شاء الله تعالى.

المطلب الثاني

جملة من الصفات التي جاءت بها النصوص

١ - لله ذات

لله - سبحانه - ذات متصفة بصفات الكمال منزّهة عن صفات النقص، والذي يقرأ حديث القرآن عن الله يعلم علماً قاطعاً بأنّ له ذاتاً ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[الإخلاص]، وعندما أراد الكفار قتل خبيب أنشد[1]:

ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً ... على أيّ شقٍّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلوٍ ممزّع

وذات الله لا تشبه ذوات المخلوقين، كما أنّ صفاته لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فالله هو الكمال الذي لا كمال بعده، وكلّ مخلوق لا بدّ أن يكون فيه نقص في جانب من الجوانب، أدناها حاجته وفقره إلى غيره.

يقول تعالى نافياً المشابهة بينه وبين خلقه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

(١) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١٣/ ٣٨١.

٢- نفسه سبحانه

لله تعالى نفس تليق بكماله وجلاله، لا تشبه نفوس المخلوقات، وقد أخبرنا الله بذلك في محكم كتابه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فقد أخبر -سبحانه- أنّ له نفساً، وأنّه كتب على نفسه الرحمة، ونصّ الله على ذلك في آية أخرى ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الأنعام: ١٢].

وقد فسرّ الرسول ﷺ شيئاً من هذه الكتابة، ففي الحديث الذي يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: (لمّا قَضى الله الخلقَ كَتبَ كتاباً، فهو عنده فوق العرش: إنّ رحمتي تسبق غضبي)، وفي رواية (تغلب غضبي)، متفق عليه[(١)]، وإثبات النفس لله منهج الرسل من قبل، فهذا عيسى يقول لرب العزة: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال الله لرسوله موسى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ * وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤٠-٤١].

وقد حذرنا الحقّ نفسه فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

والله يذكر عباده في عباده الذين يذكرونه في أنفسهم، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة أنّ الرسول ﷺ قال: (يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم)[(٢)].

---

(١) مشكاة المصابيح ١/٧٢٦، ورقمه: ٢٣٦٤. صحيح البخاري: ٣١٩٤، ٧٤٠٤. وصحيح مسلم: ٢٧٥١.

(٢) صحيح البخاري: ٧٤٠٥. وصحيح مسلم: ٢٦٧٥.

وذكر الله يرضي نفس ربنا تبارك وتعالى، ففي حديث مسلم عن ابن عباس عن جويرية: أنّ النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح، وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: (ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟). قالت: نعم.

قال النبي ﷺ: (لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته)[1].

٣- وجه ربنا سبحانه

لله - سبحانه - وجه لا يشبه وجوه المخلوقين، نصدّق بذلك ونؤمن به؛ لأنّ الله أخبرنا بذلك في كتابه، ونصّ عليه الرسول ﷺ في أحاديثه.

قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، يقول ابن جرير عند تفسيره لهذه الآية: و﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ من نعت الوجه، فلذلك رفع (ذو)[2].

وقد نفى بعض السابقين إثبات الوجه لله تعالى، وزعموا أنّ الوصفَ بقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ إنمّا هو للرب فالمنعوت بـ ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ عندهم الربّ لا الوجه.

وقد ردّ هذا الزعم الإمام ابن خزيمة، فقال : «هذه دعوى يدّعيها جاهل بلغة العرب، لأنّ الله - جلّ وعلا - قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فذكر الوجه مضموماً في هذا الموضع مرفوعاً، وذكر الرب بخفض الباء بإضافة

---

(١) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٩٠، ورقمه: ٢٧٢٦.

(٢) تفسير الطبري: انظر تفسير آية رقم: ٢٧ من سورة الرحمن.

الوجه، ولو كان قوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ مردوداً إلى ذكر الرب في هذا الموضع لكانت القراءة ذي الجلال والإكرام مخفوضاً...»[1].

ومن النصوص التي جاء فيها إثبات الوجه لله قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

أثر الإيمان بوجه الله تعالى

أ- قصد وجه الله بصالح الأعمال

إذا علمنا ما قرره الله فعلينا أن نقصد وجه ربنا بأعمالنا كما أرشد الله إلى ذلك في محكم كتابه، فالعمل الذي لا يقصد به وجهه باطل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

ومن ذلك إنفاق المال ابتغاء وجهه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وقد وصف عباده الصالحين بأنهم يريدون بعملهم وجهه، ولا شيء غير وجهه ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٩-٢٠]، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

وفي الصحيحين من حديث عتبان بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: (فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)[2].

---

(١) التوحيد، لابن خزيمة: ص: ٢١.

(٢) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري: ١/٥١٩، ورقمه: ٤٢٥، وصحيح مسلم: ١/٤٥٥.

ب - الاستعاذة بوجهه سبحانه

وقد فعل ذلك الرسول ﷺ فقد روى جابر بن عبد الله أنّه «لما نزلت هذه الآية: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال النبي ﷺ: (أعوذ بوجهك) فقال: ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾[الأنعام: ٦٥]، فقال النبي ﷺ: (أعوذ بوجهك)، قال: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥] فقال النبي ﷺ: (هذا أيسر)[١].

وعن علي بن أبي طالب: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند مضجعه: (اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم، وبكلماتك التامات من شرّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها). رواه أبو داود[٢].

جـ - إجابة من سألك بوجه الله

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (من استعاذ بالله فأعيذُوهُ، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه)[٣].

د - الطمع في رؤية وجه الله

عن عمار بن ياسر أن الرسول ﷺ كان يدعو فيقول: (اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي.

---

(١) صحيح البخاري: ١٣/ ٣٨٨. ورقمه: ٧٤٠٦.

(٢) جامع الأصول: ٤/ ٢٧١. ورقمه: ٢٢٦٣، وإسناده حسن، كما ذكر محقق جامع الأصول.

(٣) رواه أبو داود في سننه، انظر صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٩٦١، ورقمه: ٤٢٦٠، وقال الألباني فيه: حسن صحيح، والأسماء والصفات، للبيهقي: ١/ ٣٠٦.

اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة.

وأسألك كلمة الحق والعدل في الغضب والرّضا.

وأسألك القصد في الفقر والغنى.

وأسألك نعيماً لا يبيدُ.

وأسألك قرة عين لا تنقطع.

وأسألك الرضا بعد القضاء.

وأسألك برد العيش بعد الموت.

وأسألك لذة النظر إلى وجهك.

وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة.

اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين)[1].

وقد فسر النبي ﷺ الزيادة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس:٢٦] بأنها النظر إلى وجه ربنا عزّ وجلّ، ونقل القول بذلك عن أبي بكر وحذيفة ثم قال: (الآثار في معنى هذا عن الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - كثيرة)[2].

وروى مسلم في صحيحه عن صهيب عن النبي ﷺ قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزّ وجل) ثمّ تلا هذه الآية:

---

(١) رواه ابن خزيمة في التوحيد: ص:١٢، والنسائي في سننه: انظر صحيح سنن النسائي: ١/ ٢٨٠، ورقمه: ١٢٣٧، ١٢٣٨، وإسناده صحيح.

(٢) الأسماء والصفات، للبيهقي: ص:٣٠٨.

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦][١].

وقد جاء في الصحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال: (جنتان من فضة: آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب: آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدن)[٢].

حجاب وجهه تبارك وتعالى:

عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله - عزّ وجلّ - لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عمل الليل، حِجَابُهُ النور (وفي رواية أبي بكر: النار) لو كشفه لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)[٣].

وهذا التردد من الراوي في لفظ النّور والنّار لا يضرّ، فإن مثل هذه النّار الصافية التي كلم الله بها موسى يقال لها: نور ونار كما سمّى الله نار المصباح نوراً، بخلاف النّار المظلمة كنار جهنّم فتلك لا تسمى نوراً.

وهذه الحجب تحجب العباد عن الإدراك، كما قد يحجب الغمام والسقوف عنهم الشمس والقمر، فإذا زالت تجلت الشمس والقمر، وليس المراد أنها تحجب الله عن الرؤية، فهذا لا يقوله مسلم، فإنّ الله لا يخفى عليه شيء في السماء ولا في الأرض، ولكن يحجب أنواره إلى مخلوقاته. كما قال: (لو

(١) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦٣، ورقمه: ١٨٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/ ٤٢٣، ورقمه: ٧٤٤٤، ورواه أيضاً في: ٨/ ٦٢٣، ورقمه: ٤٨٧٨، بلفظ مقارب، ورواه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦٣، ورقمه: ١٨٠، ورواه ابن خزيمة بلفظ: (وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى وجه ربهم)، وقال محقق كتاب التوحيد معلقاً على الحديث: ورواه البيهقي في الأسماء والصفات ص: ٢٢٢.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ١٦١، ورقمه: ١٧٩.

كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) فالبصر يدرك الخلق كلهم، وأما السبحات فهي محجوبة بحجابه النور أو النّار.

٤- لله سبحانه يدان

ولله - سبحانه وتعالى - يدان تليقان بجلاله وكماله، لا تشبهان شيئاً من أيدي المخلوقين، قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقال مقرّعاً إبليس حين رفض السجود لآدم: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥].

تمجيد الله بذكر يديه:

وردت أحاديث عديدة فيها تمجيد الرب - تبارك وتعالى - بذكر يديه، وأن الخير فيهما، فأهل الجنة يناديهم ربهم فيقول لهم: (يا أهل الجنّة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك)[١].

وينادي ربنا آدم عليه السلام يوم القيامة، فيقول آدم مجيباً: (لبيّك وسعديك، والخير كله في يديك)[٢].

وكان من دعاء الرسول ﷺ إذا قام إلى الصلاة من الليل: (لبيك وسعديك، والخير في يديك)[٣].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/ ٤٨٧، ورقمه: ٧٥١٨.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ١١/٣٨٨، ورقمه: ٦٥٣٠، وانظر أيضاً: ٦/ ٣٨٢. رقم: ٣٣٤٨. ورواه مسلم: ١/ ٢٠١. ورقمه: ٢٠١.

(٣) رواه مسلم: ١/ ٥٣٤، ورقمه: ٧٧١.

وكان من تلبية ابن عمر: «لبيك وسعديك، والخير في يديك»[1].

بسط الربّ يديه:

وهو - سبحانه - كريم يبسط يديه بالعطاء والإنفاق ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

كما أنّه يبسط يديه بالليل والنهّار ليتوب العباد، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إن الله يبسط يده بالليل، ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها)[2].

الأشياء التي خلقها الرحمن بيده:

لا يعجز الله شيء، فإذا أراد شيئاً خلقه بكلمة (كن)، فيكون كما أراد، إلا أنّه خلق بيده أشياء مما يدلّ على تكريمها، ورفع منزلتها، وعناية الله بها، والمخلوقات التي خلقها الله بيده، وذكرها لنا في كتابه أو وردت في سنة رسوله هي:

أ- آدم:

وفي ذلك يقول تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وفي حديث الشفاعة الطويل: (فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس،

(١) رواه مسلم: ٨٤١/٢، ورقمه: ١١٨٤.

(٢) صحيح مسلم: ٢١١٣/٤، ورقمه: ٢٧٦.

خلقك الله بيده، وأسكنك جنته) متفق عليه[1].

وفي حديث احتجاج آدم وموسى، قال موسى لآدم: (أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من رُوحه)[2].

فأخبر الحقّ - تبارك وتعالى - أنه خلق آدم بيده، وأخبر الرسول ﷺ أنّ الناس يستشفعون إلى آدم، ويذكرون أعظم ما فضله الله به، وهو خلق الله له بيده، وكذلك موسى عليه السلام ذكر ما فَضّلَ الله به آدم، وهو خلقه بيده، وذكر هذه الخصوصية تدل على أمر امتاز به آدم عن غيره، وإلا فلو كانت اليد هنا القدرة فأي فضل لآدم على غيره، حتى يمتدح بذلك.

ب - كتب التوراة بيده:

ورد في بعض روايات حديث المحاجّة بين آدم وموسى، أن آدم قال لموسى: (أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخط لك التوراة بيده)[3]. وفي رواية في الصحيحين: (اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده)[4].

جـ - كتب بيده كتاباً موضوعاً عنده:

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (لما قضى الله الخلق كتب كتاباً عنده: غلبت - أو قال: سبقت - رحمتي غضبي، فهو عنده فوق العرش).

وفي رواية: (إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق: أن رحمتي سبقت غضبي، فهو مكتوب عنده فوق العرش)[5].

---

(١) مشكاة المصابيح: ٣/ ٦٩، ورقمه: ٥٥٧٢.

(٢) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٤٣، ورقمه: ٢٦٥٢.

(٣) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨٩١، ورقم الحديث: ٣٩٣٤، وصحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٢٠، ورقمه: ٦٥.

(٤) صحيح البخاري: ١١، ورقمه: ٦٦١٤، وصحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤٢، ورقمه: ٢٦٥٢.

(٥) صحيح البخاري: ١٣/ ٥٢٢، ورقمه: ٧٥٥٤. والحديث في صحيح مسلم: ٤/ ٢١٠٧، =

ورواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ: (كتب ربكم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق: رحمتي سبقت غضبي)[1].

ورد إثبات كتابة الرحمن الكتاب بيده في كتاب السنة لابن أبي عاصم، ولفظه: (لما قضى الله تعالى الخلق كتب بيده في كتاب عنده: غلبت أو قال: سبقت رحمتي غضبي، فهو عنده فوق العرش) أو كما قال[2].

د - غرس جنة عدن بيده:

ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: (سأل موسى ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال هو رجل يجيء بعدما أدْخل أهل الجنة الجنة، فيُقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب، وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من مُلوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربّ، فيقول: لك ذلك، ومِثلهُ ومِثلهُ ومِثلهُ، فقال في الخامسة: رضيت ربّ، فيقولُ: هذا لك، وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذت عينك فيقول: رضيت ربّ.

قال: ربّ فأعلاهُم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، قال: ومصداقه في كتاب الله -عزّ وجلّ- ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧][3]. فقد أخبر: أنه غرس جنتهم بيده سبحانه.

= ورقمه: ٢٧٥١.

(١) ابن ماجه. انظر صحيح سنن ابن ماجه: ١/ ٣٧، ورقمه: ١٥٦.

(٢) كتاب السنة، لابن أبي عاصم: ١/ ٢٧٠. ورقمه: ٦٠٨.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ١٧٦، ورقمه: ١٨٩.

عظم يدي الرب سبحانه وتعالى:

جاء في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (يقبض الله - تبارك وتعالى - الأرض يوم القيامة، ويَطوي السّماء بيمينِهِ، ثُمّ يقُول: أنا الملك، أين مُلوك الأرض)[١].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: (يطوِي الله -عزّ وجلّ- السّموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين الـمُتكبرون؟ ثمّ يطوي الأرضين بشماله، ثم يقولُ: أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون؟).

وفي لفظ قال: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: (يأخُذُ الجبار -عزّ وجلّ- سمواته وأرضيه بيديه، فيقول: أنا الله (ويقبض أصابعه ويبسطها) أنا الملك)، «حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفلِ شيء منه، حتى إنّي لأقول: أساقطٌ هو برسول الله ﷺ»[٢].

كلتا يديه - سبحانه - يمين:

ورد في رواية في صحيح مسلم: (ثم يطوي الأرضين بشماله) وقد ضعف هذه الرواية البيهقي من ناحية الإسناد فقال: «ذكر الشمال فيه، تفرد به عمر بن حمزة عن سالم، وقد روى هذا الحديث نافع وعبيدالله بن مقسم عن ابن

(١) رواه البخاري: ٨/ ٥٥١، ورقمه: ٤٨١٢، ورواه مسلم: ٤/ ٢١٤٨، ورقمه: ٢٧٨٧.

(٢) رواه مسلم: ٤/ ٢١٤٨، ورقمه: ٢٧٨٨.

عمر، لم يذكرا فيه الشمال»[1] .

وضعفها من ناحية المتن فقال: «وكيف يصِحّ ذلك وقد صحّ عن النبي ﷺ أنّهُ سمّى كلتا يديه يَميناً »[2].

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نُور على يمين الرحمن - عزّ وجلّ - وَكلتا يديه يمينٌ، الذين يعدِلون في حكمهم وأهليهم وما وُلوا)[3].

٥- أصابع الرحمن

ولله - سبحانه - أصابع لا تشبه شيئاً من أصابع المخلوقين، وهي تليق بكماله وجلاله سبحانه وتعالى، ففي صحيحي البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه: «أن يهودياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إن الله يمسك السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قرأ ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]».

وفي لفظ «فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً »[4].

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أنه سمع النبي ﷺ قال: (إن قُلوب بني آدم كُلها بين أصبعين من أصابع

---

(١) الأسماء والصفات، للبيهقي: ١/ ٣٢٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ٣/١٤٥٨، ورقمه: ١٨٢٧ .

(٤) رواه البخاري في صحيحه: ١٣/ ٣٩٣، ورقمه: ٧٤١٤. ومسلم: ٤/ ٢١٤٧. ورقمه: ٢٧٨٦ .

الرحمن كقلب واحد يصرّفه كيف يشاء)، ثم قال عليه الصلاة والسلام: (اللهم مُصرف القلوب صرف قُلوبنا إلى طاعتِكَ)[1].

٦- ما ذكر في القدم

عنون البيهقي بالعنوان السابق في كتابه (الأسماء والصفات: ٣٤٨) وذكر فيه عدة أحاديث:

١- منها الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: (لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد حتى يضع فيها ربّ العزّة قدمه، فتقول: قط قط وعزتك، ويُزْوَى بعضها إلى بعض) وفي بعض الروايات: (ولا يزال في الجنة فضلٌ حتى يُنْشىء الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة)[2].

٢- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (تحاجّت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والـمُتجبرين، وقالت الجنةُ: فما لي لا يدخُلني إلا ضُعفاء النّاس وَسقَطهُمُ وَغرّهُمُ، قال الله للجنّة: أنت رحْمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ،ولكُلّ واحدةٍ منكما ملؤُها، فأمّا النّار فلا تمتلىء حتى يضع الله - تبارك وتعالى - رجله، فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلىء وَيُزْوَى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأمّا الجنةُ فإنّ الله يُنشىء لها خَلقاً)[3].

---

(١) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٤٥، ورقمه: ٢٦٥٥.

(٢) صحيح البخاري: ٨/ ٥٩٤، ورقمه: ٤٨٤٨، ٤٨٤٩، ورواه مسلم: ٤/ ٢١٨٧، ٢١٨٨، ورقمه: ٢٨٤٨. واللفظ لمسلم.

(٣) صحيح البخاري: ٨/ ٥٩٥، ورقمه: ٤٨٥٠، ورواه مسلم: ٤/ ٢١٨٦، ورقمه: ٢٨٤٦، واللفظ لمسلم.

٣- وعن ابن عباس أنه قال في الكرسي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: (موضع القدمين)(١).

٧- لله سبحانه ساق

يجب علينا أن نصدق بذلك ولا نكذّبه، لأنّه -سبحانه- قد أخبرنا بذلك، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢] وقد ورد في الصحيحين ما يفسر هذه الآية ويوضحها، فعن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رئاء وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهرُهُ طبقاً واحداً)(٢).

وينبغي أن ننبه هنا إلى أن إثبات الساق لله كإثبات اليد والسمع والبصر وغيرها من الصفات، وما ورد عن ابن عباس أنه فسر كشف الساق بمعنى شدة الأمر معارض بما ثبت عن ابن مسعود أن ربنا يكشف عن ساقه(٣).

وما أحسن ما قاله الشوكاني حيث قال: «قد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً، فليس كمثله شيء»(٤).

---

(١) انظر مختصر العلو، للذهبي ص:١٠٢، وقال فيه محققه الشيخ ناصر الدين الألباني: صحيح موقوف، وعزاه إلى ابن خزيمة، في التوحيد: ٧١-٧٢، والدارمي في الرد على المريسي: ٧١، ٧٣-٧٤، وابن أبي شيبة، في العرش: ٢/ ١١٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ٦٦٤، ورقمه: ٤٤١٩، ورواه مسلم: ١/ ١٦٧، ورقمه: ١٨٣، واللفظ للبخاري.

(٣) فتح القدير للشوكاني: ٥/ ٣١٩.

(٤) المصدر السابق: ٥/ ٣٢٠.

وقد أورد ابن جرير الطبري وابن كثير تفسير ابن عباس كما أوردا روايات الحديث المفسر للنص القرآني، ولم يؤولا الحديث بحمله على غير ظاهره مما يدل على أنه لا تعارض عندهما بين الحديث وكلام ابن عباس، فإن الأمر شديد في يوم القيامة، ولا ينافي هذا أن يكشف عن ساقه.

٨- استواؤه على العرش

العرش أعظم المخلوقات كلها، وقد نصّ الله في سبعة مواضع من كتابه على استوائه على العرش بقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

والدليل على أنّ العرش مخلوق من مخلوقات الله قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧] أي في يوم القيامة، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] فقد أخبر أنّ للعرش حملة، وأنهّم يستغفرون للمؤمنين، وهذا ينفي قول من يقول إن العرش هو الملك.

وفي الحديث الذي يرويه البخاري: (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تُفجّرُ أنْهارُ الجنة)[١].

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تخيّروني على موسى، فإنّ الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانبي العرش، فلا أدري أكان موسى فيمن صعق، فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله)[٢].

---

(١) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٤، ورقمه: ٧٤٢٣.

(٢) صحيح البخاري: ١١/ ٣٦٧، ورقمه: ٦٥١٧، ٦٥١٨، والحديث في مسلم أيضاً: ٤/ ١٨٣٤، ورقمه: ٢٣٧٣.

وفي رواية في الصحيح عن أبي سعيد الخدري: (فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش)[1].

فكيف لا يكون العرش خلقاً من خلق الله وهو سقف الفردوس، وكيف يمكن لموسى أن يمسك بقائمة من قوائمه لو كان غير مخلوق !!

وقد أخبر الرسول ﷺ: (أن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه أن رحمتي سبقت غضبي)[2].

عِظَم العرش:

وصف الله العرش بأنه عظيم ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

وقد بين الرسول ﷺ عظمة العرش بوجهين من البيان:

الأول: بإخباره عن عظم الملائكة الذين يحملون العرش، ففي سنن أبي داود بإسناد صحيح إلى الرسول ﷺ: (أذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله، من حملة العرش: ما بين شحمة أذنِهِ إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام)[3].

والوجه الثاني: بين الرسول عِظَمَهُ بأن صوّر سعة العرش بالنسبة للسموات والأرض، وصغرهما بالنسبة إليه، قال ﷺ: (ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي، كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة)[4].

---

(١) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٥، ورقمه: ٧٤٢٧.

(٢) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٠٤، ورقمه: ٧٤٢٢.

(٣) صحيح سنن أبي داود: ٣/ ٨٩٥، ورقمه: ٣٩٥٣.

(٤) أخرجه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش، والبيهقي في الأسماء والصفات، وابن جرير وغيرهم، وهو صحيح بمجموع طرقه، انظر كلام الشيخ الألباني على إسناده في سلسلة الأحاديث الصحيحة، حديث رقم: ١٠٩.

تمجيد الله نفسه باستوائه على العرش وأنه ربّ العرش:

وقد امتدح الربّ نفسه بأنّه مستو على عرشه، كقوله ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى * ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ١-٥]. وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

وامتدح نفسه في أكثر من آية بأنه صاحب العرش ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥-١٦] ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

وامتدح نفسه بأنه رب العرش ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦].

ومن شعر عبد الله بن رواحة يمجد ربّه سبحانه وتعالى:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأنّ النّار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش ربّ العالمينا

وتحمله ملائكة كرام ... ملائكة الإله مسوّمينا

روى هذا الشعر ابن عبد البر في الاستيعاب، وقال: رويناه من وجوه صحاح.

معنى استوائه على العرش:

نحن نجهل كيفية استوائه سبحانه، لأننا نجهل كيفية ذاته، ولكنّنا نعرف

معنى استوى في لغة العرب، فالعرب عندما يُعدّون استوى بـ«على» يقصدون بهذه الكلمة معاني أربعة هي: استقر، وعلا، وارتفع، وصعد، كما حقق ذلك ابن القيم[1].

وقد نقل أبو الحسن الأشعري عن المعتزلة أنهم فسروا (استوى على العرش) بمعنى استولى عليه[2]، فالذي يؤول الاستواء هذا التأويل سلفه في هذا المعتزلة، وبئس السلف هم.

أما أهل السنة وأصحاب الحديث فإنهم يثبتون استواءه على العرش، ولا ينفونه، ولا يكيفونه كما نقل ذلك عنهم أبو الحسن الأشعري رحمه الله[3].

وقد نقل لنا أهل اللغة أن العلماء بالعربية الذين لم تتدنس فطرهم بقاذورات الفلسفات الوافدة أبوا أن يفسروا استوى باستولى.

قال داود بن علي الأصبهاني: كنت عند ابن الأعرابي، فأتاه رجل فقال: ما معنى قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] فقال ابن الأعرابي: هو على عرشه كما أخبر، فقال: يا أبا عبدالله: إنما معناه استولى، فقال ابن الأعرابي: فما يدريك؟ العرب لا تقول استولى على الشيء حتى يكون له مضاد، فأيهما غلب فقد استولى عليه، أما سمعت قول النابغة:

إلا لمثلك أو من أنت سابقه ... سبق الجواد إذا استولى على الأمد[4]

وهذا النهج، وهو معرفة معنى الاستواء وجهل الكيفية والنهي عن البحث فيها هو منهج السلف الصالح، فعندما سئل الإمام مالك: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟

---

(١) انظر شرح الواسطية للهراس: ص ٨٠.

(٢) مقالات الإسلاميين: ص ١٥٧، ٢١١.

(٣) مقالات الإسلاميين: ص ٢١١، ٢٩٠.

(٤) لسان العرب: ٢/٢٤٩.

أطرق مالك، وأخذته الرحضاء، ثم رفع رأسه فقال: «الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ وكيف عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة، أخرجوه»[1].

وفي رواية عن مالك أنه قال: «الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[2].

وقوله: «غير مجهول» أي: معلوم، والمعلوم منه معناه، فإن له في لغة العرب معنى تفقهه العرب، وتعيه، ويمكن للعالم أن يفسره، ويترجمه، ولذا فإن كثيراً من الذين حكوا عن الإمام مالك مقالته السابقة ينقلونها عنه بالمعنى، فيذكرون أنه قال في الرد على الرجل: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[3]. ولا فرق في الحقيقة بين القول إن الاستواء معلوم، أو أنه غير مجهول، فمعناهما واحد.

يقول القرطبي رحمه الله تعالى: «كان السلف الأول -رضي الله عنهم- لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك، بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله.

ولم ينكر أحد أنه استوى على عرشه حقيقة، وخص العرش بذلك لأنه أعظم مخلوقاته، وإنما جهلوا كيفية الاستواء، فإنه لا تعلم حقيقته.

قال مالك: «الاستواء معلوم -يعني في اللغة- والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، وكذا قالت أم سلمة رضي الله عنها. وهذا قدر كاف»[4].

---

(١) رواه البيهقي، وصححه الذهبي: انظر مختصر العلو للعلي الغفار، للذهبي: ص ١٤١ حديث رقم: ١٣١.

(٢) انظر مختصر العلو: ص ١٤١، وحديث رقم: ١٣٢.

(٣) تفسير القرطبي: ٢/٢١٩.

(٤) تفسير القرطبي: ٢/٢١٩.

٩- أين الله؟

أخبرنا - سبحانه - أنه في السماء، مستو على عرشه ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧].

وقد أخبر الرسول ﷺ عن ربّه أنّه في السماء، ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أنّ رسول الله ﷺ قال: (ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباح مساء)[١].

وشهد للجارية بالإيمان عندما أخبرته أن الله في السماء، ففي صحيح مسلم وسنن أبي داود: أنّ معاوية بن الحكم السلمي ضرب جارية له لتقصيرها في الحفاظ على أغنامه، ثم ندم فجاء إلى الرسول ﷺ نادماً يستأذنه في إعتاقها، فطلبها الرسول ﷺ وسألها (أين الله؟) قالت: في السماء. قال: (من أنا؟) قالت: أنت رسول الله، قال: (أعتقها فإنها مؤمنة)[٢].

وقد أرشد الرسول ﷺ المريض أن يدعو لنفسه أو يدعو له أخوه بهذا الدعاء - وفيه النص على أنه تعالى في السماء - (ربنا الله الذي في السماء تقدّس اسمك، أمرُكَ في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب الطيبينَ، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ)[٣].

---

(١) صحيح البخاري: ٨/ ٦٦، ورقمه: ٤٣٥١، وصحيح مسلم: ٢/ ٧٤٢، ورقمه: ١٠٦٤.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: ١/ ٣٨٢، ورقم الحديث: ٥٣٧، ورواه أبو داود في سننه، انظر صحيح سنن أبي داود: ١/ ١٧٥، ورقمه: ٨٢٣، وانظر: ٣/ ٦٣٢، ورقمه: ٢٨٠٩.

(٣) سنن أبي داود: ٤/ ١٦، ورقمه: ٣٨٩٢.

وفي حديث عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)[1].

معنى كونه في السماء:

وليس المراد بأنه في السماء أنّ جرم السماء تحويه -سبحانه وتعالى عن ذلك- بل المراد بالسماء العلو والفوقية، فقد وصف نفسه -سبحانه- بأنه الأعلى ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وبأنه العلي العظيم: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وأخبر تعالى أنّه فوق عباده: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨] وفي تمجيد الرسول ﷺ لربّه في دعائه يقول: (وأنت الظاهر فليس فوقك شيء)[2].

وكانت زينب تفخر على زوجات الرسول ﷺ وتقول: (زوجكن أهاليكن وزوّجني الله من فوق سبع سموات)[3].

ولا يمكن لمسلم يفقه عقيدته حق الفقه أن يظن أنّ الله في السماء بمعنى أنّ السماء تحويه، وأنّه في جرم السماء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، كيف والسموات ليس بشيء بالنسبة إليه سبحانه ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) رواه الترمذي، انظر صحيح سنن الترمذي: ٢/ ١٨٠، ورقمه: ١٥٦٩، وقال الترمذي فيه: حديث حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٨٤، ورقمه: ٢٧١٣.

(٣) صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٩٢، ورقمه: ٢٥٦٦.

كثرة الأدلة:

والأدلة من الكتاب والسنة على أنّه تعالى في السماء فوق عباده ظاهر عليهم كثيرة جداً، ويحتاج استقصاؤها إلى صفحات طويلة، ويمكن أن نصنفها على النحو التالي:

١- الأدلة الدالة نصاً على أنه في السماء، وقد ذكرناها.

٢- الأدلة الدالة على أنّه مستو على العرش، وقد سبقت.

٣- الأدلة الدالة على علوه، وأنه فوق عباده، وقد ذكرنا طرفاً منها.

٤- النصوص الدالة على أن بعض مخلوقاته عنده، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقال في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وهي نصوص كثيرة.

٥- النصوص المخبرة برفع بعض الأشياء أو عروجها وصعودها إليه، كالآيات المصرحة برفع عيسى ابن مريم ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] والمخبرة بصعود الأعمال إليه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، والنصوص المخبرة بصعود أرواح المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

فدل النصّ على أنّ المؤمنين تفتح لهم، وقد جاءت الأحاديث مفسرة ذلك وموضحة له.

ومن ذلك عروج الملائكة إليه ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

٦- ومنها إخباره بإنزال الملائكة ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢]، وإخباره بإنزال الكتب ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢].

٧- ومنها رفع الأيدي والأبصار إليه، وقد وردت أحاديث كثيرة ذكر فيها رفع الرسول ﷺ يديه في الدعاء، وكلّ منْ حزَبه أمرٌ فإنه يرفع يديه إلى العلو يدعو الله.

وكذلك رفع البصر، فإنه ثبت في الدعاء بعد الوضوء.

٨- ومن ذلك إشارته ﷺ بأصبعه إلى العلو كما في حديث حجة الوداع عندما قالوا: نشهد أنّك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: (اللهم اشهد، اللهم اشهد)[١].

وإن أحببت المزيد من ذكر الأدلة وأقوال سلف الأمة فراجع ما جمعه أهل العلم في مدوناتهم في هذا الموضوع.

علوه - سبحانه - لا ينافي قربه:

فهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويعلم سرّه ونجواه، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته، ويعلم ما توسوس به النفوس، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وهو يعلم السرّ وأخفى، ويعلم ما يلج في الأرض، وما يخرج منها، وما ينزلُ من السماء، وما يعرج فيها، وهو مع خلقه بعلمه وقدرته، لا تخفى عليه منهم خافية، وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، فهو -سبحانه- القريب في علوّه، العلي في دنوّه، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

---

(١) رواه أبو داود: ١/٣٥٨، ورقمه: ١٩٠٥، وأصل الحديث في الصحيحين، ولكني لم أجد فيهما رفع الرسول ﷺ أصبعه إلى السماء ونكتها إليهم.

١٠- ضحك ربنا سبحانه

وهو - سبحانه - يضحك متى شاء، كيف شاء، نؤمن بذلك ونصدّقه، ولا ندري كيفيته، ولسنا مطالبين بأن ندري.

وقد ثبت في ذلك أخبار صحاح منها:

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال: (يضحك الله إلى رجُلين يقتل أحدهما الآخر، يدخلان الجنة، يُقاتل هذا في سبيل الله فيُقتَلُ، ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد)(١).

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئاً.

فقال رسول الله ﷺ: (ألا رجل يضيفه الليلة يرحمه الله). فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله.

فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله لا تدخريه شيئاً.

فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية.

قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي، فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت.

ثمّ غدا على رسول الله ﷺ فقال: (لقد عجب -عزّ وجلّ- أو ضحك من فلان وفلانة)، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩](٢).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: ٦/ ٣٩. ورقمه: ٢٨٢٦، ورواه مسلم: ٣/ ١٥٠٤. ورقمه: ١٨٩٠، واللفظ للبخاري.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ٦٣١، ورقمه: ٤٨٨٩. ورواه مسلم: ٣/ ١٦٢٥. ورقمه: ٢٠٥٤ واللفظ للبخاري.

٣- وفي صحيح البخاري من حديث طويل عن أبي هريرة يرفعه: (ثمّ يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، هو آخر أهل النار دخولاً الجنة، فيقول: أي ربّ اصرف وجهي عن النار، فإنّهُ قد قَشَبَنِي ريحها، وأحرقني ذكاؤها، فيدعو الله ما شاء أن يدعوه.

ثم يقول الله: هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره، ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف الله وجهه عن النار.

فإذا أقبل على الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي ربّ قدّمني إلى باب الجنة، فيقول الله له: أَلَسْتَ قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيت أبداً، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك. فيقول: أي ربّ ويدعُو الله حتى يقول: هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزّتك لا أسألك غيره. ويُعْطِي ما شاءَ مِنْ عُهودٍ ومواثيق.

فيُقَدّمه إلى بَاب الجَنّةِ، فإذا قَامَ إلى باب الجنة انْفَهَقَتْ لهُ الجنة، فرأى ما فيها من الحَبْرَةِ والسرور، فَيَسْكتُ ما شاء الله أن يسكت، ثمّ يقول: أي ربّ أدْخِلني الجنة، فيقول الله: ألست قد أعطيت عُهُودَكَ ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أعطِيت. فيقول: ويلك يا ابن آدم ما أغدرك، فيقول: أي ربِّ لا أكون أشقى خلقك، فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك الله منه، قال: ادخل الجنة)[١].

وفي رواية عند مسلم في حديث عبدالله بن مسعود: أنّ الله يقول لهذا الرجل: (أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ فيقول: يا رَبّ أتستهزِىءُ مني وأنت ربّ العالمين؟) وضحك رسول الله ﷺ، فقالوا: مم تضحك يا رسول

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤٢٠، ورقمه: ٧٤٣٧.

الله؟ قال: (من ضحِكِ رَبِّ العالمين حين قال: أتستهزىء مني وأنت ربّ العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزِىء منك، ولكني على ما أشاء قادر)[1].

١١، ١٢- نزوله - سبحانه - ومجيئه

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل ربنا -تبارك وتعالى- كل ليلة إلى سماء الدّنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له)[2].

وقد نصّ القرآن على أنّ الله يأتي يوم القيامة لفصل القضاء ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢١-٢٢].

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم أربعين سنة، شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزلُ الله في ظُللٍ من الغمامِ من العرش إلى الكُرسي)[3].

---

(١) رواه مسلم: ١/ ١٧٥. ورقمه: ١٨٧.

(٢) رواه البخاري: ٣/ ٢٩. ورقمه: ١١٤٥. ورواه مسلم: ١/ ٥٢١. ورقمه: ٧٥٨، واللفظ للبخاري.

(٣) رواه ابن منده، وقال الذهبي: إسناده حسن، وصححه جمع من حفاظ الحديث ونقاده كالحاكم والمنذري والهيثمي.

١٣- كلام الله

والله - سبحانه - يتكلم متى شاء كيف يشاء، لا يشبه كلامه كلام المخلوقين، وقد كلم الله بعض خلقه وكلموه، منهم نبي الله موسى ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد ذكر لنا الله ما دار بينه وبين موسى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣-١٤٤].

وكلم الله آدم وحواء ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ويكلم الله جبريل، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل: إنّ الله أحبّ فلاناً فأحبه، فيُحبهُ جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إنّ الله قد أحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض)[1].

وتسمع الملائكة ربهم حين يتكلم، ففي الصحيح عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ، قال: (إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعاناً لقوله، كأنّه سلسلة على صفوان، فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤٦١، ورقمه: ٧٤٨٥. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٣٠. ورقمه: ٢٦٣٧، واللفظ للبخاري.

ربكم، قالوا: الحقّ، وهو العلي الكبير)[1].

وهذا الحديث أورده البخاري تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

فقد جعل البخاري هذه الآية باباً، ثم قال: «ولم يقل ماذا خلق ربكم»، وأورد في هذا الباب ما رواه مسروق عن ابن مسعود معلقاً موقوفاً عليه: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات شيئاً، فإذا فزع عن قلوبهم، وسكن الصوت، عرفوا أنه الحق، ونادوا: ماذا قال ربكم».

وأورد حديثاً معلقاً يرويه جابر عن عبدالله بن أنيس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (يحشر الله العباد فيناديهم بصوت، يسمعه من بَعُدَ، كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك أنا الديان)[2].

وقال البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) معلقاً على هذا الحديث: «في هذا دليل أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوت الله جلّ ذكره يسمع مِن بُعْدٍ كما يُسمع من قُرْبٍ، وأن الملائكة يصعقون من صوته»[3].

ويتكلم الله - سبحانه - بصوت لا يشبه شيئاً من أصوات الخلق كما في الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يقول الله يا آدمُ، فيقول: لبيك وسعديك. فيُنَادِي بصوت: إنّ الله يأمرك أن تخرج من أمتك بعثاً إلى النار)[4].

---

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤٥٣، ورقمه: ٧٤٨١.

(٢) صحيح البخاري: ١٣/ ٤٥٢.

(٣) خلق أفعال العباد: ص ١٤٩.

(٤) رواه البخاري: ١٣/ ٤٥٣، ورقمه: ٧٤٨٣، وانظر: ٨/ ٤٤١. رقم: ٤٧٤١، ورواه مسلم: ١/ ٢٠١، ورقمه: ٢٢٢. واللفظ للبخاري.

وفي يوم القيامة يكلم الملائكة ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

ويخاطب الكفرة المكذبين مقرّعاً ومبكتاً ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٣-٨٤].

ويخاطب الله أهل الجنة ويكلمهم، فعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إنّ الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأيّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: أحل عليكمُ رضواني، فلا أسخطُ عليكم بعدهُ أبداً)[1].

كلام الله لا يحصى ولا يستقصى:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

القرآن كلام الله حقيقة:

والقرآن كلام الله حقيقة لا شك في ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الفتح: ١٥].

---

(١) رواه البخاري: ١٣/٤٨٧، ورقمه: ٧٥١٨، ورواه مسلم: ٤/٢١٧٦، ورقمه: ٢٨٢٩، واللفظ للبخاري.

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧].

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية[١]: «يقول الله تعالى مخبراً عن عظمته، وكبريائه، وجلاله، وأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر: (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[٢] فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] أي: ولو أنَّ جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً، وجعل البحر مداداً، ومدّه سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله تعالى الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسّرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مدداً».

وقال الحسن البصري: «لو جعل شجر الأرض أقلاماً، وجعل البحر مداداً، وقال الله تعالى: إن من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ما في البحور، وتكسّرت الأقلام» وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

١٤- محبة الله

جاء في الكتاب والسنة أنّ الله تعالى يحب أفعالاً معينة، كما يحب كلاماً معيناً، ويحبّ بعض خلقه الذين اتصفوا بصفات خاصة بيّنها.

وما أخبرنا بذلك إلا لكي نبادر إلى الاتصاف بما يحبّه من الأخلاق، والقيام بالأعمال التي يحبها، والإكثار من ذكر الكلام الذي يحبه، وبذلك يحبنا سبحانه وتعالى.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٥/ ٣٩٤.

(٢) رواه مسلم: ١/ ٣٥٣، ورقمه: ٤٨٦.

والله تعالى يحبّ المتقين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، ويحب المحسنين: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ويحبّ التوابين والمتطهرين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ويحب الصابرين: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ويحب العادلين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، ويحب المتوكلين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)[١].

وعن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: (أَحبُّ الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضُرّك بأيهن بدأت)[٢].

وقال ﷺ لأشج عبد القيس: (إنّ فيك خَصلتين يُحبهما الله: الحلمُ، والأناةُ)[٣].

وعن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: (من أحبّ لِقاء الله أحبّ الله لقاءهُ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءهُ)[٤].

وجماع الأعمال والأخلاق والأقوال التي يحبها الله هو ما جاء به الرسول

---

(١) رواه البخاري: ١١/٢٠٦، ورقمه: ١٤٠٦، ورواه مسلم: ٤/٢٠٧٢. ورقمه: ٢٦٩٤.

(٢) رواه مسلم: ٣/١٦٨٥. ورقمه: ٢١٣٧.

(٣) رواه مسلم في صحيحه: ١/٤٨. ورقمه: ١٧.

(٤) رواه مسلم: ٤/٢٠٦٥، ورقمه: ٢٦٨٤.

ﷺ، وما اتصف به عليه السلام، ولذا فقد بيّن الله في آية جامعة أن السبيل إلى محبته هو اتباع الرسول ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]

١٥- ١٦- كراهة الله وبغضه

هناك أعمال لا يحبها الله، بل يكرهها ويبغضها، وكراهيته وبغضه - سبحانه - حق على وجه يليق بذاته الكريمة، من هذه الأعمال الفساد ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ولذا فإنه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

وجاء في النصوص أنّه لا يحب: الكافرين، والظالمين، والمسرفين، والمستكبرين، والمعتدين، والخائنين، والفرحين. ولا يحب كل مختال فخور، وكفّار أثيم، وخوّان أثيم. وفي القرآن ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦].

وسبق ذكر الحديث الذي فيه: (ومن كره لِقاء الله كَره الله لقاءهُ)[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: (أبغض الرجال إلى الله الألدّ الخَصِمُ)[٢].

وعن البراء بن عازب أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول في الأنصار: (من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله)[٣].

---

(١) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٦٥. ورقمه: ٢٦٨٤.

(٢) رواه البخاري: ١٣/ ١٨٠. ورقمه: ٧١٨٨، ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٥٤. ورقمه: ٢٦٦٨.
والألد: شديد الخصومة. والخصم: الحاذق بالخصومة.

(٣) رواه البخاري: ٧/ ١١٣، ورقمه: ٣٧٨٣، ورواه مسلم: ١/ ٨٥، ورقمه: ٧٥.

١٧- رؤية الله

لا يُرى الله في الدنيا، وقد طمع موسى في رؤية الله، فأخبره ربّه أنّه لن يراه في الدّنيا، ولا يستطيع ذلك، بل الجبل القويّ الصلد لا يطيق ذلك ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد اختلف العلماء في رؤية الرسول ﷺ ربّه حين عُرج به إلى السماء، والصحيح أنّه لم ير ربّه في المعراج، وقد صحّ عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: و(من زعم أنّ محمداً ﷺ رأى ربّه فقد أعظم على الله الفرية)[1].

هذا في الدنيا، أمّا في الآخرة فالأمر مختلف، فإنّ العباد يخلقون خلقاً جديداً، ألا ترى أنّ الشمس تدنو من رؤوس الناس في يوم القيامة حتى لا يكون بينها وبينهم إلا ميل واحد، ومع ذلك فلا يذوبون ولا ينصهرون! ألا ترى أنّ الناس بعد البعث والنشور غير قابلين للموت! بل يدخل الكفار النّار كلما نضجت جلودهم بدّلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، أمّا الموت فلا.

نعم في يوم القيامة يطيق المؤمنون رؤية ربهم، بل إنّ أعظم نعيم يعطاه العباد في الجنّة هو النظر إلى وجه ربهم العظيم الكريم سبحانه.

هذا النعيم العظيم يحرمه الكفار ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] أما الذين اصطفاهم الله وحسّن وجوههم فلا يحجبون، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢] وهؤلاء هم الأبرار ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢-٢٣]، وهذا النظر إلى وجهه الكريم هو الزيادة التي

(١) رواه مسلم: ١/ ١٥٩. ورقمه: ١٧٧.

وُعد بها المؤمنون ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

وهو المزيد المذكور في هذه الآية: ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق: ٣٥].

وقد جاءت الأحاديث المتواترة مصرّحة بذلك غاية التصريح، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: (هل تُضارّونَ في رؤية القمر ليلة البدر؟) قالوا: لا، يا رسول الله، قال: (هل تُضارّون في رؤية الشمس ليس دُونها سحاب؟) قالوا: لا، يا رسول الله، قال: (فإنّكُم ترونه كذلك)[١].

وفي الصحيح عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، قال: (كنا جلوساً عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامّون، فإنْ استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا)[٢].

وفي صحيح مسلم عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إذا دخل أهلُ الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدُون شيئاً أزيدكم؟ يقولون: ألم تُبيضْ وُجُوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتُنجنا مِنَ النّار؟) قال: فيكشفُ الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزّ وجلّ، ثمّ تَلا هذه الآية: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦][٣].

---

(١) رواه البخاري: ١٣/٤١٩. ورقمه: ٧٤٣٧، ورواه مسلم: ١/١٦٣. ورقمه: ١٨٢. واللفظ لمسلم.

(٢) رواه البخاري: ١٣/٤١٩. ورقمه: ٧٤٣٤.

(٣) رواه مسلم: ١/١٦٣. ورقمه: ١٨١.

وفي الصحيحين عن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (جنّتان من فضة آنيتُهُما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلا رداءُ الكبرياء على وجهه في جنة عدنٍ)[1].

١٨- علم الله

ونعلم أن الله -سبحانه- متصف بصفة العلم، وقد سمى نفسه -سبحانه- بعدة أسماء تفيد هذه الصفة، منها (العليم) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢٢٠]، ومنها: (الخبير) ويختص بأن يعلم ما يكون قبل أن يكون. ومنها (الحكيم) ويختص بأن يعلم دقائق الأوصاف. ومنها: (الشهيد) ويختص بأن يعلم الغائب والحاضر. ومعناه أنّه لا يغيب عنه شيء. ومنها (الحافظ) ويختص بأنّه لا ينسى ما علم. ومنها (المحصي) ويختص بأنه لا تشغله الكثرة عن العلم مثل ضوء النور، واشتداد الريح، وتساقط الأوراق، فيعلم عند ذلك عدد أجزاء الحركات في كل ورقة.

علمه تعالى شامل للكليات والجزئيات:

زعم الفلاسفة أنّ الله يعلم الكليات، ولا يعلم الجزئيات، وكذبوا في قولهم، فعلم الله محيط شامل لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، يعلم كل حركة في برّ أو بحر، فما من ورقة تسقط من شجرة، أو حبّة تندثر في الرمال، أو نبتة صغيرة تشق الأرض، أو نبتة تيبس أو تموت إلا وعلم الله محيط بها ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

---

(١) رواه البخاري: ١٣/ ٤٢٣. ورقمه: ٧٤٤٤. ورواه مسلم: ١/ ١٦٣. ورقمه: ١٨٠.

وهذه الأعداد التي لا حصر لها من الدواب لا يخفى على الله منها شيء ﴿ ۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود: ٦]، وليس من شيء يصل إلى الأرض، أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا وقد أحاط الله به علماً ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ٢].

وهذا الإنسان لا يخفى على الله منه شيء، فعلم الله به محيط يعلم عمله البادي الظاهر، ويعلم ما استكن في أعماق نفسه، ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٢٩]، ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣]، وهو عِلم محيط بالجزئيات من أمور الإنسان ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١].

وانظر إلى هذا العلم الذي لا تفلت منه الذرة الصغيرة ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ١٦].

لقد استوى في علم الله السرّ والعلانية، والصغير والكبير، والغيب والشهادة: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ٨-١٠].

وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

١٩، ٢٠- حياته وقيوميته سبحانه

وهو حيّ حياة أزلية ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [غافر: ٦٥] وحياته منافية لحياة الأحياء من الخلق فكلهم يموت ويفنى، ولا يبقى إلا الله سبحانه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول: (أعوذ بعزّتِك الذي لا إله إلا أنت الذي لا يموت والجنّ والأنسُ يموتُون)[1].

ومن كان كذلك فهو الذي يستحق أن يعتمد عليه ويتوكل عليه ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وهو قيوم سبحانه، فهو قيوم بنفسه مقيم لغيره، وجميع المخلوقات مفتقرة إليه، ولا قوام لها بدونه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [الروم: ٢٥].

جمعه - سبحانه - بين هذين الاسمين:

وقد جمع - سبحانه - في أكثر من آية بين هذين الاسمين ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ٢].

من تمام حياته وقيوميته:

ومن تمام حياته وقيوميته - سبحانه - أنّه لا ينام ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والسنة: أوائل النوم، والسنة والنوم نقص يتنزه الخالق عنهما، ففي صحيح مسلم عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال:

(١) رواه البخاري: ١٣/٣٦٨. ورقمه: ٧٣٨٣.

قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: (إنّ الله - عزّ وجلّ - لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النّهار قبل عمل الليل)[1].

تمجيده تعالى بذكر حياته وقيوميته:

وقد مجّد نفسه - سبحانه - بوصف نفسه بالحياة والقيومية، كما سبق في النصوص التي ذكرناها، وقد كان الرسول ﷺ يمجد ربّه بذكر هذه الصفات، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: (اللهمّ لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمدُ، لَكَ مُلْك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نُور السموات والأرض، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض. . .)[2].

٢١، ٢٢- سمعه وبصره - سبحانه وتعالى -

وهاتان الصفتان ثابتتان لله تعالى بنصّ القرآن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[الحج: ٦١].

وقال لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

عِظَم سمع الله وبصره:

يقول تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦]، قال ابن جرير: «وذلك في معنى المبالغة في المدح

(١) رواه مسلم: ١/ ١٦٢. ورقمه: ١٧٩.

(٢) رواه البخاري: ٣/ ٣. ورقمه: ١١٢٠. ورواه مسلم: ١/ ٥٣٢. ورقمه: ٧٩٩. واللفظ للبخاري.

كأنّه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء»[1].

وهو يسمع ويرى الصالحين، فيثيبهم ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ * إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢٢٠].

وهو - سبحانه - يرى الطالحين فيجزيهم ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١].

تقول عائشة - رضي الله عنها - مبينة سعة سمع الله: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات»[2]، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه في جانب البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[3] [المجادلة: ١].

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: كنّا مع النبي ﷺ في سفر، فكنّا إذا علونا كبرنا، فقال: (أربِعُوا على أنفُسِكُمْ، فإنكُم لا تدْعُونَ أصمّ ولا غائِباً، تدعون سميعاً بصيراً قريباً)[4].

جهل المشركين بنفاذ سمع الله:

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله - رضي الله عنه - قال: اجتمع عند البيت (الكعبة) ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، كثيرةٌ شحم بطونِهم، قليلة

(١) تفسير ابن جرير: ١٥/ ٢٣٢.

(٢) رواه البخاري في صحيحه تعليقاً: ١٣/ ٣٧٢: وقال ابن حجر في الفتح: ١٣/ ٣٧٣. «ووصله أحمد والنسائي وابن ماجه باللفظ المذكور هنا».

(٣) هذه التكملة رواها أحمد والنسائي وابن ماجه، كما أفاده الحافظ في الفتح: ١٣/ ٣٧٤.

(٤) رواه البخاري: ١٣/ ٣٧٢. ورقمه: ٧٣٨٦.

فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أنّ الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنّه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله -عزّ وجلّ- ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢](١).

المطلب الثالث

أسماء الله الحسنى(٢)

لله تعالى أسماء كلها حسنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] منها ما ذكره الله في سورة الحشر ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[الحشر: ٢٢-٢٤].

١- عدد أسمائه

ورد في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل

(١) رواه البخاري: ٨/ ٥٦٢. ورقمه: ٤٨١٧.

(٢) ألفت في أسماء الله وصفاته مؤلفاً مستقلاً عنونت له بـ (أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة) فإن شئت التوسع في الموضوع فارجع إليه.

الجنة، وإن الله وِتْرٌ يُحبّ الوتْر)[١].

هذا الحديث يدل على أنّ لله - سبحانه - عدداً محدداً من الأسماء وقد نصّ على أنّها تسعة وتسعون.

ولكن يشكل على هذا ما رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال:

(ما أصاب أحداً قط همّ ولا حزنٌ فقال: اللهم إني عبدُك، ابن عبدِك، ابن أمتِك ؛ ناصيتي بيدك، ماض فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمْتهُ أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أنْ تجعل القرآن ربيع قلبي، ونُورَ صدري، وجلاء حُزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحا)[٢].

وجاء في ثناء الرسول على ربه سبحانه (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك)[٣]. والإشكال في هذا الحديث أنّه يدلّ على أنّ من أسماء الله تعالى أسماء لم ينزلها في كتابه، بل اختص بها بعض عباده، أو اختص بها نفسه، فلم يعرّفها أحداً من خلقه، بينما حديث أبي هريرة يدلّ على أن أسماء الله التسعة والتسعين كلها منزلة معروفة بدلالة قوله (من أحصاها)، فالإحصاء لها لا يمكن ما لم تكن منزلة معروفة معلومة، ومن هذا يتتج أنّ ما استأثر الله بعلمه أو اختص به بعض خلقه غير التسعة والتسعين.

والحق الذي ينبغي أن يصار إليه أنّ عدد الأسماء التي عرّفنا الله إياها في

---

(١) رواه البخاري في صحيحه: ١١/ ٢١٤. ورقمه: ٦٤١٠، ورواه مسلم في صحيحه: ٤/ ٢٠٦٢، ورقمه: ٢٦٧٧، واللفظ لمسلم.

(٢) رواه أحمد في مسنده: ١/ ٣٩١، وعزاه ابن حجر في فتح الباري إلى أحمد وابن حبان، فتح الباري: ١١/ ٢٢٠.

(٣) صحيح مسلم: ١/ ٣٥٣، ورقمه: ٤٨٦.

كتابه، أو ذكرها رسوله ﷺ، تسعة وتسعون لا تزيد، لنصّ الرسول ﷺ على هذا العدد، ولقوله: (مَنْ أحصاها)، وأنّ ما زاد على هذه التسعة والتسعين فهو مما لا نعرفه، لأنّه من مكنون علم الله أو مما اختص الله به بعض خلقه، وإلا فما فائدة تحديد عدد أسماء الله بتسعة وتسعين؟!

٢- تحديد أسماء الله الحسنى

أخبر الرسول ﷺ أنّ أسماء الله تعالى المنزلة التي يمكننا معرفتها وإحصاؤها تسعة وتسعون اسماً.

ولم يرد حديث صحيح يسرد هذه الأسماء سرداً لا يترك مجالاً للخلاف في تحديدها، بل وردت هذه الأسماء متفرقة في كتاب الله وفي سنة الرسول ﷺ، تذكر الآية الاسم والاسمين أو أكثر، أو تختم الآية بواحد أو أكثر، وقد تسرد الآيات جملة من هذه الأسماء.

وقد عني العلماء بجمع أسماء الله من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما عنوا بتفسيرها وشرحها.

فالقرطبي له كتاب (معاني أسماء الله الحسنى)، وقد سردها ابن جرير الطبري، وأبو بكر ابن العربي، وابن حجر العسقلاني، وغيرهم. وقد اتفق العلماء في عدّ جملة كبيرة من أسماء الله تعالى، واختلفوا في جملة قليلة، فبعضهم عدّها من أسمائه تعالى، ومنهم من نازع في ذلك[1].

والسبب في هذا الخلاف أن بعض العلماء ظن أنّ كلّ ما أطلقه القرآن على الله - سبحانه - يجوز عده اسماً، ويجوز إطلاقه مجرداً على الله تعالى. فأبو بكر ابن العربي عدّ في أسمائه: رابع ثلاثة، وسادس خمسة، أخذاً من قوله

(١) راجع تلخيص الحبير: ٤/ ١٧٢.

تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

كما عدّ في أسمائه الفاعل والزارع أخذاً من قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ومن قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٦٤].

والحق أن هذه ليست أسماء لله تعالى، بمعنى أنّه لا يطلق على الله تعالى رابع ثلاثة، وسادس خمسة، والفاعل، والزارع[1].

وقد ورد في القرآن أفعال أطلقها الله -عزّ وجلّ- على نفسه على سبيل الجزاء والعدل والمقابلة، وهي فيما سيقت فيه مدح وكمال، ولكن لا يجوز أن يشتق لله تعالى منها أسماء، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات كقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤] وقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

فلا يطلق على الله مخادع، ماكر، ناس، مستهزى، ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه، ولا يقال: الله يستهزى، ويخادع، ويمكر، وينسى، على سبيل الإطلاق. وقد أخطأ الذين عدوا ذلك من أسمائه الحسنى خطأ كبيراً، لأنّ الخداع والمكر يكون مدحاً ويكون ذماً، فلا يجوز أن يطلق على الله إلا مقيداً بما يزيل الاحتمال المذموم منه كما ورد مقيداً في الآيات[2].

---

(١) معارج القبول: ١/ ٧٧.

(٢) معارج القبول: ١/ ٧٦.

ومن أجل ذلك لم يرد في أسمائه تعالى: المتكلم، المريد، الفاعل، الصانع؛ لأنّ مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم. ولو جاز أن يشتق لله من أفعاله أسماء مثل: الماكر، المخادع، بحجة إطلاق أفعالها في القرآن على الله لجاز أن يجعل من أسمائه: الداعي، والآتي، والجائي، والذاهب، والقادم، والناسي، والقاسم، والساخط، والغضبان، واللاعن... وغير ذلك من تلك التي أطلق القرآن أفعالها على نفسه.

فالله لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، والمجازاة على ذلك تعدّ حسنة من المخلوق فكيف من الخالق؟.

ومن أسماء الله تعالى ما لا يُطلق عليه إلا مقترناً بمقابله، فإنه إذا أطلق وحده أوهم نقصاً، فمن ذلك: المانع، الضار، القابض، المذل، الخافض، فلا تطلق على الله منفردة، بل يجب قرنها بما يقابلها، فيقال: المعطي المانع، الضارّ النافع، القابض الباسط، المعزّ المذل، الخافض الرافع.

ومن ذلك المنتقم، لم يأت في القرآن إلا مضافاً إلى: (ذو) كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥] أو مقيداً بالمجرمين: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

٣- الاسم الأعظم

أخبرنا الرسول ﷺ في أكثر من حديث أنّ لله اسماً أعظم له مميزات عن بقية أسمائه سبحانه وتعالى، فمن هذه الأحاديث:

١- عن بريدة الأسلمي، أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللهمّ إني أسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد

ولم يكن له كفواً أحد »، فقال: (دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعِي به أجاب). رواه الترمذي وأبو داود[1].

٢- وعن أنس قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي، فقال: « اللهمّ إني أسألك بأنّ لك الحمد، لا إله إلا أنت الحنان المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيّ يا قيوم، أسألك » فقال النبي ﷺ: (دعا الله باسمِه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئلَ به أعطى). رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة والدارمي[2].

٣- وفي سنن ابن ماجه عن أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ قال: (اسمُ الله الأعظم في سُور من القرآن ثلاث: في (البقرة)، وَ (آل عمران) وَ (طه). أخرجه ابن ماجة، والطحاوي في مشكل الآثار، وابن معين في التاريخ والعلل، وغيرهم[3].

٤- وقد ورد تحديد آيتي البقرة وآل عمران اللتين ورد فيهما اسم الله الأعظم، فقد روى الترمذي، وأبو داود، وابن ماجة، والدارمي عن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣] وفاتحة (آل عمران): ﴿ الٓمٓ ۞ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ١-٢][4].

والذي يظهر من المقارنة بين النصوص التي ورد فيها اسم الله الأعظم أنّه: (الله)، فهذا الاسم هو الاسم الوحيد الذي يوجد في جميع النصوص التي قال

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٠٣، ورقمه: ٢٢٨٩، وحكم محقق المشكاة على إسناده بالصحة.

(٢) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٠٤، ورقمه: ٢٢٩٠، وحكم محقق المشكاة على إسناده بالصحة.

(٣) انظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة، للشيخ ناصر الدين الألباني: ٢/ ٣٨٢، ورقمه: ٧٤٦.

(٤) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٠٤، ورقمه: ٢٢٩١.

الرسول ﷺ إنّ اسم الله الأعظم ورد فيها.

ومما يُرجِّح أن (الله) هو الاسم الأعظم أنه تكرر في القرآن الكريم (٢٦٩٧) سبعاً وتسعين وستمائة وألفين (حسب إحصاء المعجم المفهرس) وورد بلفظ (اللهم) خمس مرات في حين أنّ اسماً آخر مما يختص بالله تعالى وهو (الرحمن) لم يرد ذكره إلا سبعاً وخمسين مرة، ويرجحه أيضاً ما تضمنه هذا الاسم من المعاني العظيمة الكثيرة.

٤- وجوب الإيمان بأسمائه

وقد اتفق السلف الصالح على أنه يجب الإيمان بجميع أسماء الله الحسنى، وما دلت عليه من الصفات، وما ينشأ عنها من الأفعال، فمثلاً: اسم الله القدير يجب الإيمان بأنّه سبحانه على كل شيء قدير، والإيمان بكمال قدرته، والإيمان بأنّ قدرته نشأت عنها جميع الكائنات.

٥- كيف يحصي المسلم أسماء الله الحسنى[١]

ورد في الحديث الترغيب بإحصاء أسماء الله الحسنى، فقد وعد من أحصاها بدخول الجنة.

واختلف العلماء في معنى قوله ﷺ: «من أحصاها».

قال الخطابي يحتمل وجوهاً:

أحدها: أن يعدّها حتى يستوفيها بمعنى أن لا يقتصر على بعضها فيدعو الله بها كلها، ويثني عليه بجميعها، فيستوجب الموعود عليها من الثواب.

---

(١) راجع في هذا الموضوع: معارج القبول: ١/ ٨٤. وما بعدها.

وهذا الوجه هو الذي اختاره البخاري، فقد فسّر الإحصاء بالحفظ، وذلك لورود رواية أخرى فيها « من حفظها ».

ثانيها: المراد بالإحصاء الإطاقة، والمعنى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء والعمل بمقتضاها، وهو أن يعتبر معانيها، فيلزم نفسه بموجبها، فإذا قال: « الرزّاق » وثق بالرزق، وكذا سائر الأسماء.

ثالثها: المراد بها الإحاطة بجميع معانيها.

وقيل: أحصاها عمل بها، فإذا قال: « الحكيم » سلم لجميع أوامره وأقداره، وأنها جميعها على مقتضى الحكمة.

وقال ابن بطال: طريق العمل بها:

١- ما يسوغ الاقتداء به كالرحيم والكريم، فيمرن العبد نفسه على أن يصح له الاتصاف بها، يعني فيما يقوم به.

٢- وما كان يختص به نفسه كالجبار والعظيم، فعلى العبد الإقرار بها، والخضوع لها، وعدم التحلي بصفة منها.

٣- وما كان فيها معنى الوعد يقف فيه عند الطمع والرغبة.

٤- وما كان فيها معنى الوعيد يقف منه عند الخشية والرهبة.

والظاهر أنّ معنى إحصائها حفظها، والقيام بعبوديتها كما أنّ القرآن لا ينفع حفظ ألفاظه من لا يعمل به، بل جاء في صفة المرّاق من الدّين أنهّم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم[١].

---

(١) تبين لنا بعد أن توسعنا في دراسة هذا الموضوع في كتابنا (أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة) أن القول الراجح في معنى (أحصاها) : حفظها.

٦- سرد أسماء الله تعالى

ولعلّ ابن حجر العسقلاني قد قارب الصواب عندما عدّ تسعة وتسعين اسماً آخذاً إياها من القرآن الكريم، وبذلك يوافق حديث أبي هريرة في عددها، ونحن نسوقها كما سردها:

١- الله	٢- الرب	٣- الإله	٤- الواحد	٥- الرحمن
٦- الرحيم	٧- الملك	٨- القدوس	٩- السلام	١٠- المؤمن
١١- المهيمن	١٢- العزيز	١٣- الجبار	١٤- المتكبر	١٥- الخالق
١٦- البارى	١٧- المصور	١٨- الأول	١٩- الآخر	٢٠- الظاهر
٢١- الباطن	٢٢- الحي	٢٣- القيوم	٢٤- العليّ	٢٥- العظيم
٢٦- التواب	٢٧- الحليم	٢٨- الواسع	٢٩- الحكيم	٣٠- الشاكر
٣١- العليم	٣٢- الغني	٣٣- الكريم	٣٤- العفو	٣٥- القدير
٣٦- اللطيف	٣٧- الخبير	٣٨- السميع	٣٩- البصير	٤٠- المولى
٤١- النصير	٤٢- القريب	٤٣- المجيب	٤٤- الرقيب	٤٥- الحسيب
٤٦- القوي	٤٧- الشهيد	٤٨- الحميد	٤٩- المجيد	٥٠- المحيط
٥١- الحفيظ	٥٢- الحقّ	٥٣- المبين	٥٤- الغفّار	٥٥- القهار
٥٦- الخلاق	٥٧- الفتاح	٥٨- الودود	٥٩- الغفور	٦٠- الرؤوف
٦١- الشكور	٦٢- الكبير	٦٣- المتعال	٦٤- المقيت	٦٥- المستعان
٦٦- الوهاب	٦٧- الحفي	٦٨- الوارث	٦٩- الولي	٧٠- القائم

٧١- القادر ٧٢- الغالب ٧٣- القاهر ٧٤- البر ٧٥- الحافظ

٧٦- الأحد ٧٧- الصمد ٧٨- المليك ٧٩- المقتدر ٨٠ - الوكيل

٨١ - الهادي ٨٢ - الكفيل ٨٣ - الكافي ٨٤ - الأكرم ٨٥ - الأعلى

٨٦ - الرزاق ٨٧ - ذو القوة المتين ٨٨ - غافر الذنب

٨٩ - قابل التوب ٩٠- شديد العقاب ٩١- ذو الطول

٩٢- رفيع الدرجات ٩٣- سريع الحساب ٩٤- فاطر السموات والأرض

٩٥- بديع السموات والأرض ٩٦- نور السموات والأرض

٩٧- مالك الملك ٩٨، ٩٩ - ذو الجلال والإكرام

٧- خواص أسماء الله الحسنى

ذكر الشيخ حسن البنا في كتابه: (العقائد)[١]، أن بعض النّاس يذكر لكلّ اسم من أسماء الله تعالى خواصّ وأسراراً تتعلق به على إفاضة فيها أو إيجاز، وقد يغالي بعض الناس فيتجاوز هذا القدر إلى زعم أن لكل اسم خادماً روحانياً يخدم من يواظب على الذكر به.

ويذكر أن بعض النّاس يدعي أن اسم الله الأعظم سرّ من الأسرار، يمنح لبعض الأفراد، فيفتحون به المغلقات، ويخرقون به العادات، ويكون لهم به من الخواص ما ليس لغيرهم من الناس.

وهؤلاء الذين أشار إليهم الشيخ قالوا بغير علم، ونطقوا بأمور لم يأت بها نص صحيح من كتاب ربنا، وسنة رسوله ﷺ، وما كان كذلك فلا اعتبار له،

(١) مجموع الرسائل: ٤٤٤-٤٤٧، والشيخ البنا رحمه الله ذكر هذا منكراً له.

ولا حجّة فيه ؛ عملاً بقول الرسول ﷺ: (كُلّ عملٍ ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ).

وهذه الأقوال والادعاءات فتحت الباب للخرافة، فبذلت الجهود وضاعت الساعات في سبل خاطئة، وحصل من ذلك ضلال كبير.

والفضيلة التي نصّ عليها الرسول ﷺ لاسم الله الأعظم أنه إذا دعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى.

٨ - فائدة العلم بهذه الأسماء

أمّا الفوائد الحقيقية التي يجنيها المسلم من هذه المعرفة بأسماء الله وصفاته فيمكن أن نوجزها في عدة أمور:

١- التعرف على الله سبحانه وتعالى، فأسماء الله وصفاته هي أعظم وسيلة تعرفنا بربنا سبحانه وتعالى، وبدون ذلك سيبقى الإيمان بالله فكرة غامضة لا تعطي ثماراً طيبة، وقد فصّلنا القول في صفاته وأسمائه فيما سبق، ولله الحمد والمنة.

٢- تمجيده والثناء عليه بأسمائه وصفاته، وتمجيد الله بأسمائه وصفاته أعظم ما نمجد الله به ونثني عليه به، وهو من أعظم الذكر الذي أمرنا به في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١].

٣- دعاؤه بأسمائه وصفاته، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقد أخبر الرسول ﷺ أكثر من مرة أنّ واحداً من الصحابة دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أجاب.

٤- زيادة الإيمان: فكلما علم العبد شيئاً عن الله وصفاته ازداد إيمانه.

٥- الشعور بالقوة والثبات؛ لأن العبد يركن إلى القوي القادر الغالب.

٦- تعليق القلب بالله، فالذي يعلم أن الرزق من عند الله يطلب منه الرزق، والذي يعلم أن الله جبار يخاف منه، والذي يعلم أن الله عليم يراقبه... وهكذا.

٧- الأجر العظيم الذي نحصله من وراء هذه المعرفة، فتعلم هذه الأسماء والصفات أشرف ما يمكن أن يدرس، وتعلمها وتعليمها خير عمل يقام به.

نماذج من تمجيد الرسول عليه السلام لربه وثنائه عليه ودعائه له:

أحب أن نسوق نماذج من الكلام النبوي فيه تمجيد وثناء وحمد الله بأسمائه وصفاته، ودعاء له بها علاوة على ما تقدم:

١- عن أبي هريرة: أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قال لرسول الله ﷺ: « مرني بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت. قال: (قل: اللهم عالمَ الغيب والشهادة، فاطر السموات والأرض، ربّ كلّ شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه). رواه الترمذي وأبو داود والدارمي[١].

٢- عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: (ربّنا لك الحمدُ، ملءُ السموات والأرض، ومِلءُ مَا شِئْتَ من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحقّ ما قال العبدُ، وكُلّنا لك عبدٌ، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ)[٢].

---

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٧٣٤. ورقمه: ٢٣٩٠.

(٢) رواه مسلم: ١/ ٣٤٧. ورقمه: ٤٧٧.

٣- عن ثوبان - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، وقال: (اللهم أنت السلامُ، ومنكَ السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام)[١].

٤- عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: (لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله ربّ العرشِ العظيم، لا إله إلا الله ربّ السموات وربّ الأرض، ربّ العرش الكريم)[٢].

٥- عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبّ الكلام إلى الله أربعٌ: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت) وفي وجه آخر: (أفضلُ الكلام: سُبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر)[٣].

٦- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمنِ: سبحان الله وبِحمدِهِ، سُبْحانَ الله العظيم)[٤].

---

(١) رواه مسلم: ١/ ٤١٤. ورقمه: ٥٩٢.

(٢) صحيح البخاري: ١١/ ١٤٥. ورواه مسلم: ٤/ ٢٠٩٣. ورقمه: ٢٧٣٠.

(٣) رواه مسلم: انظر مشكاة المصابيح: ١/٧٠٦، ورقمه: ٢٢٩٤.

(٤) رواه مسلم: ٤/ ٢٠٧٢، ورقمه: ٢٦٩٤.

المطلب الرابع

المنهج الذي تُفهم صفات الله في ضوئه[1]

ذكر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - أن القرآن العظيم دلّ على أن مبحث الصفات يرتكز على ثلاثة أسس، من جاء بها كلها فقد وافق الصواب، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي - ﷺ - وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخلّ بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضلّ.

وذكر أنّ كلّ هذه الأسس الثلاثة يدلّ عليها القرآن العظيم:

الأساس الأول: تنزيهه - جلّ وعلا - عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين. وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤] ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل: ٧٤].

الأساس الثاني: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، لأنّه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

والإيمان بما وصفه به رسوله ﷺ لأنّه لا أعلم بالله بعد الله من رسول الله ﷺ الذي قال في حقّه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤].

---

(١) راجع: منهج و دراسات لآيات الأسماء والصفات، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله.

ضلال الذين أخذوا بأحد هذين الأصلين دون الآخر:

وقد حمل الشيخ - رحمه الله - تعالى على من أخلّ بأحد هذين الأصلين، وعدّ من نفى عن الله وصفاً أثبته لنفسه بأنه متنطع بين يدي رب السموات والأرض، وعدّ فعل هذا النافي عن الله ما أثبته لنفسه متجرئاً على الله جرأة عظيمة.

وعدّ الشيخ هذا ضلالاً ليس بعده ضلال، لأن هذا النافي عمد إلى ما أثبته الله لنفسه من صفات الكمال والجلال، فتقدم هذا الجاهل المسكين بين يدي جبار السموات والأرض قائلاً: هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك، ويلزمه من النقص كذا، فأنا أؤوله وأنفيه، وآتي ببدله من تلقاء نفسي، من غير أن يستند فيما ذهب إليه إلى كتاب ولا سنة.

ومثله في الضلال ذلك الذي أثبت الصفات لله - تبارك وتعالى - ولكنه شبه صفات الباري بصفات خلقه.

والمفلح الناجي السائر على الصراط المستقيم هو الذي آمن بهذين الأصلين، ولم يفرق بينهما، آمن بما أثبته الله لنفسه من الصفات، ونزهه في الوقت نفسه عن أن تشبه صفاته صفات خلقه، فهو مؤمن منزه سالم من ورطة التشبيه والتعطيل.

دلت على هذا الأصل آية من كتاب الله:

وقد دلّ على هذين الأصلين آية من كتاب الله، هي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فالحق يثبت في هذه الآية لنفسه السمع والبصر في الوقت الذي يقرر فيه أنه

ليس كمثله شيء،وفي هذا إشارة واضحة إلى أنه لا يجوز للخلق أن ينفوا عن الله سمعه وبصره بدعوى أن المخلوقات الحادثة تملك سمعاً وأبصاراً، وأن إثبات السمع والبصر لله يؤدي إلى تشبيه الله بمخلوقاته.

إن المعنى الذي تدل الآية عليه أن الله يتصف بالسمع والبصر، وسمع الله وبصره لا يشبهه شيء من أسماع المخلوقات وأبصارها، فسمع الله وبصره يليقان بجلال الله وكماله، وأسماع المخلوقات وأبصارها تناسب حالهم، فلا تشابه بين صفات الله وصفات المخلوقات.

والأساس الثالث: الذي ترتكز عليه مباحث الصفات - كما يقول الشيخ الشنقيطي - قطع الأطماع عن إدراك حقيقة الكيفية، لأنّ إدراك حقيقة الكيفية مستحيل. وهذا نص الله عليه في سورة (طه) حيث قال: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠] فقوله: (يحيطون) فعل مضارع، والفعل الصناعي الذي يسمى بالفعل المضارع وفعل الأمر والفعل الماضي ينحلّ عند النحويين عن (مصدر، وزمن).

وقد حرّر علماء البلاغة في بحث الاستعارة التبعية أنّه ينحلّ عن (مصدر، وزمن، ونسبة) فالمصدر كامن في مفهومه إجماعاً، (فيحيطون) تكمن في مفهومها (الإحاطة)، فيتسلط النفي على المصدر الكامن في الفعل، ويكون معه كالنكرة المبنية على الفتح، فيصير المعنى: لا إحاطة للعلم البشري بربّ السموات والأرض.

فينفي جنس أنواع الإحاطة عن كيفيتها، فالإحاطة المسندة للعلم منفية عن ربّ العالمين.

وهذا الذي ذكره الشيخ العلامة من استحالة معرفة كيفية الله أو صفاته منطق سليم؛ لأنّ العقل الإنساني مهما بلغ من الذكاء وقوة الإدراك قاصر غاية القصور

وعاجز نهاية العجز عن معرفة حقائق الأشياء.

إنّ الإنسان عاجز عن معرفة حقيقة الروح التي تتردد بين جنبيه، وعاجز عن معرفة حقيقة الضوء الذي هو من أظهر الأشياء لديه، وعاجز عن إدراك حقيقة المادة، وحقيقة الذرات التي تتألف منها المادة، فكيف يطمح إلى معرفة حقيقة الذات والصفات الإلهية؟

المنحرفون عن المنهج السليم وأسباب انحرافهم

والانحراف عن المنهج السليم في أسماء الله تعالى وصفاته قد جاء من الإخلال بأصل من الأصول الثلاثة التي ذكرناها، ونستطيع أن نقسم انحراف الناس قديماً وحديثاً في أسماء الله وصفاته إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: انحراف المشركين:

وانحراف المشركين، ذكره ابن عباس وابن جريج، ومجاهد، فالمشركون عدلوا بأسماء الله تعالى عما هي عليه، فسموا بها أوثانهم، فزادوا ونقصوا، فاشتقوا اللات من الله، والعزّى من العزيز، ومناة من المنان.

ومن إلحادهم تكذيبهم بجملة من أسماء الله تعالى، كتكذيبهم باسم الرحمن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

ويدخل في زمرة هؤلاء الذين يصفون الله بصفات النقص، كقول خبثاء اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤].

ثانياً: انحراف المشبهة:

وهؤلاء أثبتوا لله ما أثبته لنفسه، ولكنّهم لم ينزهوا الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، فأعملوا من الآية الكريمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] عجزها، ولم يعملوا صدرها، إذ لو أعملوا صدرها لعلموا أنّ الله لا يشبهه شيء، ولما اجترؤوا على أن يقولوا قولتهم التي تقشعرّ لهولها الأبدان، وتضطرب لها القلوب: إنّ لله يداً وبصراً وسمعاً كيدنا وسمعنا وبصرنا، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وهؤلاء جعلوا معبودهم كالأصنام، ولذا قال علماء السلف: (المشبه يعبد وثناً)، وقد كفروا بمقالتهم هذه وخرجوا عن الملّة، ومن هؤلاء داود الجواربي، وهشام بن الحكم الرافضي، وهذان الفريقان إلحادهما متقابل: فالأولون من المشركين جعلوا المخلوق بمنزلة الخالق وسووه به، والمشبهة جعلوا الخالق بمنزلة الأجسام المخلوقة، وشبهوه بها، تعالى الله وتقدس عن إفكهم وضلالهم.

ثالثاً: انحراف النفاة وهم ثلاث فرق:

١- فريق نفوا الأسماء وما تدلّ عليه من المعاني، ووصفوا الله تعالى بالعدم المحض، وهؤلاء هم الجهمية، والحقيقة أنّ تحريف هؤلاء تكذيب لله كتحريف المشركين.

٢- وفريق أثبتوا ألفاظ أسمائه دون ما تضمنته من صفات الكمال، فقالوا: رحمن رحيم بلا رحمة، حكيم بلا حكمة، قدير بلا قدرة، سميع بلا سمع.. إلخ، وهؤلاء هم المعتزلة.

٣- وفريق ثالث: أثبت سبعاً من صفات المعاني، وهي: الحياة، والعلم،

والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، ونفوا، ما عداها، وهؤلاء هم الأشاعرة[١].

والمكذبون بأسماء الله وصفاته، والمشبهون صفاته بصفات خلقه، والنافون لأسمائه وصفاته - ضلالهم واضح، إذ هم مشاقون لله ورسوله، مكذبون للكتاب والسنة، وأمرهم معلوم لا يحتاج إلى بيان.

أمّا الذين يحتاج إلى كشف ما في مقالتهم من زيف، فهم أهل الكلام الذي يزعمون أنّهم ينزهون الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، وبهذا ينفون صفات الله تعالى التي وردت في الكتاب والسنة، بحجة أنّها توهم التشبيه، ويلجؤون في سبيل ذلك إلى تأويل هذه الصفات تأويلاً يصرفها عن معانيها الحقة[٢].

المطلب الخامس

أقسام الصفات عند علماء الكلام

بين الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله تعالى - منهج علماء الكلام في تقسيماتهم لصفات الله تعالى، وبيان ما أثبتوه منها وما نفوه، وما وقعوا فيه من أخطاء ومغالطات، ثم بيّن دلالة القرآن على اتصاف الله بهذه

---

(١) لم يذهب أبو الحسن الأشعري رحمه الله هذا المذهب كما سيأتي ذكر معتقده في صفات الباري تبارك وتعالى.

(٢) حاول بعض المعاصرين كالشيخ حسن البنا والشيخ حسن أيوب وغيرهما أن يهونوا من خطيئة هؤلاء الذين عرفوا باسم (الخلف)، وأن يقربوا بين وجهة نظر السلف والخلف، ولكنَّ الحقيقة التي يجب أن تدرك أن مذهب الخلف الزاعمين أن ظاهر الصفات غير مراد المؤولين لها مذهب بعيد عن الصواب، ولا لقاء بينه وبين مذهب السلف. ولا يشفع لبعض الخلف حسن نيتهم، فحسن النية لا يجعل الباطل حقاً.

الصفات، وعدم جواز نفيها عن الله بحجة أن المخلوقين يتصفون بها ؛ لأنّ صفات الله لائقة بجلاله وصفات المخلوقين مناسبة لعجزهم.

فقد بيّن الشيخ أنّ المتكلمين الذين خاضوا في الكلام، وجاؤوا بأدلة يسمونها أدلة عقلية، ركبوها في أقيسة منطقية، قسموا صفات الله إلى ستة أقسام هي:

١- صفة نفسية. ٢- صفة معنى. ٣- صفة معنوية.

٤- صفة فعلية. ٥- صفة سلبية. ٦- صفة جامعة.

أما الصفات الإضافية، فقد جعلوها أموراً اعتبارية لا وجود لها في الخارج، وسببوا بذلك إشكالات عظيمة

محاكمة المنهج الكلامي إلى الكتاب والسنة

بين الشيخ الشنقيطي - رحمه الله تعالى - ما جاء في القرآن العظيم من وصف الخالق - جلّ وعلا - بتلك الصفات، ووصف المخلوقين بتلك الصفات، وبيان القرآن العظيم أنّ صفة خالق السموات والأرض حق، وأنّ صفة المخلوقين حقّ، وأنه لا مناسبة بين صفة الخالق وصفة المخلوق، فصفة الخالق لائقة بذاته، وصفة المخلوق مناسبة لعجزه وافتقاره، وبين الصفة والصفة من الفرق كمثل ما بين الذات والذات.

صفات المعاني عند المتكلمين

وبين الشيخ أن صفات المعاني عند علماء الكلام سبع صفات فقط، وينكرون ما عدا هذه السبع.

وضابط صفة المعنى عند علماء الكلام: ما دلّ على معنى وجودي قائم بالذات.

والصفات السبع التي أثبتوها هي: القدرة، والإرادة، والعلم، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام. وأنكر هذه المعاني السبعة المعتزلة، وأثبتوا أحكامها، فقالوا: هو قادر بذاته، سميع بذاته، عليم بذاته، حيّ بذاته، ولم يثبتوا لله قدرة، ولا علماً، ولا حياة، ولا سمعاً، ولا بصراً، فراراً من تعدد القديم، وهو مذهبٌ كل العقلاء يعرفون ضلاله وتناقضه، وأنه إذا لم يقم بالذات علم استحال أن تقول: هي عالمة بلا علم، وهو تناقض واضح بأوائل العقول.

ثم أورد الشيخ أدلة صفات المعاني، وذكر الفرق بين صفات الباري وصفات المخلوق:

١- وصفوا الله تعالى بالقدرة، وأثبتوا له القدرة، والله -جلّ وعلا- يقول في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠] ونحن نقطع أنه تعالى متصف بصفة القدرة على الوجه اللائق بكماله وجلاله.

كذلك وصف بعض المخلوقين بالقدرة فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] فأسند القدرة لبعض الحوادث ونسبها إليهم.

ونحن نعلم أنّ كلّ ما في القرآن حقّ، وأنّ للمولى - جلّ وعلا - قدرة حقيقية تليق بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين قدرة حقيقية مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين قدرة الخالق وقدرة المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق، وحسبك بوناً بذلك.

٢، ٣- ووصف تبارك وتعالى نفسه بالسمع والبصر في غير ما آية من كتابه، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ووصف بعض الحوادث بالسمع والبصر، قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

ونحن لا نشك أن ما في القرآن حقّ، فلله - جلّ وعلا - سمع وبصر حقيقيان لائقان بجلاله وكماله، كما أن للمخلوق سمعاً وبصراً حقيقيين مناسبين لحاله من فقره وفنائه وعجزه. وبين سمع وبصر الخالق وسمع وبصر المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

٤- ووصف نفسه بالحياة، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

ووصف أيضاً بعض المخلوقين بالحياة، قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥]، ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [الروم: ١٩].

ونحن نقطع بأن لله - جلّ وعلا - صفة حياة حقيقية لائقة بكماله، وجلاله، كما أن للمخلوقين حياة مناسبة لحالهم، وعجزهم وفنائهم وافتقارهم، وبين صفة الخالق وصفة المخلوق من المخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق، وذلك بون شاسع بين الخالق وخلقه.

٥- ووصف -جلّ وعلا- نفسه بالإرادة قال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ووصف بعض المخلوقين بالإرادة قال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنفال: ٦٧]، ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ٨]

ولا شك أن لله إرادة حقيقية لائقة بكماله، كما أن للمخلوقين إرادة مناسبة لحالهم وعجزهم وفنائهم وافتقارهم. وبين إرادة الخالق والمخلوق كمثل ما بين ذات الخالق والمخلوق.

٦- ووصف نفسه - جلّ وعلا - بالعلم، قال: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧].

ووصف بعض المخلوقين بالعلم قال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ [يوسف: ٦٨].

ولا شك أن للخالق - جل وعلا - علماً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله محيطاً بكل شيء. كما أن للمخلوقين علماً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم، وبين علم الخالق وعلم المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق.

٧- ووصف نفسه - جلّ وعلا - بالكلام، قال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

ووصف بعض المخلوقين بالكلام قال: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٦٥]. ولا شكّ أن للخالق تعالى كلاماً حقيقياً يليق بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين كلاماً مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم، وبين كلام الخالق وكلام المخلوق من المنافاة والمخالفة كمثل ما بين ذات الخالق وذات المخلوق.

الكلام على الصفات السلبية عند المتكلمين

بين الشيخ الشنقيطي - رحمه الله تعالى - ضابط الصفة السلبية عند المتكلمين فقال: هي الصفة التي دلت على عدم محض. والمراد بها أن تدل على سلب ما لا يليق بالله عن الله، من غير أن تدل على معنى وجودي قائم بالذات.

والذين قالوا هذا جعلوا الصفات السلبية خمساً لا سادس لها، وهي عندهم: القدم، والبقاء، والمخالفة للخلق، والوحدانية، والغنى المطلق الذي يسمونه القيام بالنفس، الذي يعنون به الاستغناء عن الحيز والمحل.

١، ٢ - القدم والبقاء:

ونبه الشيخ رحمه الله تعالى إلى أن القدم والبقاء اللذين وصف المتكلمون بهما الله -جلّ وعلا- زاعمين أنه وصف بهما نفسه هما المرادان بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

والقدم عندهم عبارة عن سلب العدم السابق، إلا أنه عندهم أخص من الأزل، لأن الأزل عبارة عما لا افتتاح له، سواء أكان وجودياً كذات الله وصفاته، أو عدمياً، والقدم عندهم عبارة عما لا أول له، بشرط أن يكون وجودياً، كذات الله متصفة بصفات الكمال والجلال.

وبين الشيخ -رحمه الله- أن الله -عزّ وجلّ- وصف المخلوقين بالقدم، قال: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٦].

ووصف المخلوقين بالبقاء قال: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]، ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] ولا شك أن ما وصف به الله من

هذه الصفات مخالف لما وصف به الخالق.

وصف الله بالقدم والبقاء لم يرد في الكتاب والسنة:

وبين الشيخ - رحمه الله - تعالى أن الله لم يصف في كتابه نفسه بالقدم، وبعض السلف كره وصفه بالقدم ؛ لأنه قد يطلق مع سبق العدم، نحو ﴿ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩]، ﴿ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف: ٩٥]، ﴿ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ [الشعراء: ٧٦].

وقد زعم بعضهم أنه جاء فيه حديث، وبعض العلماء يقول: هو يدل على وصفه بهذا، وبعضهم يقول: لم يثبت.

أما الأولية والآخرية التي نص الله عليهما في قوله: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ [الحديد: ٣]، فقد وصف المخلوقين أيضاً بالأولية والآخرية، قال: ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ [المرسلات: ١٦-١٧]. ولا شك أن ما وصف الله به نفسه من ذلك لائق بجلاله وكماله كما أن للمخلوقين أوليه وآخرية مناسبة لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

٣، ٤- الوحدانية والغنى بالنفس:

وصف نفسه بأنه واحد، قال: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة: ١٦٣] ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال: ﴿ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ [الرعد: ٤].

ووصف نفسه بالغنى ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨]، ﴿ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ ۚ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [التغابن: ٦] ووصف بعض المخلوقين بذلك، قال: ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ [النساء: ٦]، ﴿ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ [النور: ٣٢].

فهذه صفات السلب، جاء في القرآن وصف الخالق ووصف المخلوق بها. ولا شك أن ما وصف به الخالق منها لائق بكماله وجلاله، وما وصف به المخلوق مناسب لحاله وعجزه وفنائه وافتقاره.

تحقيق القول في الصفات المعنوية

ثم تكلم الشيخ على ما أسماه علماء الكلام بالصفات السبع المعنوية التي هي كونه تعالى قادراً ومريداً وعالماً وحياً وسميعاً وبصيراً ومتكلماً، وبين أن حقيقتها هي كيفية الاتصاف بالمعاني السبعة التي ذكرنا.

ومن عدّها من المتكلمين عدها بناء على ثبوت ما يسمونه الحال المعنوية التي يزعمون أنها واسطة ثبوتية، لا معدومة ولا موجودة.

ولم يرتض الشيخ إثبات هذا النوع من الصفات، فقال: «والتحقيق أن هذه خرافة وخيال، وأن العقل الصحيح لا يجعل بين الشيء ونقيضه واسطة ألبتة، فكل ما ليس بموجود فهو معدوم قطعاً، وكل ما ليس بمعدوم فهو موجود قطعاً، ولا واسطة ألبتة، كما هو معروف عند العقلاء».

صفات الأفعال

ثم تكلم الشيخ على صفات الأفعال، فقال: وهذه صفات الأفعال جاء في القرآن كثيراً وصف الخالق بها ووصف المخلوق بها، ولا شك أن ما وصف به الخالق منها مخالف لما وصف به المخلوق، كالمخالفة التي بين ذات الخالق وذات المخلوق، ومن هذه الصفات:

١ - الرزق: وصف الله نفسه - جلّ وعلا - أنه يرزق خلقه فقال: ﴿مَآ أُرِيدُ

﴿ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨]، ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[سبأ: ٣٩]، ﴿ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١].

ووصف بعض المخلوقين بصفة الرزق، قال: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ [النساء: ٨]، ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾ [النساء: ٥]، ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به منه المخلوق، كمخالفة ذات الله لذات المخلوق.

٢- العمل: ووصف نفسه -جلّ وعلا- بصفة الفعل وهو العمل، قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ [يس: ٧١].

ووصف المخلوقين بصفة الفعل التي هي العمل قال: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٦]، ولا شك أن ما وصف به المخلوق مخالف له كمخالفة ذات الخالق ذات المخلوق.

٣- التعليم: وصف نفسه بأنه يعلم خلقه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ [الرحمن: ١-٤]، ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ٣-٥]، ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٣].

ووصف بعض خلقه بهذه الصفة أيضاً، قال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة: ٢]، وجمع المثالين في قوله: ﴿ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤].

٤- الإنباء: ووصف نفسه - جلّ وعلا - بأنه ينبىء، ووصف المخلوق بأنه ينبىء، وجمع بين الفعل في الأمرين في قوله جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]. ولا شك أنّ ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به منه العبد، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

٥- الإيتاء: ووصف نفسه بصفة الفعل الذي هو الإيتاء. قال جلّ وعلا: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

ووصف المخلوقين بالفعل الذي هو الإيتاء، قال: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]، ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤].

ولا شك أن ما وصف الله به من هذا الفعل مخالف لما وصف به العبد من هذا الفعل كمخالفة ذاته لذاته.

الصفات الجامعة

ثم تكلم الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - على الصفات الجامعة، كالعلو والعظم والكِبَر والملك والكِبْر والجبروت والعزة والقوة وما جرى مجرىٰ ذلك من الصفات الجامعة.

١ - ٣: صفات العلو والكبر والعظم:

وصف الله نفسه بالعلو والكبر والعظم فقال: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال في وصف نفسه بالعلو والكبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ

عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤]، ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

ووصف بعض المخلوقين بالعظم قال: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]، ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠]، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] ووصف بعض المخلوقين بالعلو قال: ﴿وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]. ووصف بعض المخلوقات بالكبر: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]، ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣].

ولا شك أن ما وصف الله به نفسه من هذه الصفات الجامعة كالعلو والكبر والعظم مناف لما وصف به المخلوق منها، كمخالفة ذات الخالق ـ جلّ وعلا ـ لذات المخلوق، فلا مناسبة بين ذات الخالق وذات المخلوق، كما لا مناسبة بين صفة الخالق وصفة المخلوق.

٤ - صفة الملك:

ووصف نفسه بالملك، قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ﴾ [الجمعة: ١]، ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٥].

ووصف بعض المخلوقين بالملك، قال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: ٤٣]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾ [يوسف: ٥٠]، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

ولا شكّ أن لله - جلا وعلا - ملكاً حقيقياً لائقاً بكماله وجلاله، كما أن للمخلوقين ملكا مناسباً لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

٥، ٦ - صفة الجبروت والكبرياء:

ووصف نفسه بأنه جبار متكبر في قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣] ووصف بعض المخلوقين بأنه جبار متكبر قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠] ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥].

ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذه الصفات مخالف لما وصف به المخلوق كمنافاة ذات الخالق لذات المخلوق.

٧ - صفة العزة:

وصف - جلّ وعلا - نفسه بالعزة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩].

ووصف بعض المخلوقين بالعزة، قال: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، وجمع المثالين في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

ولا شك أن ما وصف به الخالق من هذا الوصف مناف لما وصف به المخلوق، كمخالفة ذات الخالق لذات المخلوق.

٨ - صفة القوة:

ووصف نفسه - جلّ وعلا - بالقوة، قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]

ووصف بعض المخلوقين بالقوة، قال: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]، وقال - جلّ وعلا : ﴿۞ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

وجمع بين المثالين في قوله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

الصفات التي اختلف فيها المتكلمون

ثم تكلم الشيخ على الصفات التي اختلف فيها المتكلمون، هل هي صفات فعل أو صفات معنى؟ والذي حققه الشيخ أنها صفات معان قائمة بذات الله - جلّ وعلا - ومن هذه الصفات:

١، ٢ - صفة الرأفة والرحمة: وصف نفسه بأنه رؤوف رحيم، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]. ووصف بعض المخلوقين بذلك، فقال في وصف نبينا صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

٣- صفة الحلم: وصف نفسه - سبحانه - بالحلم، قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩] ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

ووصف بعض المخلوقين بالحلم، قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

٤- صفة المغفرة: وصف نفسه - سبحانه - بالمغفرة، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة:١٧٣]، ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

ووصف بعض المخلوقين بالمغفرة، قال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤].

ولا شك أن ما وصف به خالق السموات والأرض من هذه الصفات حق لائق بكماله وجلاله لا يجوز أن ينفى خوفاً من التشبيه بالخلق، وأن ما وصف به الخلق من هذه الصفات حق مناسب لحالهم وفنائهم وعجزهم وافتقارهم.

حال النافين لصفات الكمال والجلال

وبعد أن بين الشيخ ما في منهج علماء الكلام من خلل، وفصل القول في المنهج القرآني الإيماني الذي كشف الحق وأنار الدرب ختم كلامه قائلاً:

«وعلى كل حال فلا يجوز للإنسان أن يتنطع إلى وصف أثبته الله -جلّ وعلا - لنفسه فينفي هذا الوصف عن الله متهجماً على ربّ السمٰوات والأرض، مدعياً عليه أن هذا الوصف الذي تمدح به نفسه أنه لا يليق به، وأنه ينفيه عنه، ويأتيه بالكمال من كيسه الخاص، فهذا جنون وهوس ، ولا يذهب إليه إلا من طمس الله بصائرهم».

صفة الاستواء صفة كمال لا صفة نقص

ولبيان عظم جناية علماء الكلام على صفات الباري ضرب الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - مثلا بصفة عظيمة من صفاته هي صفة الاستواء، فقال: فهذه

صفة الاستواء التي كثر فيها الخوض، ونفاها كثير من الناس بفلسفة منطقية، وأدلة جدلية أبطلوا بها الحق، وأحقوا بها الباطل، قد تجرأ الآلاف ممن يدعون الإسلام فنفوها عن ربِّ السمٰوات والأرض بأدلة منطقية.

فيقولون مثلاً: لو كان مستوياً على عرشه لكان مشابهاً للخلق، لكنه غير مشابه للخلق، فينتج أنه غير مستو على العرش. وهذه النتيجة باطلة لمخالفتها صريح القرآن.

وبين الشيخ - رحمه الله - أن صفة الاستواء صفة كمال وجلال، تمدح بها رب السموات والأرض نفسه، والقرينة على أنها صفة كمال وجلال أن الله ما ذكرها في موضع من كتابه إلا مصحوبة بما يبهر العقول من صفات جلاله وكماله، التي هي منها، ثم استعرض النصوص التي وردت فيها هذه الصفة للتدليل على صحة ما قرره:

١- أول سورة ذكر الله فيها صفة الاستواء حسب ترتيب المصحف سورة الأعراف، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

٢- الموضع الثاني في سورة يونس، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ

﴿الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣-٦].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا الكمال والجلال؟

٣- الموضع الثالث في سورة الرعد، في قوله - جلّ وعلا -: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٢-٤]، فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

٤- الموضع الرابع في سورة طه: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ * تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ١-٨].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الجلال والكمال؟

٥- الموضع الخامس في سورة الفرقان في قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨-٥٩].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على هذا الكمال والجلال؟

٦- الموضع السادس في سورة السجدة في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٣-٩].

فهل لأحد أن ينفي شيئاً من هذه الصفات الدالة على الغاية من الجلال والكمال؟

٧- الموضع السابع في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٣-٤].

فالشاهد أن هذه الصفات التي يظن الجاهلون أنها صفة نقص ويتهجمون على رب السمٰوات والأرض بأنه وصف نفسه بصفة نقص. ثم يسببون عن هذا أن ينفوها ويؤولوها، مع أن الله - جلّ وعلا - تمدّح بها، وجعلها من صفات الجلال والكمال، مقرونة بما يبهر من صفات الجلال والكمال، وهذا يدل على جهل وهوس من ينفي بعض صفات الله - جلّ وعلا - بالتأويل.

المطلب السادس

قواعد مهمة في صفات الله وأسمائه

هناك عدة قواعد مهمة، ونقاط رئيسة، نبه إليها العلماء في هذا الباب نسوقها موجزة مختصرة.

القاعدة الأولى: القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر[1]:

بهذه القاعدة نرد على عدة طوائف:

أ - **الذين يثبتون بعض الصفات وينفون بعضها**، كالذين يثبتون لله الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والكلام، والإرادة، ويجعلونها صفات حقيقية، ثم ينازعون في محبة الله ورضاه، وغضبه وكراهيته، ويجعلون ذلك مجازاً، أو يفسرونه بالإرادة، أو يفسرونه بالنعم والعقوبات.

فيقال لهؤلاء: لا فرق بين ما أثبتموه وما نفيتموه، بل القول في أحدهما كالقول في الآخر، فإن كنتم تقولون: حياته وعلمه كحياة المخلوقين وعلمهم، فيلزمكم أن تقولوا في رضاه ومحبته كذلك.

وإن قلتم له حياة وعلم وإرادة تليق به ولا تشبه حياة المخلوقين وعلمهم وإرادتهم، فيلزمكم أن تقولوا في رضاه ومحبته وغضبه كذلك.

وإن قلتم: إن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، فكذلك يقال: الإرادة ميل النفس إلى جلب مصلحة أو دفع مضرة، فإن قلتم: هذه إرادة

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/ ١٧.

مخلوق، قلنا: هذا غضب مخلوق.

ب - الذين يثبتون الأسماء وينفون الصفات، فيقولون حي بلا حياة، عليم بلا علم. . . الخ.

فهؤلاء يقال لهم: لا فرق بين إثبات الأسماء، وإثبات الصفات، فإنك إن قلت إثبات الحياة والعلم والقدرة يقتضي التشبيه أو التجسيم لأنا لا نجد متصفاً بالصفات إلا وهو جسم، قلنا: وكذلك في الأسماء، إذ لا نجد ما هو مسمى بحي وعليم وقدير إلا ما هو جسم، فانف أسماء الله، فإن قالوا: هذه الأسماء تليق بكماله وجلاله، قلنا: وكذلك صفاته.

جـ - الذين ينفون الأسماء والصفات، فإنهم بزعمهم ينفون ذلك حتى لا يشبهوا الله بالموجودات، فيقال لهم: نفيتم علمه وحياته كما نفيتم أنه عليم حي خشية أن تشبهوه بالموجودات، ولكن يلزم قولكم هذا تشبيه الله بالمعدومات.

القاعدة الثانية[1]: القول في الصفات كالقول في الذات:

فالله - سبحانه - له ذات لا تشبه ذوات المخلوقين، وكذلك صفاته وأفعاله لا تشبه ذوات المخلوقين وأفعالهم.

إذ يلزم من أقر بأن الله حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال لا يماثلها شيء أن يقول: إن سمعه وبصره وكلامه الثابت في نفس الأمر لا يشابهه سمع المخلوقين ولا بصرهم ولا كلامهم.

فإن قال قائل: أنا أنفي استواء الله خشية من تشبيه الله بخلقه، فيقال له: انف وجود الله وذاته، لأنه يلزم من ذلك تشبيه الله بخلقه، فإن قال: لله وجود

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/ ٢٥.

يخصه، وذات تخصه لا تشبه ذوات المخلوقين، قلنا: وكذلك نزوله واستواؤه.

القاعدة الثالثة: الاتفاق في الأسماء لا يقتضي التساوي في المسميات:

فإننا نعلم أن ما أخبرنا الله تعالى به مما في الجنة من لبن وعسل وخمر حق، وهذه الحقائق وإن كانت موافقة في الأسماء للحقائق الموجودة في الدنيا فإنها لا تماثلها، بل بينها وبين ما في الدنيا من المباينة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فالخالق أعظم مباينة للمخلوقات من مباينة المخلوق للمخلوق، بل قد تسمي في الدنيا عدة أشياء باسم واحد، ويكون لكل واحد حقيقة تخصه، فإننا نقول مثلاً: يد الجمل، ويد الباب، ويد الإنسان، واليد في كل لفظة من الألفاظ الثلاثة لها معنى يخصها.

القاعدة الرابعة: لا يوصف الله بالنفي المحض:

أثبت الله سبحانه وتعالى لنفسه أسماء وصفات، ونفى عن نفسه أسماء وصفات.

والإثبات والنفي في أسمائه وصفاته مجمل ومفصل، فالإثبات المجمل يكون بإثبات الثناء المطلق، والحمد المطلق، والمجد المطلق لله تعالى، ونحو ذلك كما يشير إليه قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠].

وأما التفصيل في الإثبات فهو متناول لكل اسم أو صفة وردت في الكتاب والسنة.

والنفي المجمل يكون بأن ينفي عن الله - عزّ وجلّ - كل ما يضاد كماله من

أنواع العيوب والنقائص مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وأما التفصيل في النفي فهو أن ينزه الله عن كل واحد من هذه العيوب والنقائص بخصوصه، فينزه عن الوالد والولد والشريك والصاحبة والند والجهل والعجز والسنة والنوم والعبث... إلخ.

إلا أن منهج القرآن في النفي أن لا ينفي نفياً محضاً، فلا ينفي القرآن صفة نقص عن الله إلا إذا كانت متضمنة صفة مدح وكمال، فلا ينفي نفياً مجرداً، كما تفعل بعض الفرق(1)، فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فيه نفي السنة والنوم عن الله تعالى، ونفيهما يتضمن كمال الحياة والقيام، فمن كمال حياته: ألا تأخذه سنة (وهي أوائل النوم) ولا نوم، وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] مستلزم لكمال قدرته وتمامها، إذ المعنى (لا يكرثه ولا يثقله).

ومثل ذلك قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض.

وكذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] فإن نفي اللغوب (وهو التعب والإعياء) دل على كمال القدرة ونهاية القوة. وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أي: لا تحيط به الأبصار فهو وإن رئي في الآخرة، ولكنه لعظمته - سبحانه - لا تحيط به الأبصار.

---

(١) الجهمية المحضة. انظر مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٩.

وكذلك كل ما نفاه الله عن نفسه، فإنه يستلزم صفة ثبوتية يمدح الله بها.

ولم يصف الله نفسه بنفي محض لا يستلزم صفة ثبوتية، وبذلك يتضح أن الذين يتجهون إلى الإكثار من النفي (أو ما يسمونه السلوب) أخطؤوا؛ لأن النفي ليس فيه مدح ولا كمال ما لم يتضمن إثباتاً؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء.

وقد أكثر المبتدعون من النفي المحض فقالوا: لا يتكلم، ولا يرى، وليس فوق العالم، وغلا بعضهم فقالوا: ليس بداخل العالم ولا خارجه، ولا مبايناً للعالم، ولا مخالطاً له... إلى آخر هذا الكلام الغث الذي يجعلون الله به عدماً... تعالى وتقدس.

القاعدة الخامسة: الألفاظ الموهمة حقاً وباطلاً[1]:

الصفات التي وردت في الكتاب والسنة حق يجب الإيمان بها، وإن لم نفقه معناها.

أما ما يطلقه الناس على الله - سبحانه - مما لم يرد في الكتاب والسنة مما يتنازع فيه الناس فلا نثبته ولا ننفيه حتى نتبين مراد قائله منه.

فمثلاً يقال لمن نفى الجهة: ماذا تعنى بالجهة؟ إن كنت تعني أن الله في داخل جرم السماء، وأن السماء تحويه، فلا يجوز أن نقول: إن الله في جهة، وإن كنت تريد أن الله فوق مخلوقاته فوق السموات فهذا حق.

وكذلك التحيز، إن كان المراد أن الله تحوزه المخلوقات فهذا باطل قطعاً، وإن أراد أنه منحاز عن المخلوقات، أي: مباين لها فهذا حق.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣/ ٤١.

القاعدة السادسة: التعطيل سببه اعتقاد التشبيه أولا:

وقد وضح هذه القاعدة العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله تعالى، وبين أن أصل البلاء وأسه هو تنجس القلب وتلطخه وتدنسه بأقذار التشبيه، فإذا سمع ذو القلب المتنجس بأقذار التشبيه صفة من صفات الكمال، التي أثنى الله بها على نفسه، كنزوله إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الأخير، وكاستوائه على عرشه، وكمجيئه يوم القيامة، وغير ذلك من صفات الجلال والكمال، فإن أول ما يخطر في ذهنه أن هذه الصفة تشبه صفة الخلق، فيكون قلبه متنجساً بأقذار التشبيه، لا يقدّر الله حق قدره، ولا يعظم الله حق عظمته، حيث يسبق إلى ذهنه أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيكون أولا نجس القلب متقذراً بأقذار التشبيه، فيدعوه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي صفة الخالق - جلّ وعلا - عنه، بادعاء أنها تشبه صفات المخلوق، فيكون أولاً مشبهاً، وثانياً معطلاً، فصار ابتداء وانتهاءً متهجماً على رب العالمين، ينفي صفاته عنه بادعاء أن تلك الصفة لا تليق به.

وذكر الشيخ - رحمه الله تعالى - قاعدة أصولية أطبق عليها من يعتد به من أهل العلم. وهي أن النبي ﷺ لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة، ولا سيما في العقائد. ولو مشينا على فرضهم الباطل، أن ظاهر آيات الصفات الكفر، فالنبي ﷺ لم يؤول الاستواء (بالاستيلاء)، ولم يؤول شيئاً من هذه التأويلات، ولو كان المراد بها هذه التأويلات لبادر النبي ﷺ إلى بيانها ؛ لأنه لا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة.

وبين الشيخ - رحمه الله تعالى - أن الواجب على المسلم إذا سمع وصفاً وصف به خالق السموات والأرض نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ أن يملأ صدره من التعظيم، ويجزم بأن ذلك الوصف بالغ من غايات الكمال والجلال

والشرف والعلو ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيكون القلب منزّها معظما له جلّ وعلا، غير متنجس بأقذار التشبيه، فتكون أرض قلبه قابلة للإيمان والتصديق بصفات الله التي تمدّح بها، وأثنى عليه بها نبيه ﷺ، على غرار قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]، والشر كل الشر في عدم تعظيم الله، وأن يسبق في ذهن الإنسان أن صفة الخالق تشبه صفة المخلوق، فيضطر المسكين أن ينفي صفة الخالق بهذه الدعوى الكاذبة الخائنة.

القاعدة السابعة: آيات الصفات ليست من المتشابه:

ذكر الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - أن كثيراً من الناس يطلق على آيات الصفات اسم المتشابه، وهذا من جهة غلط، ومن جهة قد يَسُوغ كما بينه الإمام مالك بن أنس بقوله: « الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب ».

كذلك يقال في النزول: النزول غير مجهول، والكيف غير معقول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، واطرده في جميع الصفات ؛ لأن هذه الصفات معروفة عند العرب، إلا أن ما وصف به خالق السموات والأرض منها أكمل وأجل وأعظم من أن يشبه شيئاً من صفات المخلوقين، كما أن ذات الخالق - جلّ وعلا - حق، والمخلوقون لهم ذوات، وذات الخالق - جلّ وعلا - أكمل وأنزه وأجل من أن تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين.

القاعدة الثامنة: ليس ظاهر الصفات التشبيه حتى تحتاج إلى تأويل:

المقرر في الأصول أن الكلام إن دل على معنى لا يحتمل غيره فهو المسمى (نصاً) كقوله تعالى: مثلاً ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:١٩٦]، فإذا كان يحتمل

معنيين أو أكثر فلا يخلو من حالتين: إما أن يكون أظهر في أحد الاحتمالين من الآخر، وإما أن يتساوى بينهما.

فإن كان الاحتمال يتساوى بينهما فهذا الذي يسمى في الاصطلاح: (المجمل) كما لو قلت: (عدا اللصوص البارحة على عين زيد) فإنه يحتمل أن تكون عينه الباصرة عوروها، أو عينه الجارية غوروها، أو عينه ذهباً وفضة سرقوها، فهذا مجمل، وحكم المجمل أن يتوقف عنه إلا بدليل يدل على التفصيل.

أما إذا كان نصا صريحاً، فالنص يعمل به، ولا يعدل عنه إلا بثبوت النسخ.

فإذا كان أظهر في أحد الاحتمالين فهو المسمى بـ (الظاهر)، ومقابله يسمى (محتملاً مرجوحاً)، والظاهر يجب الحمل عليه إلا لدليل صارف عنه، كما لو قلت: « رأيت أسداً » فهذا ظاهر في الحيوان المفترس، محتمل للرجل الشجاع.

وعلى ذلك فهل المتبادر من آيات الصفات من نحو قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠] وما جرى مجرى ذلك هو مشابهة الخلق، حتى يجب علينا أن نؤول ونصرف اللفظ عن ظاهره؟ أو ظاهرها المتبادر منها تنزيه رب السموات حتى يجب علينا أن نقره على الظاهر من التنزيه، والجواب: أن كل وصف أسند إلى رب السموات والأرض، فظاهره المتبادر منه عند كل مسلم هو التنزيه الكامل عن مشابهة الخلق.

فإقراره على ظاهره هو الحق، وهو تنزيه رب السموات والأرض عن مشابهة الخلق في شيء من صفاته. فهل ينكر عاقل أن المتبادر للأذهان السليمة أن الخالق ينافي المخلوق في ذاته وسائر صفاته. لا والله لا يعارض في هذا إلا مكابر.

القاعدة التاسعة: حقيقة التأويل[1]:

التأويل الذي فتن به الخلق، وضل به الآلاف من هذه الأمة يطلق في الاصطلاح مشتركاً بين ثلاثة معان:

١- يطلق على ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال، وهذا هو معناه في القرآن نحو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ أي ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثاني حال.

٢- ويطلق التأويل بمعنى التفسير، وهذا قول معروف كقول ابن جرير: القول في تأويل قوله تعالى كذا، أي تفسيره.

٣- أما في اصطلاح الأصوليين فالتأويل: هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل.

وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه له عند علماء الأصول ثلاث حالات:

أ - إما أن يصرفه عن ظاهره المتبادر منه لدليل صحيح من كتاب أو سنة، وهذا النوع من التأويل صحيح مقبول لا نزاع فيه. ومثال هذا النوع ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (الجار أحق بصقبه)[2] فظاهر هذا الحديث ثبوت الشفعة للجار.

وحمل هذا الحديث على الشريك المقاسم حمل للفظ على محتمل مرجوح غير ظاهر متبادر، إلا أن حديث جابر الصحيح (فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة)[3] دل على أن المراد بالجار الذي هو أحق بصقبه خصوص

---

(١) ألفت في هذا الموضوع رسالة بعنوان: التأويل خطورته وآثاره.

(٢) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه. (منتقى الأخبار: ص: ٤٩٢. ورقمه: ٣١٧٧).

(٣) رواه البخاري وأبو داود والترمذي وأحمد. (منتقى الأخبار: ص: ٤٩٢).

الشريك المقاسم. فهذا النوع من صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل واضح من كتاب وسنة يجب الرجوع إليه، وهذا تأويل يسمى تأويلاً صحيحاً وتأويلاً قريباً.

ب - الثانية هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لشيء يعتقده المجتهد دليلاً، وهو في نفس الأمر ليس دليلاً، فهذا يسمى تأويلاً بعيداً، ويقال له: فاسد. ومثل له بتأويل أبي حنيفة لفظ: (امرأة) في قوله ﷺ: (أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل)[1] قالوا: حمل هذا على خصوص المكاتبة تأويل بعيد، لأنه صرف للفظ عن ظاهره المتبادر منه، لأن (أي) في قوله (أي امرأة) صيغة عموم.

وأكدت صيغة العموم بما المزيدة للتوكيد، فحمل هذا على صورة نادرة هي المكاتبة حمل للفظ على غير ظاهره من غير دليل.

جـ - أما حمل اللفظ على غير ظاهره لا لدليل: فهذا لا يسمى تأويلا في الاصطلاح بل يسمى لعباً، لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ومن هذا تفسير غلاة الروافض قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] قالوا: عائشة.

ومن هذا النوع صرف آيات الصفات عن ظواهرها إلى محتملات ما أنزل الله بها من سلطان، كقولهم: (استوى) بمعنى: استولى. فهذا لا يدخل في اسم التأويل، لأنه لا دليل عليه ألبتة. وإنما يسمى في اصطلاح أهل الأصول: لعباً، لأنه تلاعب بكتاب الله - جلّ وعلا - من غير دليل ولا مستند. فهذا النوع لا يجوز؛ لأنه تهجّم على كلام رب العالمين، والقاعدة المعروفة عند علماء السلف أنه لا يجوز صرف شيء من كتاب الله ولا سنة رسوله عن ظاهره المتبادر منه، إلا بدليل يجب الرجوع إليه.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد (منتقى الأخبار: ٥٣٩، ورقمه: ٣٤٥٢).

المطلب السابع

مذهب أهل السنة والجماعة في صفات الله

لخص ابن تيمية مذهب السلف الصالح في هذا الباب فقال:

« فالأصل في هذا الباب أن يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ نفياً وإثباتاً، فيثبت لله ما أثبته لنفسه، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه.

وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل »[(١)].

وقد حذرنا الله من الانحراف عن النهج الذي قرره الله في كتابه في أسمائه تعالى وصفاته، فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد والميل والجور والانحراف، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمة القبر »[(٢)].

وقال تعالى منزهاً نفسه عما يصفه به الملحدون في أسمائه الضالون المشركون: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]، ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]، ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٦٠]، وفي الآية الأخرى سلم على المرسلين لسلامة ما قالوه: ووصفوا الله به ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨١].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/٣. وقد قرر عقيدة السلف جمع كبير من العلماء، منهم الطحاوي، وقد شرح عقيدته محمد بن أبي العز الحنفي في مؤلف معنون بـ (بشرح العقيدة الطحاوية)، وأبو الحسن الأشعري في كتابه الجليل (الإبانة عن أصول الديانة)، والصابوني في كتابه (عقيدة السلف)، وغيرهم كثير، ونحن اقتفينا أثرهم، وسرنا على دربهم، سائلين الله أن يحشرنا في زمرتهم في يوم الدين.

(٢) معارج القبول: ١/٨٨.

عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري في صفات الله

يشغب بعض من لم يرتض مذهب أهل السنة على أهل السنة مدعياً أن مذهب الأشاعرة يخالف هذا الذي قررناه، ويدعي أن مذهبهم مذهب أهل السنة، ونحن نورد هنا المذهب الذي حكاه أبو الحسن الأشعري عن أهل السنة وأصحاب الحديث، ونص في ختامه أنه معتقده قائل به.

عنون لهذا المبحث بقوله: « هذه حكاية جملة قول أصحاب الحديث وأهل السنة » ثم قال: « جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله، وما جاء من عند الله، وما رواه الثقات عن رسول الله ﷺ لا يردّون من ذلك شيئاً[1]، وأن الله سبحانه إلهٌ واحد فرد صمد لا إله غيره لم يتخذ صاحبة ولا ولداً وأن محمداً عبده ورسوله، وأن الجنة حقٌّ، وأن النار حقٌّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.

وأن الله سبحانه على عرشه كما قال: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، وأن له يدين بلا كيف كما قال: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥] وكما قال: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة: ٦٤] وان له عينين بلا كيف كما قال: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ [القمر: ١٤]، وأنّ له وجها كما قال: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وأن أسماء الله لا يقال: إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج، وأقرّوا أن لله سبحانه علماً كما قال: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦] وكما قال: ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [فاطر: ١١].

وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة، وأثبتوا لله

---

(١) لاحظ كيف جعل صحيح الحديث حجّة في العقائد؛ لأن كلامه هنا في العقائد لا الأحكام، فهو لا يفرق بين المتواتر والآحاد، وفعله في استدلاله على مسائل الاعتقاد في كتبه يدل على صحة ما قررناه.

القوة كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ويقولون إنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، والكلام في الوقف واللفظ من قال باللفظ أو بالوقف فهو مبتدع عندهم، لا يقال: اللفظ بالقرآن مخلوق، ولا يقال: غير مخلوق.

ويقولون إنّ الله سبحانه يُرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر، يراه المؤمنون، ولا يراه الكافرون؛ لأنهم عن الله محجوبون قال عز وجل ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، وأن موسى عليه السلام سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا، وأن الله سبحانه تجلى للجبل فجعله دكاً، فأعلمه بذلك أنه لا يراه في الدنيا، بل يراه في الآخرة.

ويصدّقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ أن الله سبحانه ينزل إلى السماء الدنيا فيقول: (هل من مستغفر) كما جاء الحديث عن رسول الله ﷺ، ويقرون أن الله سبحانه يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

وختم أبو الحسن الأشعري جملة ما حكاه عن أهل السنة وأصحاب الحديث بقوله: «فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويرونه، وبكل ما ذكرنا من قولهم نقول، وإليه نذهب، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وبه نستعين، وعليه نتوكل، وإليه المصير»[١].

وبهذا النقل يتضح لك موافقة معتقد أبي الحسن الأشعري لمعتقد أهل السنة والجماعة في باب أسماء الله وصفاته[٢].

---

(١) راجع مقالات الإسلاميين: ص ٢٩٠-٢٩٧، وقد اقتصرنا على نقل ما يتعلق بصفات الله فحسب، أما بقية معتقد أهل السنة وأهل الحديث الذي رضيه فلم ننقله منه.

(٢) وقد ألفت رسالة لطيفة تبين معتقد أبي الحسن الأشعري ومنهجه.

الفصل الثالث

توحيد الله(1)

المبحث الأول: معناه وأقسامه

الله - سبحانه - واحد في ذاته، ليس له مثيل ولا نظير، تعالى عن الصاحبة والولد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤] وهو سبحانه متصف بصفات الكمال، لا يشبهه شيء من مخلوقاته في صفة من صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وهو وحده الخالق المحيي المميت قيوم السموات والأرض، ولا يعد مؤمناً من لم يعلم علماً يقينياً بأن الله متفرد بذلك كله.

لا يكفي التوحيد العلمي، بل لا بدّ من التوحيد العملي:

إلا أن هذا التوحيد النظري لا يكفي كي يعد المرء مؤمناً، بل لا بد من اتخاذه وحده إلهاً معبوداً بالتوجه إليه بالعبادة دون سواه.

لأن الخالق الرزاق المنعم المتفضل المحيي المميت المتصف بصفات

---

(١) التوحيد الحق: الاعتقاد بوحدانية الله سبحانه في ذاته وصفاته، ثم عبادته وحده لا شريك له، وقد حرف هذا المفهوم، فزعم قوم أن التوحيد يقتضي نفي صفات الله، لأنه يلزم منه بزعمهم تعدد الواجب، وزعم بعض الصوفية أن التوحيد الذي أشرنا إليه توحيد العامة، أما توحيد الخاصة فهو الذي يثبت بالحقائق، وزعموا أن هناك توحيد خاصة الخاصة، وكل ذلك ضلال.

الكمال المنزه عن صفات النقص هو المستحق أن يُعبَد دون سواه، فغيره مربوب مألوه لا يملك لنفسه ضراً ولانفعاً، فكيف يعبد من دون الله تعالى؟

تناقض الذين لا يعبدون الله وحده:

والكفرة من مشركي العرب وكثير غيرهم كانوا يعتقدون بوحدانية الله في الخلق والإيجاد، وتفرده في الرزق والإحياء والإماتة والملك، ولكنهم يرفضون عبادته وحده دون غيره، وقصده دون سواه، وهذا تناقض شنيع، فالمتفرد بالخلق والإيجاد هو المستحق للعبادة والخضوع والتعظيم، وقد أطال القرآن في مناقشة المشركين وبيان تناقضهم في هذا وبين لهم أن الذي أقروا به من تفرده بالخلق والرزق... إلخ يلزمهم بعبادته وإخلاص الدين له.

المبحث الثاني
كلمة التوحيد: معناها، فضلها، شروطها

(لا إله إلا الله) كلمة التوحيد، جمعت الإيمان واحتوته، وهذه الكلمة عنوان الإسلام وأساسه.

ومعناها: لا معبود يستحق العبادة إلا الله سبحانه، وقد أخطأ من فسرها بأنه لا موجود إلا الله، لأن معنى الإله: المعبود، فيصبح المعنى بناء على قول هؤلاء، لا معبود موجود إلا الله، وهذا غير صحيح ؛ لأنه يلزم منه أنّ كلّ معبود بحق أو باطل هو الله، فيكون ما عبده المشركون من شمس وقمر ونجوم. . . إلخ هو الله، فكأنه قيل: ما عُبِد على هذا التقدير إلا الله، وهذا من أبطل الباطل.

فالمعنى الصحيح المتعين هو ما ذكرناه أولاً: أنه لا معبود يستحق العبادة إلا الله وحده.

وقد جاءَت النصوص دالة على فضل (لا إله إلا الله)، وعظيم نفعها، وقد سبق ذكر النصوص الدالة على أن من قال: (لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة). وبهذه الكلمة يعصم العبد ماله ودمه، ويصبح مسلماً.

ولكن ليس المراد بهذه الكلمة مجرد النطق، فلا تنفع هذه الكلمة قائلها عند ربه إلا بسبعة شروط:

١ - العلم بمعناها: قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

وفي الصحيح عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)[1].

٢- اليقين: بأن يكون القائل مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا اليقين لا الظن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥] فاشترط في صدق إيمانهم كونهم لم يرتابوا، أي لم يشكوا، وفي الصحيح من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكّ فيهما فيحجب عن الجنة)[2].

وفي الصحيح أيضاً أن الرسول ﷺ أرسل أبا هريرة بنعليه قائلاً له: (من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة)[3] فاشترط دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقناً بها قلبه غير شاكّ فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط.

٣- القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وقد حدثنا القرآن أن الله عذب المكذبين من الأمم الذين رفضوا هذه الكلمة، واستكبروا عنها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦] جعل الله علة تعذيبهم وسببه هو استكبارهم عن قول لا إله إلا الله، وتكذيبهم من جاء بها.

٤- الانقياد لما دلت عليه، قال: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] وقال: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ

---

(١) رواه مسلم: ١/ ٥٥. ورقمه: ٢٦.

(٢) رواه مسلم: ١/ ٥٧. ورقمه: ٢٧.

(٣) رواه مسلم: ١/ ٦٠. ورقمه: ٣١.

﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]، ومعنى يسلم وجهه أي ينقاد، وهو محسن؛ أي موحد، والعروة الوثقى فسرت (بلا إله إلا الله).

٥- الصدق: وهو أن يقولها صادقاً من قلبه، يواطىء قلبه لسانه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨-٩]. فهم كاذبون في قولهم، يبطنون غير ما يعلنون، وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار)[١]، فاشترط في النجاة من النار أن يقولها صدقاً من قلبه.

٦- الإخلاص: وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: (أسعد الناس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ونفسه)[٢].

وفي الصحيح عن عتبان بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: (إن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عزّ وجلّ)[٣].

٧- المحبة: لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها وبغض ما ناقض ذلك، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ

---

(١) رواه البخاري: ١/٢٢٦. ورقمه: ١٢٨.

(٢) رواه البخاري: ١/١٩٣. ورقمه: ٩٩.

(٣) رواه البخاري: ١/٥١٩. ورقمه: ٤٢٥.

﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فأخبر أن عباده المؤمنين أشد حباً له، وذلك لأنهم لم يتخذوا من دونه أنداداً، وعلامة حب العبد ربه تقديم محابه، وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه الله ورسوله، واتباع رسول الله ﷺ واقتفاء أثره وقبول هداه.

إشارة السلف إلى بعض هذه الشروط:

قال الحسن البصري للفرزدق - الشاعر المعروف - وهو يدفن امرأته: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة. قال الحسن: نعم العدّة، لكن للا إله إلا الله شروطاً، فإياك وقذف المحصنات.

وقيل للحسن البصري: إن ناساً يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله فأدى حقها وفرضها دخل الجنة.

وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا له أسنان، فإن أتيت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك.

المبحث الثالث: العبادة

المطلب الأول: تعريف العبادة

التوحيد لا يتحقق إلا بأمرين:

الأول: الشهادة لله بالوحدانية في ذاته وصفاته.

الثاني: قصده وإرادته وحده دون سواه في جميع العبادات.

والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فالظاهرة كالتلفظ بالشهادتين والصلاة والصوم، والباطنة كالإيمان بالله وملائكته والكتب والرسل والخوف والرجاء....

المطلب الثاني

العابد هو الذي يتقلب بين الخوف والرجاء

العبادة الحقة هي التي يتقلب صاحبها بين حب الله، والخوف منه والتذلل له، ورجائه والطمع في رحمته.

فالعابد لا حباً ولا خوفاً ولا رجاءً إنما يؤدي حركات جوفاء لا تعني بالنسبة له شيئاً.

والعابد حباً بلا تذلل ولا خوف ولا رجاء كثيراً ما يقع في الذنوب

والمعاصي، فيزعم أنه يحب الله ويترك العمل ويتجرأ على الذنوب، وقديماً زعم قوم حب الله من غير عمل فاختبرهم الله بقوله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فمن ادعى محبة الله ولم يكن متبعاً رسوله فهو كاذب.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: « إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء فلا تصدقوه حتى تعلموا متابعته لرسول الله ».

وكذلك الرجاء وحده إذا لم يقترن بخوف الله وخشيته فإن صاحبه يتجرأ على معاصي الله، ويأمن مكره: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وكذلك الخوف إذا لم يقترن بالرجاء فإن العابد يسوء ظنه بالله، ويقنط من رحمته، وييأس من روحه، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

فالعبادة الحقة هي التي يكون صاحبها بين الخوف والرجاء ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] كما يكون بين الرغبة والرهبة كما قال تعالى في آل زكريا عليهم السلام: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالعبد الصالح تارة يمده الرجاء والرغبة، فيكاد يطير شوقاً إلى الله، وطوراً يقبضه الخوف والرهبة فيكاد أن يذوب من خشية الله تعالى، فهو دائب في طلب مرضاة ربه مقبل عليه خائف من عقوباته، ملتجىء منه إليه، عائذ به منه، راغب فيما لديه.

المطلب الثالث: أركان العبادة

للعبادة أركان ثلاثة:

الأول: الإخلاص: بأن يقصد العبد وجه ربه والدار الآخرة، قال ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرى ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأةٍ ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)[1] وترك الإخلاص يبطل العبادة.

الثاني: الصدق: ونريد به الصدق في العزيمة، بأن يبذل العبد جهده في امتثال أمر الله واجتناب نهيه، والاستعداد للقائه، وترك العجز، وترك التكاسل عن طاعة الله.

الثالث: متابعة الرسول ﷺ، فلا يعبد الله إلا وفق ما شرعه الله، وما جاء به الرسول ﷺ، أمّا أن يعبد الناس ربهم بغير علم فهذه هي البدعة التي حذر منها الرسول ﷺ وذم فاعلها، وأخبر أن عمله ضلالة. فقال: « كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار». وصاحب البدعة عمله مردود عليه غير مقبول منه.

ففي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وفي رواية لمسلم: « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد »[2].

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وهو حديث مشهور تغني شهرته عن تخريجه. وانظر كتابنا « مقاصد المكلفين » ص: ٥١٩، فقد ذكرنا فيه طرقه ومخرجيه.

(٢) عزاه ابن الأثير في جامع الأصول: ١/ ٢٨٩، ورقمه: ٧٥ إلى البخاري ومسلم وأبي داود.

لا عبادة إلا بهذه الأركان:

فما لم توجد العزيمة الصادقة لا توجد العبادة، إذ تصبح العبادة تمنيات وآمالاً لا يكاد يهم المرء بفعلها حتى تخبو إرادته وتنحل. وما لم يوجد الإخلاص ومتابعة الرسول ﷺ فإن العبادة لا يقبلها الله تعالى.

المطلب الرابع

أنواع العبادات التي لا يجوز أن يقصد بها غير الله

والعبادات التي لا يجوز أن يقصد ويراد بها غير الله أنواع:

الأول: عبادات اعتقادية:

وهذه أساس العبادات كلها، وهي أن يعتقد العبد أن الله هو الرب الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، الذي لا شريك له، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنه لا معبود بحق غيره.

الثاني: عملية قلبية:

والعبادات القلبية التي لا يجوز أن يقصد بها إلا الله وحده، وصرفها لغيره شرك كثيرة، كالخوف والرجاء، والرغبة والرهبة، والخشوع والخشية، والحب، والإنابة، والتوكل، والخضوع.

الثالث: قولية:

كالنطق بكلمة التوحيد ؛ إذ لا يكفي اعتقاد معناها، بل لا بد من النطق بها، وكالاستعاذة بالله، والاستعانة والاستغاثة به، والدعاء له، وتسبيحه، وتمجيده، وتلاوة القرآن.

الرابع: بدنية:

كالصلاة، والصوم، والحج، والذبح، والنذر، وغير ذلك.

الخامس: مالية:

كالزكاة، وأنواع الصدقات، والكفارات، والأضحية، والنفقة.

المبحث الرابع

ما يضاد التوحيد وينافيه

الذي ينافي التوحيد ويضاده الشرك، يقال: شركته في الأمر إذا صرت له شريكاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ [طه: ٣٢] أي اجعله شريكي فيه.

الشرك نوعان: وفي مصطلح الشريعة الإسلامية الشرك نوعان:

الأول: الشرك الأكبر:

والمشرك شركاً أكبر هو الذي يجعل مع الله رباً آخر كشرك النصارى الذي جعلوه ثالث ثلاثة، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة، وكشرك الصابئة الذين ينسبون إلى الكواكب العلوية تدبير أمر العالم، ومثل هؤلاء كثير من عُبّاد القبور الذين يزعمون بأن أرواح الأولياء تتصرف بعد الموت، فيقضون الحاجات، ويفرّجون الكربات، وينصرون من دعاهم، ويحفظون من التجأ إليهم، ولاذ بحماهم. ومن الشرك الأكبر أن يجعل مع الله إلهاً آخر: ملكاً، أو رسولاً، أو ولياً، أو شمساً، أو قمراً، أو حجراً، أو بشراً، يُعبد كما يُعبد الله، وذلك بدعائه والاستعانة به، والذبح له والنذر له، وغير ذلك من أنواع العبادة.

لا تشترط مساواة الشريك لله حتى يصبح شركاً:

ولا يشترط أن يساوي المشرك في شركه مع الله غيره من كل وجه، بل يسمى مشركاً في الشرع بإثباته شريكاً لله، ولو جعله دونه في القدرة والعلم مثلاً.

فأما حكايته تعالى عن المشركين قولهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ * إِذْ

﴿نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]، فهي التسوية في المحبة والخوف والرجاء والطاعة والانقياد، لا في القدرة على الخلق والإيجاد، لأنهم كانوا يقولون بوحدانيته في الخلق والإيجاد.

خطورة هذا الشرك:

الشرك الأكبر في غاية الخطورة فهو يحبط العمل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وصاحبه خالد مخلّد في نار جهنم لا يغفر الله له، ولا يدخله الجنّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

أعظم جريمة وأفظع ظلم:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: (أن تدعو لله نداً وهو خلقك) متفق عليه[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

النوع الثاني: الشرك الأصغر:

والشرك الأصغر كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، وعدم الإخلاص لله

(١) مشكاة المصابيح: ١/ ٢١، ورقمه: ٤٩.

تعالى في العبادة، بل يعمل لحظ نفسه تارة، ولطلب الدنيا تارة، ولطلب المنزلة والجاه تارة، فلله من عمله نصيب، ولغيره منه نصيب، ويتبع هذا النوع الشرك بالله في الألفاظ كالحلف بغير الله، وقول: ما شاء الله وشئت، وما لي إلا الله وأنت.

وقد يكون شركاً أكبر بحسب قائله ومقصده.

وهذا النوع من الشرك: (الشرك الأصغر) وإن كان لا يُخْرِجُ من الملة فإن صاحبه على خطر عظيم، ينقص من أجره شيء كثير، وقد يحبط منه العمل، ففي الصحيحين عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)[١].

وفي صحيح مسلم فيما يرويه الرسول ﷺ عن ربه: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)[٢].

وفي المسند أن الرسول ﷺ قال: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا: يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: (الرياء). وزاد البيهقي في شعب الإيمان: (يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً وخيراً)[٣].

وفي النهي عن هذا الشرك نزل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

---

(١) رواه البخاري: ٦/ ٢٨. ورقمه: ٢٨١. ورواه مسلم: ٣/ ١٥١٢. ورقمه: ١٩٠٤.

(٢) رواه مسلم. انظر جامع الأصول: ٤/ ٥٤٥. ورقمه: ٢٦٥١.

(٣) مشكاة المصابيح: ٢/ ٦٨٧، ورقمه: ٥٣٣٤.

الفصل الرابع
نظرة في تاريخ العقيدة

المبحث الأول: هل تطورت العقيدة عبر الزمان

يرى كثير من الباحثين الغربيين أن الإنسان لم يعرف العقيدة على ما يعرفها عليه اليوم مرة واحدة، ولكنها ترقت، وتطورت في فترات وقرون متعاقبة.

ولا عجب أن يقول بهذا القول الباطل قوم لم يمنحهم الله كتابه الذي يحكي تاريخ العقيدة بوضوح لا لبس فيه، إلا أن العجيب أن يذهب هذا المذهب رجال يعدون أنفسهم باحثين مسلمين.

فهذا عباس محمود العقاد يرى في كتابه (الله)[1] - وهو كتاب يبحث في نشأة العقيدة الإلهية - أن « الإنسان ترقى في العقائد »، ويرى أن ترقي الإنسان في العقائد موافق تماماً لترقيه في العلوم.

ويقول: « كانت عقائد الإنسان الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليس أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات، وليس عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى ».

بل يرى أن تطور العقيدة لدى الإنسان كان أشق من تطور العلوم والصناعات، يقول في هذا: « وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل

(١) نشرته دار الهلال - القاهرة: انظر: ص: ١٠ وما بعدها.

الدّين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى».

ويرى أن الحقيقة الإلهية لم تتجل للناس مرة واحدة، يقول: «فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدلّ على بطلان التدين، ولا على أنها تبحث عن محال، كل ما يدلّ عليه أنّ الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد».

ثم أخذ يستعرض آراء الباحثين في تاريخ العقيدة، فمنهم من يرى أنّ السبب في نشأة العقيدة هو ضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه من قوى الطبيعة والأحياء، . . . وبعضهم يرى أن العقيدة الدينية حالة مرضية في الآحاد والجماعات، ويرى بعضهم أن أصل العقيدة الدينية عبادة «الطوطم»، كأن تتخذ بعض القبائل حيواناً (طوطمياً) تزعمه أباً لها. وقد يكون شجراً أو حجراً يقدسونه، إلى آخر تلك الفروض التي قامت في أذهان الباحثين الغربيين.

ومع الأسف فقد سرت هذه النظرية[١] إلى كثير من الكتّاب، واعتنقها جملة من الدارسين[٢]، والذي أوقع هؤلاء في هذا الخطأ أمور:

الأول: أنهم قدّروا أن الإنسان الأول خُلق خلقاً ناقصاً، غير مؤهل لأن يتلقى الحقائق العظمى كاملة، بل إن تصوراتهم عن الإنسان الأول تجعله أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان.

الثاني: أنهم ظنوا أن الإنسان اهتدى إلى العقيدة بنفسه بدون معلم يعلمه،

---

(١) ممن جنح إلى القول بهذه النظرية مصطفى محمود في كتابه (الله).

(٢) لست أدري أي عقيدة هذه التي تطورت، أهي العقيدة اليهودية المحرفة، أم النصرانية المبدلة، أم عقيدة الفلاسفة. . . إن هذه العقائد لا تمثل إلا انحرافات عقائدية، ولا تمثل العقيدة السليمة.

ومرشد يوضح له. فما دام الأمر كذلك فلا بد أن يترقى في معرفته بالله كما ترقى في العلوم والصناعات.

الثالث: أنهم عندما بحثوا في الأديان ليتبينوا تاريخها لم يجدوا أمامهم إلا تلك الأديان المحرفة أو الضالة، فجعلوها ميدان بحثهم، فأخضعوها للدراسة والتمحيص، وأنى لهم أن يعرفوا الحقيقة من تلك الأديان التي تمثل انحراف الإنسان في فهم العقيدة.

القرآن وحده يوضح تاريخ العقيدة:

ليس هناك كتاب في الأرض يوضح تاريخ العقيدة بصدق إلا كتاب الله سبحانه وتعالى، ففيه علم غزير في هذا الموضوع، وعلم البشر لا يمكن أن يدرك هذا الجانب إدراكاً وافياً لأسباب:

الأول: أن ما نعرفه عن التاريخ قبل خمسة آلاف عام قليل، أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف عام فيعتبر أقل من القليل، وما قبل ذلك فيعتبر مجاهيل لا يدري علم التاريخ من شأنها شيئاً، لذا فإن كثيراً من الحقيقة ضاع بضياع التاريخ الإنساني.

الثاني: أن الحقائق التي ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير، بل ضاعت في أمواج متلاطمة في محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف، ومما يدل على ذلك أن كتابة تاريخ حقيقي لشخصية أو جماعة ما في العصر الحديث تعتبر من أشقّ الأمور، فكيف بتاريخ يمتدّ إلى فجر البشرية؟!

الثالث: أن قسماً من التاريخ المتلبس بالعقيدة لم يقع في الأرض، بل في السماء.

لذا فإن الذي يستطيع أن يمدنا بتاريخ حقيقي لا لبس فيه هو الله - سبحانه وتعالى - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

المبحث الثاني
تاريخ العقيدة كما يرويه القرآن الكريم

أعلمنا الله سبحانه أنه خلق آدم خلقاً مستقلاً سوياً متكاملاً، ثم نفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأباح له أن يأكل هو وزوجته منها كيف شاءا إلا شجرة واحدة، فأغراه عدوّه إبليس بالأكل من الشجرة، فأطاع عدوه، وعصى ربّه، فأهبطه الله من الجنة إلى الأرض، وقبل الهبوط وعده الله - سبحانه - بأن ينزل عليه وعلى ذريته هُداه، كي يعرف الإنسان بربه ومنهجه وتشريعه، ووعد المستجيبين بالهداية في الدنيا والسعادة في الأخرى، وتوعّد المستكبرين بالمعيشة الضنكة في الدّنيا وبالشقاء في الآخرة: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩].

وفي سورة طه يقول: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

الجيل الأول من البشرية كان على التوحيد:

هبط آدم إلى الأرض، وأنشأ الله من ذريته أمة كانت على التوحيد الخالص كما قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[البقرة: ٢١٣]، أي على التوحيد والدين الحق فاختلفوا ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ

﴿بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وفي حديث أبي أمامة أن رجلاً سأل الرسول ﷺ قال: يا رسول الله أنبي كان آدم؟ قال: (نعم، مكلم) قال: قال: فكم بينه وبين نوح؟ قال (عشرة قرون) رواه أبو حاتم ابن حبان في صحيحه. وقال ابن كثير: « هذا على شرط مسلم، ولم يخرجه »[١].

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: (وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام)[٢].

ومقدار القرن مائة سنة، وعلى ذلك يكون بين آدم ونوح ألف سنة.

وقد تكون المدة بينهما أكثر من ذلك، إذ قيد ابن عباس هذه القرون العشرة بأنها كانت على الإسلام، فلا ينفي أن يكون بينهما قرون أخرى على غير الإسلام.

وقد يكون المراد بالقرن الجيل من الناس كما قال تعالى: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِنۢ بَعۡدِ نُوحٖۗ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ [نوح: ٢٣][٣].

أول انحراف عن العقيدة وأول رسول:

وبعد أن كان الناس أمة واحدة على التوحيد حصل الزيغ والانحراف، وكان أول انحراف حدث هو الغلو في تعظيم الصالحين، ورفعهم إلى مرتبة الآلهة المعبودة.

ففي صحيح البخاري من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند

(١) البداية والنهاية: ١/ ١٠١.

(٢) البداية والنهاية: ١/ ١٠١.

(٣) راجع البداية والنهاية: ١/ ١٠١.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣]. قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وانتسخ العلم (نُسي ودرس) عُبدت»(١).

فهذا أول انحراف وجد في تاريخ البشرية عن التوحيد، فأرسل الله إليهم أول رسله نوحاً عليه السلام مصداقاً لوعده الذي أعطاه لأبي البشر آدم بإرسال الرسل وإنزال الكتب هداية للبشرية.

والدليل على أن نوحاً كان أول رسول مبعوث حديث الشفاعة الثابت في الصحيح، وفيه: (أن الناس يأتون بعد آدم نوحاً فيقولون له فيما يقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً)(٢). والنصوص التي بين أيدينا من كتاب ربنا تدل دلالة واضحة على أن نوحاً قد دعا إلى التوحيد الخالص، فقد قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩]، وقال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود:٢٦] وقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٣].

والذين استجابوا لدعوته للتوحيد هم ضعفاء الناس، وتنكّر لها السادة والزعماء الذين يظنون في أنفسهم العقل والذكاء حيث استكبروا عن متابعة الحق: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف:٦٠] والملأ المذكورون في الآية هم السادة والكبراء، وقالوا له: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧]؛ أي: اتبعوك بدون تأمل عميق،

---

(١) صحيح البخاري: ٨/ ٦٦٧. ورقمه: ٤٩٢٠.

(٢) رواه مسلم: ١/ ١٨٥. ورقمه: ١٩٤.

وتفكير ونظر، وهذا الذي رموهم به هو ما يجب أن يُمدحوا به، فإن الحق إذا ظهر لا يحتاج إلى نظر، بل يجب اتباعه.

وتعجبوا أن يبعث الله رسولاً بشراً فقالوا: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وطلبوا منه أن يطرد الضعفاء والمساكين الذين تابعوه فرفض طلبهم ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩].

وقد تطاول الزمان وكثرت المجادلة بينه وبينهم كما قال الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] فدعا عليهم: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧] فأهلكهم الله بالطوفان: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧]، وأنجى نوحاً والمؤمنين برحمة منه، وخلت الأرض من الظالمين، ولم يبق فيها إلا الموحدون، فلما انحرفوا عن التوحيد أرسل الله إليهم رسولاً ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣١-٣٢]، فدعاهم إلى توحيد الله ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٣٢].

وهكذا استمرت رحمة الله وعنايته ببني آدم كلما ضلوا وزاغوا أنزل إليهم هُداه يضيء لهم الظلمات: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

هذه هي قصة البشرية الحقيقية صراع طويل بين الحق والباطل، بين الرسل الذين يعرضون الهدى والحق، وبين الضالين المعرضين عن التوحيد المتمسكين بما ألْفَوْا عليه الآباء والأجداد، وبأهوائهم ومعتقداتهم الباطلة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟

﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ * ۞ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ [إبراهيم: ٩-١٠].

وبالتأمل في دعوة الرسل التي عرضها القرآن تتبين لنا الحقائق التالية:

الأولى: أن الله خلق الإنسان منذ البداية خلقاً سوياً مكتملاً لغاية محددة، هي عبادته، وأنه خلقه مؤهلاً لذلك.

الثانية: أن الله عرفه على نفسه منذ البداية، ولم يتركه لفكره يتعرف على ربه بطريق التفكير والتأمل، بل أرسل إليه رسلاً، وقد كان هؤلاء الرسل من الكثرة بحيث إنهم بلّغوا البشرية كلها ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤].

لذا فإننا لا نعلم أسماء جميع الرسل الذين أرسلهم الله ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: ٧٨].

ومما يدل على ذلك أن الأمم المكذبة في يوم القيامة تقر وتعترف بتبليغ الرسل لها دعوة الله قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٨-٩].

وما هذا التتابع في إرسال الرسل على مدار التاريخ إلا رحمة من الله بعباده، ووفاء بوعده الذي وعد به آدم أبا البشرية، وإعذاراً منه لخلقه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

الثالثة: دعوة الرسل واحدة، فأصل دعوتهم جميعاً ولبها التوحيد، بتعريف الناس على ربهم ومعبودهم، وبيان الطريقة التي يعبدونه بها.

الرابعة: أن دين الرسل جميعاً الإسلام لا دين لهم سواه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] فنوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]. وقال الله عن التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال موسى لقومه: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وأمر الله خليله إبراهيم بالإسلام، فقال: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وعندما سأل يعقوب بنيه عن معبودهم من بعده ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وملكة سبأ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، ويوسف كان من دعائه: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، والرسول ﷺ يقول: (والأنبياء إخوة لعلاّتٍ، أمهاتُهم شتى ودينهم واحد)(١) (٢).

وهذا التنوع الذي نراه في الشرائع لا يدل على أن دينهم كان مختلفاً؛ لأن الله قد يشرع أمراً لحكمة، ثم يشرع أمراً آخر في وقت آخر لحكمة أخرى، بل قد يكون هذا في الشريعة الواحدة، كما شرع الله في بداية الأمر الاتجاه إلى بيت المقدس في الصلاة، ثم نسخ ذلك بأن أمر بالتوجه إلى البيت الحرام،

(١) رواه البخاري: ٦/٤٧٨، ورقمه: ٣٤٤٣.

(٢) إخوة لعلات هم الأخوة لأب، أبوهم واحد وأمهاتهم مختلفة، وكذلك الأنبياء دينهم واحد وشرائعهم مختلفة.

فكان الإسلام أولاً التوجه إلى القدس، ثم أصبح التوجه إلى الكعبة، وكذلك شرائع الأنبياء، فالمتأخر ينسخ المتقدم، وأصبحت الشريعة المنزلة على محمد ﷺ هي الشريعة الخاتمة الناسخة لما قبلها من الشرائع.

الخامسة: ليس الترقي في الاعتقاد عبر القرون هو السبب في الشرك واتخاذ معبودات من دون الله كما ذهب إليه (العقاد) والذين تابعهم من الغربيين، بل سببه انحراف أتباع الرسل عما جاءت به الرسل، وتركهم ما جاءت به الرسل ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]، واتباعهم الظن والهوى وتركهم الهدى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٣]، ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

وقال في اليهود: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾[المائدة: ١٣]، وقال في النصارى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [المائدة: ١٤] وقال فيهم مبيناً انحرافهم عن التوحيد الذي أمروا به: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

لذا فإن الرسل يتبرؤون من الذين انحرفوا عن منهجهم ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

الفصل الخامس
تصورات الأمم الضالة للمعبود

لا نريد من وراء هذا البحث في هذا الموضوع أن نؤرخ للجانب المنحرف في العقيدة، فذلك ليس في مكنة الباحث لكثرة أنواع الانحراف، وما الفائدة من التأريخ للجانب المظلم والكفر ملة واحد! إنما مرادنا من وراء ذلك أن ندرك شيئاً مما وقعت فيه الأمم، كي نعلم القيمة العظيمة التي تمتاز بها العقيدة الإسلامية.

إنّ الذين يدركون الباطل ويعرفونه هم أقدر على معرفة الحقّ إذا اعتنقوه، وإنّ الذين يتبعون الإسلام ولا يعلمون الجانب المقابل له، وهو الباطل يخشى عليهم من الانزلاق في طرق الباطل، وصدق عمر بن الخطاب حيث يقول: « توشك أن تنقض عُرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية »، ولا شك أنّ الذي يعرف ظلام الليل أقدر على معرفة ضوء النهار، والصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى.

وقد أدرك هذه الحقيقة سيد قطب حيث يقول: « الإنسان لا يدرك ضرورة هذه الرسالة، وضرورة هذا الانفكاك عن الضلالات التي كانت البشرية تائهة في ظلماتها، وضرورة الاستقرار على يقين واضح في أمر العقيدة... حتى يطّلع على ضخامة ذلك الركام، وحتى يرتاد ذلك التيه، من العقائد والتصورات، والفلسفات والأساطير، والأفكار والأوهام، والشعائر والتقاليد، والأوضاع والأحوال، التي جاء الإسلام فوجدها ترين على الضمير البشري في كل مكان، حتى يدرك حقيقة البلبلة والتخليط والتعقيد التي كانت تتخبط فيها بقايا العقائد

السماوية التي دخلها التحريف والتأويل، والإضافات البشرية إلى المصادر الإلهية والتي التبست بالفلسفات والوثنيات والأساطير».

ونكتفي بثلاثة نماذج: واحد منها يمثل عقيدة دولة من الدول التي يعدها الناس متمدنة في القديم. والثاني انحراف أهل ديانة سماوية عن الحق. والثالث الوثنية العربية قبل عهد الرسول ﷺ.

المبحث الأول

الرّب عند الرومان[1]

يعد الباحثون الرومان من الأمم المتحضرة في القديم، فلننظر إلى عقيدة هذه الأمة الضالة. يزعمون أنّ «جوبيتر» هو ربّ الأرباب عندهم، وكانت صورته عندهم أقرب إلى صورة الشيطان منها إلى صورة الأرباب المنزهين، فقد كان حقوداً لدوداً مشغولاً بشهوات الطعام والغرام، لا يبالي من شؤون الأرباب والمخلوقات إلا ما يعينه على حفظ سلطانه والتمادي في طغيانه، وكان يغضب على «أسقولاب» إله الطب، لأنّه يداوي المرضى، فيحرمه جباية الضريبة على أرواح الموتى الذين ينتقلون من ظهر الأرض إلى باطن الهاوية.

ويزعمون أنه كان يغضب على «برومثيوس» إله المعرفة والصناعة، لأنّه يعلّم الإنسان أن يستخدم النّار في الصناعة، وأن يتخذ من المعرفة قوة تضارع قوة الأرباب، وقد حكم عليه بالعقاب الدائم، فلم يقنع بموته ولا بإقصائه عن حظيرة الآلهة، بل تفنن في اختراع ألوان العذاب له، فقيّده إلى جبل سحيق، وأرسل عليه جوارح الطير تنهش كبده طوال النهار، حتى إذا جنّ الليل عادت سليمة في بدنه، لتعود الجوارح إلى نهشها بعد مطلع الشمس...، ولا يزال هكذا دواليك في العذاب الدائم مردود الشفاعة مرفوض الدعاء.

ومما تخيله الشاعر الوثني الفيلسوف «هزيود» عن علة غضب الإله على «برومثيوس»: أنّه قسم له نصيبه من الطعام في وليمة الأرباب، فأكثر فيه من العظام، وأقل فيه من اللحوم والشحوم، فاعتقد «جوبيتر» أنه تعالى عليه

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

بمعرفته وحكمته وفطنته، لأنه اشتهر بين الآلهة بمعرفة وافرة وفطنة نافذة لم يشتهر بها الإله الكبير.

وقد اجتهد (هزيود) الشاعر الفيلسوف قصارى اجتهاده في تنزيه «جوبيتر» وتصويره للناس في صورة القداسة والعظمة، تناسب صورة الإله المعبود بعد ارتقاء العبادة شيئاً ما في ديانة اليونان الأقدمين.

ومع ذلك فإن الباحثين الرومان يتحدثون عن «جوبيتر» أنّه كان يخادع زوجته «هيرة» ويرسل إله الغمام لمدارة الشمس في مطلعها حذراً من هبوب زوجته الغيرى عليه مع مطلع النهار ومفاجأته بين عشيقاته على عرش «الأولمب».

وحدث مرة أنّها فاجأته وهو يقبل ساقيه «جانيميد» راعي الضأن الجميل الذي لمحه في الخلاء، فاختطفه، وصعد به إلى السماء،.... فلم يتنصل «جوبيتر» من تهمة الشغف بساقيه، ومضى يسوغ مسلكه لزوجته بما جهلته من لذة الجمع بين رحيق الكأس ورحيق الشفاه.

هذا نموذج للعقيدة الشركية الضالة صنعتها الخرافة والوهم، فغدت أساطير. إنّ الآلهة عند الرومان آلهة متعددة تتصارع وتتقاتل، ويعذب بعضها بعضاً، وهي كالبشر تأكل وتشرب، وتتزوج، ويخون الإله زوجته، ويلوط ويبرر خطأه، فكيف يكون أثر هذه العقيدة في نفوس معتنقيها؟ وكيف يكون أثرها في سلوكهم أفراداً ومجتمعات؟ وأي قيم تقرها هذه العقيدة الشركية الضالة المنحرفة؟

المبحث الثاني

الإله عند اليهود[1]

حفلت ديانة بني إسرائيل - اليهودية - بالتصورات الوثنية وباللوثة القومية على السواء، فبنو إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام - جاءتهم رسلهم، وفي أولهم إسرائيل، بالتوحيد الخالص الذي علمهم إياه أبوهم إبراهيم، ثم جاءهم نبيهم الأكبر موسى عليه السلام بدعوة التوحيد أيضاً مع الشريعة الموسوية المبنية على أساسه، ولكنّهم انحرفوا على مدى الزمن، وهبطوا في تصوراتهم إلى مستوى الوثنيات، وأثبتوا في كتبهم (المقدسة) وفي صُلب التوراة أساطير وتصورات عن الله - سبحانه - لا ترتفع عن أحط التصورات الوثنية للإغريق وغيرهم من الوثنيين الذين لم يتلقوا رسالة سماوية، ولا كان لهم من عند الله كتاب.

ولقد كانت عقيدة التوحيد التي أنزلها الله على إبراهيم عقيدة خالصة ناصعة شاملة متكاملة، واجه بها الوثنية مواجهة حاسمة كما صورها القرآن الكريم، ووصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه قبل أن يموت: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ *

---

(١) خصائص التصور الإسلامي، لسيد قطب بتصرف يسير... ص ١١.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٤].

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

ومن هذا التوحيد الخالص وهذه العقيدة الناصعة وهذا الاعتقاد في الآخرة انتكس الأحفاد، وظلوا في انتكاساتهم حتى جاءهم موسى عليه السلام بعقيدة التوحيد والتنزيه من جديد، ولكنهم لم يستقيموا عليها، بل انحرفوا عنها.

ولقد بدأ انحرافهم وموسى عليه السلام بين أظهرهم، من ذلك عبادتهم للعجل الذي صنعه لهم السامري من الذهب الذي حملوه معهم من حليّ نساء المصريين ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ * فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٧-٨٨].

وقبل ذلك طلبوا من موسى - عليه السلام - أن يقيم لهم صنماً يعبدونه: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وحكى القرآن الكثير عن انحرافهم وسوء تصورهم لله - سبحانه - وشركهم ووثنيتهم، فنسبوا لله الولد ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] ونعتوه - سبحانه - بالبخل والفقر: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ

أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ومن لوثة القومية واعتقادهم أنّ إلههم قومي، لا يحاسبهم بقانون الأخلاق إلا في سلوك بعضهم مع بعض، أما الغرباء (غير اليهود) فهو لا يحاسبهم على سلوك معيب بهم.

من هذه اللوثة كان قولهم الذي حكاه القرآن الكريم: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وقد تضمنت كتبهم المحرفة أوصافاً لإلههم لا ترتفع كثيراً على أوصاف الإغريق في وثنيتهم لآلهتهم.

جاء في الإصحاح الثالث من سفر التكوين: «بعد ارتكاب آدم لخطيئة الأكل من الشجرة (وهي كما يقول كاتب الإصحاح شجرة معرفة الخير والشر) وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط الجنة، فنادى الرب الإله آدم، وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة، فخشيتك، لأني عريان، فاختبأت، فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها؟.

وقال الرب الإله: هوذا الإنسان صار كواحد منا عارفاً الخير والشر، والآن لعله يمد يده، ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، أو يأكل ويحيا إلى الأبد، فأخرجه الربّ الإله من جنة عدن، ليعمل في الأرض التي أخذ منها، فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم، ولهيب سيف متقلب لحراسة شجرة الحياة ».

واضح ما في هذه النقول من وصف الله - سبحانه - بالجهل، وأنه لا يدري أين آدم حتى عرّفه هو، وأنه كالبشر يتمشى كما يتمشى البشر، وأن السبب في إخراج آدم من الجنة ليس هو معصية آدم لربه كما وضحه القرآن، وإنما هو خوف الله تعالى من أن يأكل الإنسان من شجرة الحياة فيكون من الخالدين ! وأن الله لم يُعَرّف الإنسان الخير والشر، وإنما علم ذلك عندما أكل من الشجرة، وكل ذلك كذب وافتراء على الله سبحانه وتعالى.

ويفهم من كلامهم أن حياة الله التي لا آخر لها إنما كانت بسبب أكله من شجرة الحياة - سبحانه - عما يقولون.

وكما نسبوا إلى الله - سبحانه - الجهل نسبوا إليه الحزن والندم على فِعْلٍ فَعَلَه، فهم يذكرون أنه حزن على خلق الإنسان لما كثر شرّه وفساده في عهد نوح: « ورأى الربّ أن شرّ الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الربّ أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه، فقال الربّ: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم، وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب.

واستمع إلى هذه الخرافة التي وردت في الإصحاح الحادي عشر من سفر التكوين: « بعدما عمرت الأرض بذرية نوح، وكانت كلّها لساناً واحداً ولغة واحدة، وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا نعمة في أرض شنعار، وسكنوا هناك، وقال بعضهم لبعض: هلم نصنع لبناً ونشويه شياً، فكان لهم اللبن مكان الحجر، وكان لهم الحجر مكان الطين، وقالوا: هلم نبني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه في السماء ونصنع اسماً، لئلا نتبدد على وجه كل الأرض.

فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما، وقال الرب: هوذا شعب واحد، ولسان واحد لجميعهم، وهذا ابتداؤهم بالعمل، والآن لا

يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم، حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض، فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض، فكفوا عن بنيان المدينة، لذلك دعي اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض، ومن هناك بددهم الرب على وجه الأرض».

أي خرافة هذه التي تزوّر الحقيقة، وتكاد تمحو معالمها!، وأي إله هذا الذي ترسمه هذه الخرافة؟ هذا الإله الذي يخاف البشر، ويخاف تكتلهم واجتماعهم، فإذا به يحاربهم قبل أن تجتمع كلمتهم، ويصلب عودُهم، ويشتتهم في أقطار الأرض بعد أن يبلبل ألسنتهم.

ونسب اليهود إلى الله فعل الشر، كما نسبوا إليه الندم على ما فعل، ففي سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الرابع والعشرون: «فجاء الربّ وباء في إسرائيل من الصباح إلى الميعاد، فمات من الشعب من دان إلى بئر السبع سبعون ألف رجل، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها، فندم الرب على الشر. فقال للملاك المهلك الشعب: كفى الآن، رويدك».

فإذا تركنا ما حكاه القرآن عن ضلالة اليهود في وصفهم لربهم، وما في التوراة من تحريف وزيف ونظرنا في (التلمود) وهو الكتاب الذي سطره علماء اليهود وحاخاماتهم، وله من الأهمية في نظرهم فوق ما للتوراة، لو نظرنا فيه لهالنا ذلك الضلال الذي وقع فيه اليهود لا في العقيدة فحسب، بل في شتى مناحي الشريعة.

وسأكتفي بأن أنقل من كتاب «الكنز المرصود في قواعد التلمود» ما يتعلق بالعزة الإلهية، فمن ذلك أن الله عندهم يحتاج إلى أن يقرأ ويتعلم، كما أنه يهزل ويلعب سبحانه وتعالى، فقد ورد في تلمودهم «أن النهار اثنتا عشرة ساعة: في الثلاثة الأولى منها يجلس ويطالع الشريعة، وفي الثلاثة الثانية

يحكم، وفي الثلاثة الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاثة الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك ».

واسمع ما هو أدهى وأعظم: «أنه لا شغل لله غير تعلمه التلمود مع الملائكة»، وليس الملائكة فقط، بل مع (أسمودية) ملك الشياطين في مدرسة السماء.

وما الحوت الذي يلعب معه الرب؟ إنه حوت كبير جداً يمكن أن يدخل في حلقه سمكة طولها ثلاثمائة فرسخ بدون أن تضايقه، وبما أن له هذا الحجم فإن الله خاف إذا ما تناسل أن يهلك الدنيا، ولذا فإنه رأى أن يحرمه زوجته، لأنه لو لم يفعل ذلك لامتلأت الدنيا وحوشاً أهلكت من فيها، ولذلك حبس الله الذكر بقوته الإلهية، وقتل الأنثى وملحها وأعدها لطعام المؤمنين في الفردوس.

ويضيفون إلى هذه الخرافات التي أصبحت عقائد لهم أن: « الله لم يلعب مع الحوت بعد هدم الهيكل، ولم يمل بعد هدم الهيكل إلى الرقص مع حواء بعدما زينها بملابسها، وعقص لها شعرها ».

تباً لهم وبُعداً، إنهم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، قول الأمم الضالة المشركة، فإلههم حسب تصورهم لا يختلف عن البشر، يفكر تفكيرهم، ويفعل فِعلهم، يلعب، ويرقص، ويحزن، ويبكي، على ماذا؟ على هدم هيكل اليهود الذي بناه لهم سليمان.

والهيكل يرمز إلى مجد اليهود، وقد جعلوا الله من ذلك التاريخ الذي هُدم فيه الهيكل إلى اليوم يبكي ثلاثة أرباع الليل يزأر كالأسد قائلاً: « تباً لي لأني صرّحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي ».

بل يغالون في التحريف والتدجيل، فيقولون: إن الله تضاءلت ذاته - سبحانه وتعالى - عما يقولون علواً عظيماً - بسبب حزنه على خراب الهيكل « وشغل الله مساحة أربع سموات بعد أن كان ملء السموات والأرض في جميع الأزمان ».

ويصفون العلي المجيد بأنه يحقر نفسه - سبحانه - عندما يمجّده عباده - ويقصدون بهم اليهود طبعاً - «ولما يسمع الباري - تعالى - تمجيد الناس له، يطرق رأسه ويقول: ما أسعد الملك الذي يمدح ويبجل مع استحقاقه لذلك، ولكن لا يستحق شيئاً من المدح الأب الذي يترك أولاده في الشقاء».

قاتلهم الله أنىّ يؤفكون.

ومما افتروه على ربّ العزة - جلّ وتقدّس عما يقولون - أنه يلطم ويبكي، وتتساقط دموعه، كل ذلك على شقاء اليهود وما حلّ بهم. «يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة، حتى إنه يلطم ويبكي كل يوم، فتسقط من عينه دمعتان في البحر، فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه، وترتجف الأرض في أغلب الأحيان، فتحصل الزلازل».

وينسبون إليه الخطأ والاعتراف بالذنب، والتكفير عن الذنب، فيزعمون كذباً وزوراً أن القمر خطأ الله سبحانه، وقال للرب - سبحانه - عما يقولون: «أخطأت حيث خلقتني أصغر من الشمس، فأذعن الله لذلك، واعترف بخطئه، وقال: اذبحوا لي ذبيحة أكفر بها عن ذنبي، لأني خلقت القمر أصغر من الشمس» ولا أدري كيف ساغ أن يزعموا أن الله يكفِّر، وترى لمن يكفر؟!

إن العقول التي تفتري هذا الافتراء سخيفة سخافة كبيرة، وإن العقول التي تؤمن بهذه السخافة وتصدقها لا تقل عنها سخافة، والحمد لله الذي هدانا للحق والنور المبين.

ومن جملة سخافاتهم التي هي عقائد عندهم «أن الله يستولي عليه الطيش، كما حصل ذلك منه يوم غضب على بني إسرائيل، وحلف بحرمانهم من الحياة الأبدية، ولكنه ندم على ذلك بعد ذهاب الطيش منه ، ولم ينفذ ذلك اليمين، لأنه فَعَلَ ضد العدالة».

ولم يقف الأمر عند كونه يحلف، ويحلف جهلاً وطيشاً، ويظلم ويكفِّر، بل زعموا أنه يحتاج إلى التكفير عن يمينه، فقد جاء في تلمودهم «إن الله إذا حلف يميناً غير قانونية احتاج إلى من يحلله من يمينه، وقد سمع أحد العقلاء من الإسرائيليين أن الله تعالى يقول: من يحللني من اليمين التي أقسمت بها؟ ولما علم باقي الحاخامات أنه لم يحلله منها اعتبروه حماراً، لأنه لم يحلل الله من يمينه، ولذلك نصبوا ملكاً بين السماء والأرض اسمه (مي) لتحليل الله من أيمانه ونذوره عند اللزوم»[1].

هذه نماذج من العقيدة اليهودية المحرفة المزيفة التي تشكل قاعدة دينهم، وهي لا تقل في انحطاطها عن أساطير الإغريق والوثنيين في آلهتهم.

(١) هذا قليل من كثير مما سطرته أيدي اليهود في (تلمودهم).

المبحث الثالث
انحراف العرب عن التوحيد

كان العرب على دين التوحيد دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، واستمروا على ذلك إلى ما قبل البعثة بأربعمائة سنة حيث ظهر فيهم رئيس مسموع الكلمة مطاع لا يخالَف، فغير دينهم، ذلك هو عمرو بن عامر الخزاعي.

ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبَهُ في النار، كان أول من سيب السوائب)[1]، وفي صحيح البخاري أيضاً عن عائشة عن النبي ﷺ قال: (رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قُصْبهُ، وهو أول من سيب السوائب)[2].

فعمرو هذا غيّر دين العرب بدعوتهم لعبادة الأصنام، وباستحداث بدع في دين الله تعالى، أحلّ فيها وحرّم بهواه، ومن ذلك ما ذكره الله في كتابه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣][3].

---

(١) رواه البخاري: ٨/ ٢٨٣. ورقمه: ٤٦٢٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه: ٨/ ٢٨٣. ورقمه: ٤٦٢٤.

(٣) البحيرة: الناقة تبحر أذنها، أي تشق ثم ترسل، وتكون هذه علامة تعرفها العرب، فلا يركبها أحد ولا يحملون عليها، يفعلون بها ذلك إذا ولدت خمس بطون آخرها ذكر.

والسائبة: أن ينذر الرجل إذا حدث أمر ما يحبه أن يسيب ناقة وتجعل كالبحيرة في عدم الانتفاع بها.

والوصيلة: كانت العرب إذا ولدت الناقة أنثى لهم، وإذا ولدت ذكراً لآلهتهم، وإذا ولدتهما قالوا: وصلت أخاها فيحرم ذبح الذكر.

والحام: الفحل يحمل من ظهره عشرة أبطن، فيحرم ذبحه وظهره، ولا يمنع من مرعى ولا ماء. وهم إنما يفعلون هذا بالأنعام تقرباً بذلك إلى طواغيتهم.

وتختلف الروايات في الكيفية التي نشر عمرو بها الأصنام في الجزيرة العربية، فمن قائل إنّ عمراً كان له رئيٌّ من الجن هو الذي دله على الأصنام التي كانت مدفونة منذ عهد نوح، وكان قوم نوح يعبدونها، فاستخرجها عمرو، ووزعها في العرب، وقيل: إنه جاء بالأصنام من بلاد الشام، عندما رآهم يعبدونها، فطلب منهم صنماً، فأعطوه واحداً نصبه بمكة[1].

والسبب في أن العرب تابعت عمرو بن لحي أنه كان ذا مكانة فيهم، فقد كان سيد خزاعة في حال غلبتها على مكة وعلى البيت بعد أن نفت قبيلة جرهم من مكة، وكانت العرب قد جعلته رباً، لا يبتدع بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم، فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة.

ويقال: إن عمراً هذا هو الذي دعا الناس إلى عبادة اللات، وكان رجلاً يلت السويق للحاج بالطائف على صخرة هناك، فلما مات زعم عمرو بن لحي أنه لم يمت، وأنه دخل في الصخرة التي يلت عليها، وأمرهم بعبادتها.

ومما يذكر عنه أيضاً أنه هو الذي غير التلبية التي كانت تعلن التوحيد لله وحده، فقد كانت التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك) واستمر الحال حتى كان عمرو بن عامر، فبينما هو يطوف بالكعبة يلبي تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه، فقال: (لبيك لا شريك لك)، فقال الشيخ: إلا شريكاً هو لك، فأنكر هذا عمرو، فقال: ما هذا؟ فقال الشيخ: قل تملكه وما ملك، فإنه لا بأس بهذا، فقالها عمرو، فدانت بها العرب.

---

(١) راجع: السيرة النبوية، لابن هشام: ١/ ١٢١.

بداية الانحراف:

ويذكر لنا ابن إسحاق كيف كانت بداية الانحراف عند العرب من نسل إسماعيل عليه السلام في عبادتهم الأحجار، فقد كان «أول أمرهم أنهم كانوا يعظمون الحرم، فلا يرتحلون منه حتى كثروا وضاق بهم، فأخذوا يرتحلون عنه طالبين السعة والفسح في البلاد، فكان لا يظعن ظاعن منهم عن الحرم إلى غيره إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً له، فحيث ما نزلوا وضعوه، فطافوا به كطوافهم بالكعبة، ثم أدى بهم ذلك إلى عبادة هذه الأحجار، ثم كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة»(١).

وانظر إلى ما صار إليه أمرهم وحالهم: عن أبي رجاء العطاردي قال: «كنا نعبد الحجر في الجاهلية، فإذا وجدنا حجراً أحسن منه نلقي ذلك ونأخذه، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حثية من تراب، ثم جئنا بغنم فحلبنا عليه ثم طفنا به». ومن عجائب أمر الجاهلية أن الرجل منهم كان إذا سافر حمل معه أربعة أحجار، ثلاثة لقدره والرابع يعبده.

أصنام العرب:

واتخذوا الأصنام والأوثان، قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: «وكان من أقدم أصنامهم (مناة)، وكان منصوباً على ساحل البحر الأحمر من ناحية (المشلل) بقديد بين مكة والمدينة، وكانت العرب جميعاً تعظمه، وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه، ويذبحون له، ويهدون له، ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج، وبلغ من تعظيم الأوس ومن جاورهم من عرب يثرب له أنهم كانوا يحجون،

---

(١) السيرة، لابن هشام: ١/ ١٢٢.

فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا أتوه فحلقوا عنده رؤوسهم، وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك.

وكانت (مناة) لهذيل وخزاعة فبعث رسول الله ﷺ علياً عام الفتح فهدمها، ثم اتخذوا (اللات) بالطائف وهي أحدث من مناة، وكانت صخرة مربعة، وكانت سدنتها من ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها، وكانت قريش وجميع العرب يعظمونها، وبها كانت تسمى زيد اللات، وتيم اللات، وكانت في موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم، فلم تزل كذلك حتى بعث رسول الله ﷺ المغيرة ابن شعبة، وأبا سفيان بن حرب لما أسلمت ثقيف، فهدماها وحرقاها بالنار.

غير أن ابن جرير يروي في تفسيره عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم:١٩] قال: كان اللات يلت السويق للحاج، فمات فعكفوا على قبره، وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلتّ السويق للحاج. رواه البخاري بنحوه.

ثم اتخذوا (العزى) وهي أحدث من اللات، اتخذها ظالم بن سعد بوادي نخلة فوق ذات عرق، وبنوا عليها بيتاً، فكانوا يسمعون منها الصوت، قال الكلبي فيما يرويه عن ابن عباس قال: كانت للعزى شيطانة تأتي ثلاث سمرات ببطن نخلة.

فلما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فقال: ائت بطن نخلة، فإنك ستجد ثلاث سمرات، فاعضد الأولى، فأتاها فعضدها، فلما جاء إليه قال: هل رأيت شيئاً؟ قال: لا. قال: فاعضد الثانية، فعضدها، ثم أتى النبي ﷺ قال: هل رأيت شيئاً؟ قال لا، قال: فاعضد الثالثة، فأتاها فاذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تضرب بأنيابها وخلفها سادنها، فقال خالد:

كفرانك لا سبحانك، إني رأيت الله قد أهانك.

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي حممة، ثم عضد الشجرة، وقتل السادن، ثم أتى النبي ﷺ فأخبره، فقال: (تلك العزى، ولا عزى بعدها للعرب). وكانت العزى لأهل مكة في موضع قريب من عرفات، وكانت شجرة يذبحون عندها، ويدعون.

وقال الكلبي في كتابه الأصنام: «وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها، وأعظمها عندهم (هبل)، وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الإنسان، وكانوا إذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أتوه، فاستقسموا عنده بالقداح.

ومن أصنامهم إساف ونائلة، ويروي بعض الرواة أن رجلاً وامرأة زنيا في البيت الحرام، فمسخهما الله حجرين، ووضعتهما قريش عند الكعبة ليتعظ بهما الناس، فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها.

ولما فتح الرسول ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطعن بقوسه في وجوهها وعيونها ويقول: ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] وهي تتساقط على رؤوسها، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت. أخرجاه في الصحيحين عن ابن مسعود بنحوه ولم يذكرا «وهي تتساقط... إلخ» وعندهما يطعنها بعود كان في يده.

وقد انتشرت عبادة الأصنام حتى إنه كان لكل دار في مكة صنم يعبده أهلها، فإذا أراد أحدهم السفر فكان أول ما يصنع في منزله أن يتمسح به، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به.

قال ابن إسحاق الكلبي: «وكان (ذو الخلصة) لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب، وكان مَرْوَةً بيضاء منقوشاً عليها كهيئة التاج، وكان له بيت، فقال رسول الله ﷺ لجرير بن عبدالله البجلي: (ألا تكفيني ذا الخلصة؟)

فسار إليه بأحمس، فقاتلته خثعم وباهلة، فظفر بهم، وهدم بيت ذي الخلصة، وأضرم فيه النار ».

وفي البخاري ومسلم عن جرير بن عبدالله قال: قال لي رسول الله ﷺ (ألا تريحني من ذي الخَلصَةَ)، وكان بيتاً في خثعم يسمى الكعبة اليمانية، فانطلقت في خمسين ومائة فارس من أحمس إلى ذي الخلصة، وكانوا أصحاب خيل، فقلت: يا رسول الله، إني لا أثبت على الخيل، فضرب بيده في صدري حتى رأيت أثر أصابعه في صدري وقال: (اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً)، فانطلق إليها فكسرها.

والأصنام التي كانت منتشرة في الجاهلية أكثر من هذا الذي ذكرناه.

ظلمة دامسة عند البعثة:

ولم يكن قبل بعثة الرسول ﷺ من بقايا النور السماوي الذي جاءت به الأنبياء إلا أضواء خافتة لا تكفي للهداية والاستقامة على المنهج الرباني، لضياع ذلك المنهج واختلاطه بذلك الباطل الكثير، وفي الحديث: (إن الله نظر -قبيل البعثة- إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب).

وقد حفظت لنا النصوص التاريخية أن أربعة من عقلاء قريش اعتزلوا قومهم في أحد أعياد قريش عند وثن من الأوثان، وهم ورقة بن نوفل، وعبيدالله بن جحش، وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبدالعزى، وزيد بن عمرو بن نفيل.

فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء، ولقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا، فإنكم -والله- ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون دين إبراهيم.

فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية، واتبع الكتب من أهلها، حتى

علم علماً من أهل الكتاب.

وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة، فلما قدمها تنصر، وترك الإسلام حتى هلك نصرانياً.

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر، وحسنت منزلته عنده.

وأما زيد فوقف، فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق قومه، فاعتزل الأوثان، واجتنب الميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم، وبدأ قومه بعيب ما هم عليه.

وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح (واد غربي مكة) قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة، فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد:

إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وإن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء ماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟ إنكاراً لذلك وإعظاماً له»[1].

قال موسى بن عقبة حدثني سالم بن عبدالله - ولا أعلمه يحدث به إلا عن ابن عمر - «إن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود، فسأله عن دينهم فقال: إني لعلي أن أدين دينكم، فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً، وأنى

---

(١) رواه البخاري: ٧/ ١٤٢، ورقمه: ٣٨٢٦.

أستطيعه ! فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى، فذكر مثله. فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله. قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا غضبه شيئاً، وأنى استطيع، هل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً.

فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج، فلما برز رفع يديه، فقال: اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم»[١].

قال: وقال الليث: كتب إليّ هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: «رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري. وكان يحيي الموءودة. ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها»[٢].

ولقد سئل الرسول ﷺ عن زيد هذا فقال: (يُحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى ابن مريم) قال ابن كثير إسناده جيد حسن.

وعن عائشة أن الرسول ﷺ قال: (دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل دوحتين) قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد.

وبعد هذه الظلمة الشديدة أذن الله ببزوغ فجر الإسلام، فاستنار الناس بنوره، واهتدوا بهديه فله الحمد والمنة.

---

(١) رواه البخاري: ٧/ ١٤٢. ورقمه: ٣٨٢٧.

(٢) رواه البخاري: ٧/ ١٤٣. ورقمه: ٣٨٢٨.

أهم المراجع

- الإبانة لأبي الحسن الأشعري. مطبوعات الجامعة الإسلامية. المدينة المنورة.
- الإسلام عقيدة وشريعة لشلتوت. دار الشروق. القاهرة. التاسعة. ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ م
- أسماء الله وصفاته في معتقد أهل السنة والجماعة. د. عمر سليمان الأشقر. دار النفائس عمان. الأردن الثانية١٣١٤. هـ. ١٩٩٤م
- الأسماء والصفات للبيهقي. طبعة مصورة. بيروت.
- أصل الاعتقاد. د. عمر سليمان الأشقر. دار النفائس. الكويت. الأولى. ١٤١٠هـ. ١٩٩٠م
- اعتقادات فرق المسلمين للرازي. دار الكتب العلمية. بيروت ١٤٠٢هـ. ١٩٨٢ م
- البداية والنهاية لابن كثير. مكتبة المعارف، بيروت. الثانية. ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.
- التأويل خطورته وآثاره. د.عمر سليمان الأشقر. دار النفائس. عمان الأردن. الأولى. ١٤١٢هـ. ١٩٩٢ م.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن). دار الكتاب العربي. القاهرة. الثانية- ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.
- تلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني. نشره عبدالله هاشم اليماني. المدينة المنورة. ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م.
- التوحيد لابن خزيمة. مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة.
- التوحيد للزنداني. دار الخير. الأولى. ١٤١١ هـ. ١٩٩٠ م.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير. تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط. نشرته مكتبة الحلواني وآخرون. ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م.
- خلق أفعال العباد. البخاري. دار السلفية. الكويت. الأولى. ١٤٠٥ هـ. ١٩٨٥م.
- سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي. دمشق. الأولى.
- السيرة النبوية لابن هشام مع شرح أبي ذر الخشني. مكتبة المنار. الأردن. الأولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٨م.
- شرح العقيدة الطحاوية لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي. المكتب الإسلامي. بيروت- ١٣٩١هـ.
- شرح النووي على مسلم. المطبعة المصرية ومكتبتها. القاهرة.
- صحيح البخاري (الجامع الصحيح) بشرحه فتح الباري. المطبعة السلفية ومكتبتها. القاهرة.
- صحيح الجامع الصغير. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى.
- صحيح سنن ابن ماجة للألباني. نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج. الثانية-١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
- صحيح سنن أبي داود. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى. ١٤٠٩هـ. ١٩٨٠م.
- صحيح سنن الترمذي للألباني. نشره مكتب التربية العربي لدول الخليج. الأولى- ١٣٠٨هـ ١٩٨٨م.
- صحيح سنن النسائي. المكتب الإسلامي. بيروت. الأولى. ١٤٠٩هـ. ١٩٨٨م.

- صحيح مسلم (الجامع الصحيح). تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. طبعة دار إحياء الكتب العربية. مصر. الأولى. ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري. لابن حجر العسقلاني. المكتبة السلفية. القاهرة.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في التفسير للشوكاني. دار إحياء التراث. بيروت.
- الفتوى الحموية الكبرى. لشيخ الإسلام ابن تيمية. المكتبة السلفية. القاهرة. الرابعة. ١٤٠١هـ
- في ظلال القرآن لسيد قطب. طبعة دار الشروق. ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.
- لسان العرب. ترتيب يوسف خياط ونديم مرعشلي. دار لسان العرب. بيروت. الأولى.
- لوامع الأنوار البهية. للسفاريني. طبع دولة قطر.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. (جمع ابن قاسم) طبعته حكومة المملكة العربية السعودية. الأولى. ١٣٨١هـ.
- مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي. المكتب الإسلامي. دمشق. الأولى١٣٨٠هـ.
- معارج القبول للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي. مطبوعات دائرة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية.
- معتقد الإمام أبي الحسن الأشعري. د. عمر سليمان الأشقر. الأولى. دار النفائس عمان. الأردن. ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.
- مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
- المنتقى من أحاديث الأحكام لمجد الدين ابن عبدالسلام ابن تيمية. المطبعة السلفية. القاهرة.
- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات. محمد الأمين الشنقيطي. منشورات الجامعة الإسلامية المدينة المنورة. الثانية ١٣٨٨هـ.
- الأسماء والصفات للبيهقي. طبعة مصورة. بيروت.
- الصواعق المرسلة لابن القيم. مطبعة الإمام. القاهرة.
- مختصر العلو للذهبي. اختصره الألباني. المكتب الإسلامي. الثانية ١٤١٢هـ. ١٩٩١م.
- المعجم الوسيط. لإبراهيم أنيس وزملاؤه. دار إحياء التراث العربي. بيروت. الثانية.
- كتاب الله للعقاد. دار الهلال. القاهرة.
- الفوائد المجموعة للشوكاني. مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٠هـ. ١٩٦٠م. . القاهرة.
- الرسالة - للشافعي. دار الفكر - بيروت.
- نحلة تسبح الله. لمحمد حسن حمصي. دار الرشيد. دمشق. الثالثة ١٩٧٧ م.
- رد الدارمي على المريسي. للدارمي. دار الكتب العلمية. بيروت.
- شرح العقيدة الواسطية. محمد خليل الهراس. منشورات الجامعة الإسلامية. المدينة المنورة. الرابعة.
- الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام. حققه الشيخ ناصر الدين الألباني. ضمن مجموع بعنوان: من كنوز السنة - رسائل أربع. المطبعة العمومية - دمشق.

الفهرس

رقم الإيداع 2005/5866 **الترقيم الدولي** I.S.B.N 977-342-284-4